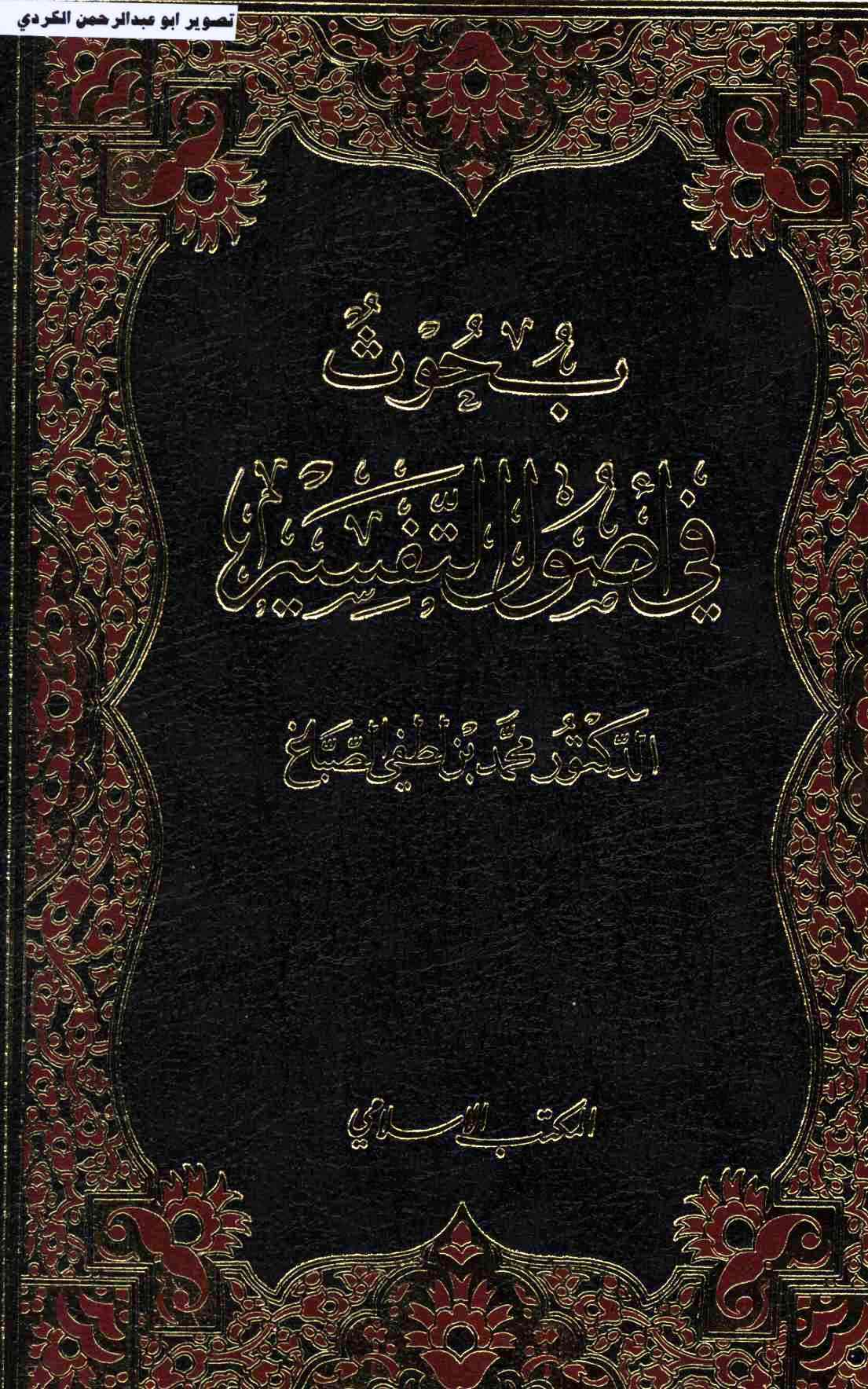


تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
بحوث
في أصول التفسير
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ
المكتب الإسلامي

بحوث في أصول التفسير

تأليف

محمد بن لطفي الصبّاغ

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــدَاء

إلى زوجتي: شريكتي في حمل أعباء الحياة من ثلث قرن، ورفيقة دربي، وأنس قلبي التي احتملت من أجلي كثيراً، وكانت معينة لي في حياتي الأسرية والعلمية والاجتماعية، وحافزة لي على خدمة الإسلام، والعمل به، والدعوة له، تذكرني إذا نسيت، وتساعدني إذا ذكرت.

إليها أقدم هذا الكتاب تقديراً لتضحياتها المشكورة، ونصحها الخالص، وإيثارها الدائم العطوف، وحنانها الوافر الرؤوف، وعطائها السخيّ، وودها الوفيّ.

أيش فايلر ــ ألمانيا
السبت ١٠/١٠/١٤٠٧ هـ
٦/٦/١٩٨٧ م

محمد

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد فهذه بحوث في أصول تفسير القرآن كتبتها على مدى عامين وألقيتها في إذاعة القرآن الكريم من الرياض، وكان كل بحث منها موضوعاً مستقلاً، أو جزءاً كاملاً من موضوع، وقد سمع بعضها نفر من أهل العلم وعلم بها نفر آخر، فطالبني عدد منهم بأن أجمعها في كتاب. فوافقت تلك الفكرة رغبة مني، ولكنني ترددت في تنفيذها، لما أعلم من ضعفي وقلة علمي.. وما زلت بين إقدام وإحجام حتى شرح الله صدري لتقديمها للطبع في كتاب، وإني لأرجو أن يكون نشره وسيلة لاستكماله وتجويده، وأن يكون حافزاً للعلماء الموهوبين المتمكنين على أن يكتبوا في هذا الموضوع.

وكنت أرجو أن أعيد صياغة هذه البحوث من جديد، ولكنني لو أرجأت نشرها لأحقق هذا الرجاء لبقي الكتاب حبيس رفوف مكتبتي، شأن كثير من الكتب التي تنتظر الصياغة الجديدة أو الاعداد للطبع. وكل ما فعلته أنني جعلت هذه البحوث موصولة الحلقات، وحذفت منها ما يتصل بخطاب السامعين وعدلت بعضها تعديلاً طفيفاً، وأضفت إليها إضافات يسيرة، ووثقت النصوص بذكر المصدر والصفحة.

وبقي فيها شيء من النثر والتوزيع للمسألة الواحدة في أكثر من موضع من هذه الصفحات، وكان أكثر ذلك بسبب الجولة الطويلة التي قضيتها في المقدمات

والرسائل المؤلفة في أصول التفسير، ذلك أني لم أدع كتاباً ولا رسالة من الكتب والرسائل التي بحثت هذا الموضوع واتصل بها علمي إلا درستها وأفدت منها وذكرت خلاصتها.

ومهما يكن من أمر فإن خاصة الوضوح والسهولة وتيسير المسائل العلمية لغير المختصين تتجلى في هذا الكتاب، ومن أجل ذلك كانت الأمثلة الكثيرة التي أوردها شواهد للقاعدة، وكان الشرح للمثال وبسط القول فيه. وأحسب أن قراءة بحوثه لا تخلو من تذكير وفائدة. إن الكتب في علم أصول التفسير قليلة، وهو علم مهم لاتصاله بالقرآن الكريم الذي هو أصل ديننا، وسبب عزتنا، وسر بقاء لغتنا. هذا وإني لأرجو الأخوة الذين يقرؤون هذا الكتاب أن يوافوني بملاحظاتهم وتسديداتهم إن رأوا فيه ما ينتقد، وأن يدعوا لي دعوة صالحة في ظهر الغيب إن انتفعوا بشيء وجدوه فيه.

في بحوث هذا الكتاب فصول عن قواعد تفيد معرفتُها في تفسير القرآن، ولم أتوسع فيها، لأنني وجدت تكلفاً في كثير منها عند الذين جمعوها لتكون في أصول التفسير. ولديَّ عزم ــ إن شاء الله ــ على إعادة النظر في عدد آخر من القواعد وذكر ما له علاقة وثيقة بهذا العلم المبارك، وقد جمعت طائفة جديدة، أرجو أن أضمنها الطبعة المقبلة إن كتب الله أن يطبع هذا الكتاب مرة أخرى وفسح لنا ربنا في العمر.

وقد حاولت في هذه البحوث أن أستوفي أهم موضوعات علم أصول التفسير. فقد ذكرت أهمية هذا العلم ومنهجيته وأثره في تسديد فهم القرآن الكريم.

وبحثت في نشأته وتطورها عند عدد من العلماء المتقدمين. وعرضت عدداً من القضايا التي يهتم بها هذا العلم كالعلوم التي ينبغي أن يتقنها المفسر، والشروط التي يجب أن تتوافر في شخصه، والقواعد التي تفيد في الشرح والتفسير، وأهمية التدبر والعمل به وللموضوعية في التفسير وأسباب النزول، والاسرائيليات، وكيف تفسر آيات الصفات، ومعرفة طبيعة الكتاب الكريم وأغراضه التي أنزل من أجلها، وطريقته التي عالج بها القضايا وغيرها مما تجده في الصفحات المقبلة.

هذا وفي هذه البحوث بيان للمفسر كيفَ يمكن أن يفسر القرآن، ولا بُدَّ من التنبيه أنّ على المفسر أن يراعي أيضاً إلى جانب ما ذكرناه من أصول التفسير قواعد البحث العلمي التي تذكر في كيفية كتابة البحوث وتذكر في كتب مناهج البحث.

وقد صنعت فهرساً دقيقاً لمسائل هذا العلم الواردة في جولتنا في المقدمات والكتب، وهذا يعين القارىء على أن يجمع أطراف المسألة وأشتاتها المذكورة عند أكثر من عالم من العلماء.

وبعد فإني أترك القارىء الكريم مع هذه البحوث مجموعة في هذا الكتاب وسميته «بحوث في أصول التفسير»، فما كان فيه من توفيق فهو من فضل الله عليّ، وما كان فيه من خطأ ووهم فمني.

نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا ممن يكون له شرف خدمة هذا الكتاب الكريم، ونسأله تعالى أن ينير بصائرنا لنقف على كنوز هذا الكتاب الخالد، وأن يوفقنا للعمل بمحكمه، والايمان بمتشابهه، وأن يرزقنا تلاوته وتدبره وفهمه، والدعوة لإقامة حياتنا على أسسه ومبادئه إنه سميع مجيب.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. والحمد لله رب العالمين.

أيش فايلر ــ ألمانيا

السبت ١٠/شوال/١٤٠٧ هـ

١٩٨٧/٦/٦ م

أصول التفسير والمنهجيّة

دعت آياتٌ من القرآن العظيم الناس إلى تدبّر كتاب الله وفهمه. فمن ذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿أفلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[1] وقوله تعالى في سورة محمد: ﴿أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أم عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2]. وقوله تعالى في سورة ص: ﴿كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أولُو الألْبَابِ﴾[3].

وهذا التدبر خطوة للعمل به. قال تعالى: ﴿فَبَشِّر عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ. أولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ الله وَأولَـئِكَ هُمْ أولو الألْبَاب﴾[4]. ولقد جرى سلفنا الصالح على هذا السنن، ففهموا هذا الكتاب الكريم، ودرسوه وعملوا به؛ بل كانوا لا يجاوزن آيةً إلى أخرى حتى يعملوا بما فيها، فتعلموا العلم والعمل جميعاً[5]. عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آياتٍ لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهنّ. وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً.

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدلول الخبر الذي نقل عن واحد من الصحابة وهو عبد الله بن عمر أنه حفظ سورة البقرة في ثماني سنوات[6].

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٢) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٣) سورة ص: الآية ٢٩.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٧-١٨.

(٥) انظر هذين الحديثين في مقدمة تفسير الطبري ط شاكر ١/٨٠ وانظر ص ٣٤ وص ٦٨ وص ٨٢ من هذا الكتاب.

(٦) جاء في تفسير القرطبي ١/٣٩-٤٠: [وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها] وانظر «الموطأ» ١/٢٠٥ ط فؤاد عبد الباقي باب ما جاء في القرآن.

ولفهم هذا الكتاب أصول لا بُدّ أن ترعى. وموضوعنا في هذا الكتاب هو أصول التفسير.

وهو علم مهم من علوم القرآن.

وهذا العلم (علم أصول التفسير) يضع القواعد للتفسير، ويبين الطريقة المثلى في شرح كلام الله عز وجل، وهو من هذه الناحية يعبّر عن منهجية رائعة، وأمة الإسلام عرفت هذه المنهجية في كافة جوانب الثقافة والفكر... وبسبب هذه المنهجية استطاع العلماء المسلمون أن يتخذوا المنهج التجريبي أساساً يصدرون عنه في حياتهم العلمية.

ومن الأمثلة على ذلك موقف المسلمين من المنطق والفلسفة والعلوم الأخرى التي وفدت عليهم من الأجانب، فلم يقفوا منها موقف المستسلم المنقاد بل كانوا يحكمون عقولهم ويختبرون صحتها باللجوء إلى التجربة.

وبذلك اختلفوا عمّن تقدمهم من المشتغلين بهذه الأمور، إذ كان أولئك يقبلون الكلام بناء على سمعة قائله، فإذا قال أرسطو أو فيلسوف من الفلاسفة ذوي السمعة الضخمة إذا قال واحد من هؤلاء قولاً أخذوا به دون مناقشة أو تردد.

لقد اشتغل المسلمون بعلوم النبات والحيوان والطب والفيزياء وما إلى ذلك، وأفادوا من تراث الأمم السابقة في هذه العلوم، ولكنهم لم يكونوا يقبلون الكلام الذي يقفون عليه في الكتب، أو يسمعونه من أساتذتهم، دون أن يجروا عليه التجارب.

وبذلك استطاعت الأمة الاسلامية بسبب تأثرها بالاسلام أن تصل إلى المنهج التجريبي الذي أخذته عنها أوربا، فاستطاعت أن تقفز قفزات في عالم الطب والعلوم والاختراع والتقدم التقني.

ويعترف المنصفون من علماء الغرب ومفكريه بهذه الحقيقة ويقررون أن المنهج التجريبي هو هدية المسلمين إلى الفكر الإنساني والحضارة الإنسانية [1].

---

(١) انظر آخر كتاب هذا الدين فصل: رصيد التجربة لسيد قطب رحمه الله.

وإننا لنجد لعدد من العلوم الإسلامية علماً ينظم طرائق التفكير فيه ويضبط وسائل الاستنباط في مسائله. وهذا يتصل بمنهجية الثقافة الاسلامية وهي في هذا رائدة أصيلة لا تنقل عن غيرها هذه الطريقة.

فعلم الفقه يخدمه ويساعده علم قائم بذاته هو علم أصول الفقه.

وعلم الحديث يخدمه ويساعده علم يعرف بعلم أصول الحديث وهو يضبط طرائق النقد والحكم على الحديث صحة وضعفاً.

وعلم النحو يخدمه ويساعده علم قائم بذاته هو علم أصول النحو[1].

وكذلك فإنَّ علم التفسير له علم يساعده ويخدمه ويضبط طرائق التأليف فيه والاستنباط منه وهو علم أصول التفسير الذي نحن بصدد الحديث عنه الآن.

وليس من شك في أنَّ علم أصول التفسير أفاد إفادة كبيرة من العلوم المشابهة له والمرتبطة بعلوم أخرى، ولا سيا علم أصول الفقه.

ذلك أن علم أصول الفقه أقدم نشأة وظهوراً من علم أصول التفسير لأنه قام على يد الإمام المجدد العبقري الألمعي ناصر السنة وقامع البدعة محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ رحمه الله ورضي عنه، فلقد أسس علم أصول الفقه وكتب فيه كتاباً وصل إلينا[2] ويُعَدُّ عمدة فيه. وليس المجال هنا مجال التوسع في تاريخ ذاك العلم.

وعلم أصول التفسير علم يقوم على ضبط التفسير، ووضع قواعد مهمة ضرورية لسلامة السير في طريق هذا العلم، واشتراط شروط للمفسر يعمل على تحقيقها قبل البدء في التفسير. وذلك كله لكيلا يكون هناك غلط في تفسير القرآن، أو تحريف لكلام الله، أو تشويه لمعناه.

---

(١) انظر كتاب الاقتراح في أصول النحو للسيوطي وكتاب أستاذنا سعيد الأفغاني في أصول النحو.

(٢) هذا الكتاب هو «الرسالة» والرسالة تستعمل بمعنى المقدمة، وقد كتبها الشافعي جواباً على سؤال ورد إليه من أحد العلماء. ثم كانت هذه الرسالة مقدمة لكتاب الأم. وقد طبعت معه، وأفردها الشيخ أحمد محمد شاكر بالطبع والتحقيق.

وهذا العلم واحد من علوم عدة قامت لخدمة هذا الكتاب العزيز حتى إننا لنستطيع أن نقول بكل جزم: ليس هناك كتاب عرفه البشر حظي من العناية والخدمة والضبط والتحرير ما حظي به كتاب الله، وهذا مما يتصل بحفظ هذا الكتاب الذي تعهد الله به في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ (١).

وعلم أصول التفسير علم يمكن أن نصنفه في العلوم القابلة للنمو؛ ذلك لأنَّ العلوم أنواع:

▫ فمنها ما بلغ الغاية في النضج حتى قال عنه الباحثون: إنه احترق، ويذكرون مثلاً عليه علم النحو (٢).

▫ ومنها علوم نضجت ولم تحترق.

▫ ومنها علوم ما زالت سائرة في طريق النضج ولما تبلغ تلك النهاية التي بلغتها العلوم الأخرى، ويضربون مثلاً على ذلك علوم البلاغة.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) نعم إن العلوم الاسلامية على درجات فنها ما نضج وتقررت مبادئه وأحكامه، وتحددت مباحثه ومعالمه وألف فيه المؤلفون وأكثروا، وبحثوا في موضوعاته وتعمقوا، وأفاضوا في ذلك إفاضة ليس لها حدّ، حتى عبَّر بعضهم عن هذا الحال بالاحتراق. يجرون في التشبيه إلى أبعد مجالاته.. فالعلم يشبه الطعام الذي يُعدّ ويُطبخ وهو غذاء الأرواح والعقول.. ولكن عملية الانضاج إذا استمرت وزادت عن حدّها احترق هذا الطعام.

وهذه مبالغة من العلماء في الجري في التشبيه إلى أبعد حدوده.. فالعلم طعام.. هذا تشبيه جميل.. ومطابق للواقع؛ فكما أن الطعام غذاء الجسد فإن العلم غذاء الفكر والروح، ولكن صحة هذا التشبيه لا تتيح لنا أن نطبق على العلم كل ما نطبقه على الطعام، فهناك مجالات لكل منها لا تنطبق على الآخر، ومنها مسألة الاحتراق.

إن العلم مهما بحث فيه الباحثون لا يفسد ولا يحترق، بل يزداد نضجاً إن كان النهج المتبع في البحث نهجاً سليماً. والفساد يمكن أن يتسرب إلى كل علم عندما يكون نهج البحث فيه منحرفاً أو معوجاً حتى ولو لم يصل إلى مرحلة النضج.

والمثل الذي يضربونه (وهو النحو) يبين لنا عدم صحة هذه المبالغة في التشبيه.. فكم في النحو — حتى الآن — من مجال للاصلاح والترتيب والعرض والنقد. ولكن مرادهم في المثل أن هذا العلم قد رزق حظاً من التأليف كبيراً، وأن عبقريات ضخمة انصرفت نحو هذا العلم وتركت لنا كتباً قيمة فيه.

ونستطيع أن نلحق علم أصول التفسير بهذه الزمرة من العلوم.

ونحن بذلك نبيّن أهمية البحث فيه، وندعو أن يُعطى من العلماء والباحثين عناية أكبر.. ينبغي أن تقبل الطاقات الفعالة نحوه، وأن تعمل فيه المواهب الممتازة، تنمّيه وتسهم في إثرائه.

* * *

إنَّ على طلبة العلم خاصة، وعلى المسلمين عامة أن يُولوا هذا الكتاب الكريم العظيم ما أولاه آباؤهم وأسلافهم من الجهد والعناية والضبط والتحرير.

لأنَّ سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة مرتبطتان بهذا الكتاب العزيز وتوقيره وإحلاله في حياتهم محل القيادة.

وتوقيره وتعظيمه والقيام به على أحسن وجه يكون في تدبره، وخدمته والعناية به، والعمل بمقتضاه.

لمحة تاريخية وأهم المصادر

ذكرنا أنَّ علم أصول التفسير هو الذي يحكم خطة المفسر فيحول بينه وبين الخطأ في الفهم والاستنباط، وأنه يعينه على أداء مهمته على الوجه الأفضل، إنه به يعرف مقاييس الشرح السليم، ويضبط طرائق التأويل.

وذكرنا أنَّ هذا العلم وغيره من العلوم التي عرفت بالأصول هي عنوان المنهجية في الفكر الاسلامي والعلم الاسلامي.

ونودُّ أن نذكر أنه يحسب كثير من العامة والجهلة بتاريخنا وفكرنا وثقافتنا أنَّ هاتيك المنهجية ما عرفناها إلا بعد اتصالنا بالغرب، وأننا اقتبسناها عنهم، وهذا باطل من القول، ومخالف لحقائق الواقع التاريخي.. بل إنَّ الغرب هو الذي أخذ عن المسلمين كثيراً من معالم المنهجية وأخذ عنهم المنهج التجريبي كما ذكرنا آنفاً.

إنَّ تفسير القرآن بدأ مبكراً في حياة المسلمين.. لقد بدأ منذ تنزل هذا الكتاب الكريم الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين.

فتبيينُ آيات الكتاب الكريم وتفسيرها مهمة من المهمات التي كلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

□ فهو ﷺ مكلف بأن يعلم الناس الكتاب وأن يبيّن لهم ما نُزِّل إليهم ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وقد قام ﷺ بهذا التكليف خير قيام فأدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة ونصح الأمة، وبيّن للناس ما نزل إليهم، وحكم بينهم بما أنزل الله، فجزاه الله عنا خير ما جازى نبياً عن أمته، وجزاه ما هو أهله.

وحمل المهمة بعد رسول الله ﷺ الصحابة الكرام، مصابيح الهدى وأئمة الفلاح، يشرحون للناس معاني الآيات، ويستنبطون الأحكام الشرعية منها، وكانت فطرتهم اللغوية فطرة صافية سليمة، وذوقهم البياني ذوقاً رفيعاً مرهفاً، فكانوا يستطيعون الوقوف على المعاني العميقة، ويدركون المقاصد السامية، التي جاء القرآن ليرسخها في حياة الناس.

وساعدهم على الفهم السليم بالاضافة إلى الفطرة اللغوية الصافية أمران:

□ أما أولهما فهو مشاهدتهم أسباب نزول آيات القرآن، ومعايشتهم لوقعها على الناس جميعاً مسلمين وكافرين.

□ وأما ثانيهما فهو قيام الدولة الاسلامية الفاضلة التي تطبق هذه الآيات وتحق الحق وتبطل الباطل، وتعلي كلمة الله في الأرض، وتحرّر المظلومين البائسين من أبناء آدم.

إنَّ هذا كله مكّن الصحب الكرام من إدراك مغزى آيات القرآن وفهمها وبيانها للناس.

ثم داخلت العجمة أبناء العرب المسلمين، ففسدت سلائق كثير من الناشئة، وكثر الهجناء، وهم الذين ينحدرون من أب عربي وأم أعجمية، وعمَّ اللحن وانتشر، وتسرب حتّى إلى الأوساط العريقة في عروبتها. وقامت علوم العربية تعالج هذا الواقع خدمة للقرآن.. ونمت العلوم وتدرجت وقام علم التفسير وعلوم عدة تهتم بالقرآن.. فكان علم أصول التفسير.

* * *

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٤.

ونودُّ هنا أن نذكر أهمَّ المصادر والمراجع التي يمكن أن يرجع إليها طالب العلم الراغب في معرفة أصول التفسير.

١ ــ من ذلك المقدمات النفيسة التي كتبها المفسرون الكبار من أمثال الطبري والقرطبي وأبي حيان وابن كثير وغيرهم. وسنخصُّ كلاً منها بشيء من الحديث.

٢ ــ ومن ذلك رسائل مؤلفة في هذا العلم لعلّ من أهمها رسالة شيخ الاسلام ابن تيمية. وسنخصّ هذه الرسالة بشيء من الدراسة والعرض والتلخيص ومن العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع السيوطي والفراهي والدهلوي وغيرهم.

٣ ــ ومن ذلك مباحث عدة في علم أصول الفقه ولا سيما في مبحث الدلالة.

٤ ــ ومن ذلك مباحث متناثرة هنا وهناك في علوم عدة كعلم البلاغة وعلم مصطلح الحديث وغيرهما.

فائدة جمع مباحث علم أصول التفسير:

قررنا أن مباحث هذا العلم الجليل منثورة في بطون كتب أصول الفقه والتفسير والبلاغة، ونودُّ أن نقرر الآن أن هناك ضرورة علمية ملحة لإفراد مباحث هذا العلم ــ أي علم أصول التفسير ــ وإبرازِها تحت عنوان قرآني متميز، وفي حيز خاص، لخدمة كتاب الله تبارك وتعالى ولتجنب الخطأ في التأويل والتفسير والفهم والتطبيق.

□ ذلك لأنَّ بقاء تلك المباحث العميقة، والقواعد الرائعة حيث ذكرنا، ولا سيا في علم أصول الفقه، لأنَّ بقاءها هناك يجعلها بعيدة عن ساحة الحضور والتصور، ويجعل فائدتها قليلة، وربما لا يذكرها عند التصدي للتفسير من سبق له أن اطلع عليها، بلْه من لم يقرأها ولم يسمع بها.

□ وكذلك فإن إقرار تلك المباحث من أصول التفسير وإبرازها تحت عنوان خاص بها، يتيح لها مزيداً من التحرير والتنقيح، والزيادة والتسديد، فطاقات البشر متكاملة، والمواهب غير مقصورة على زمان ولا بلد، فقد تأتي عبقرية وموهبة فذة، وتسهم في إثراء هذا العلم وتكميله، وهذه سنة الله في العلوم والمخترعات في

أمتنا والأمم الأخرى، فالعلم يبدأ صغير الحجم محدود الجوانب، ولا تزال العقول والأذهان تعمل عملها فيه إنضاجاً وبحثاً وتحريراً حتى يستوي على سوقه، وكذلك المخترعات، فلو قارنـّا بين أول مذياع ظهر للناس وما تزخر به الأسواق اليوم من أجهزة الراديو المتطورة لوجدنا الفرق كبيراً، ولكن الفضل يبقى لصاحب الخطوة الأولى. وابن مالك يقول عن ابن معطي:

وهو بسبق حائز تفضيلاً مستوجب ثنائي الجميلا[1]

□ وأمر ثالث في غاية الأهمية وهو أن تلك المباحث عندما تكون منثورة في كتب أصول الفقه يكون اهتمامها منصباً بشكل رئيسي على الأحكام التفصيلية ومسائل الفروع، ذلك لأن موضوع الفقه بيان الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات بأنواعها المتعددة. والبحث فيها قائم على بيان حكم فروعها، وكتاب الله تعالى ــ كما هو واضح ــ فيه العقائد والأخلاق والقصص والموعظة والترغيب والترهيب والأحكام الشرعية. بل إن معظم القرآن متعلق بالعقيدة والأخلاق الفردية والاجتماعية.

* * *

(١) وهذا البيت في مقدمة أرجوزة محمد بن مالك في العربية المسماة: «الخلاصة» والمشهورة باسم: «الألفية» منوهاً بأرجوزة ابن معطي بالموضوع ذاته.

ابن جرير وأصول التفسير

١ — ولنبدأ بشيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى.

[هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، من أهل آمل في طبرستان. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ورحل من بلده وهو في الثانية عشرة من عمره، طلباً للعلم، فجاء مصر والشام والعراق واستقر ببغداد، وكان من أئمة الحديث أهل الرواية والضبط المتقن، وقد شارك البخاريَّ في كثير من أساتذته، وروى عن خلق كثير من الشاميين والعراقيين وغيرهم، كان ذا ثقافة موسوعية، فهو كما قلنا من كبار أئمة الحديث، وهو شيخ المؤرخين، ومن كبار علماء القراءات، ومن فحول علماء العربية، وهو إمام مجتهد صاحب مذهب فقهي، وذكروا أن أصحابه يقال لهم الجريرية. وكان ذا أسلوب رفيع متين في النثر، وكان شاعراً مفلقاً مجيداً. وكان من الأتقياء الصالحين. توفي سنة عشر وثلاثمائة للهجرة ببغداد] (١)

[وقد أثنى العدد الغفير من العلماء الأفاضل في مختلف العصور على هذا الكتاب:

□ ومن ذلك قول الإمام المحدث الكبير ابن خزيمة: (نظرت فيه من أوله إلى آخره، فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير) (٢).

□ ومن ذلك قول أبي عمر الزاهد غلام ثعلب: (قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره فما وجدت فيه حرفاً خطأً في نحو أو لغة) (٣).

□ ومن ذلك قول الخطيب البغدادي: (جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره) (٤).

□ ومن ذلك قول ابن تيمية: (وتفسير ابن جرير الطبري هو من أجلّ التفاسير

---

(١) انظر «لمحات في علوم القرآن» لمحمد الصباغ ٢٦٩.

(٢) تاريخ بغداد ١٦٤/٢.

(٣) مقدمة محمود شاكر لتفسير الطبري ١٢/١.

(٤) تاريخ بغداد ١٦٣/٢.

وأعظمها قدراً)[1] وقوله: (وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحُّها تفسير محمد ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين)[2].

□ ومن ذلك قول السيوطيِّ: (أجمع العلماء المعتبرون أنه لم يؤلف في التفسير مثله)][3].

وقد كتب الطبريُّ مقدمة طويلة تحدّث فيها عن أمور تتصل بأصول التفسير، وهي في حدّ ذاتها كتاب مستقل.

ومن الموضوعات التي بحثها في هذه المقدمة (وسائل المفسر التي يجب عليه أن يحصل عليها ويتقنها) وذلك في أبواب عديدة من المقدمة نحو (باب الوجوه التي من قِبَلِها يوصل إلى معرفة تأويل أي القرآن) ونحو (باب الأخبار في الحضّ على العلم بتفسير القرآن).

وكتب فيها فصلاً في الكلمات التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم، أي في الألفاظ القرآنية التي ليست بعربية الأصل على ما يرى آخرون.

وخصص فصلاً فسّر فيه حديث الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن.

وكتب فصلاً في معنى قوله ﷺ: أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة.

وكتب فصلاً يهاجم فيه أولئك الذين يفسرون القرآن بآرائهم.

وكتب فصلاً في الردّ على الذين ينكرون القول في تأويل القرآن.

وكتب فصلاً في المفسرين المحمودين والمذمومين، وفصلاً في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه، وفصلاً في تأويل أسماء الفاتحة، ثم فسر الاستعاذة والبسملة.

شرف علم التفسير وأهميته:

□ ومن أهم الأمور التي يجب أن ينبَّه إليها طالب العلم شرف تفسير كتاب

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٦١/١٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٨٥/١٣.

(٣) الاتقان ١٩٠/٢ وانظر كتابنا لمحات ٢٧١-٢٧٢ ط ٢.

الله وعظم مكانة هذا العلم، وخطر المغامرة في التصدي لتفسير كلام الله إن لم يكن هذا المتصدي أهلاً له. فإنَّ أحق علم تصرف له عناية المرء هو كتاب الله، وقد نبَّه الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله إلى هذا فقال في مقدمة تفسيره:

[إعلموا عباد الله، رحمكم الله، أنَّ أحقَّ ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضى، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وأنَّ أجمع ذلك لباغيه كتاب الله، الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسني الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد] (1).

وهذه الفكرة ــ وهي جلالة علم التفسير وعلو مكانته ــ إن امتلأت بها نفس طالب العلم دفعته إلى مضاعفة جهده، وحثَّتْهُ على مواصلة ليله بنهاره في البحث والدرس والتنقيب، وجعلت التعب لديه راحة، وحولت ألم الحرمان من النوم والطعام والمسرات إلى لذة. لأنَّ السعي إلى الغايات يكون بحسب أهميتها وقيمتها. ولله دَرُّ القائل:

تهونُ علينا في المعالي نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله المهر(2)

اللغة العربية:

□ ونبَّه أبو جعفر إلى أهمية إتقان اللغة العربية لنستطيع أن نفهم كلام الله تعالى ونتذوقه ونفسره فقال:

[وأول ما نبدأ به من القيل في ذلك: الإبانة عن الأسباب التي البداية بها أولى، وتقديمها قبل ما عداها أحرى. وذلك: البيان عما في آي القرآن من المعاني، التي من قبلها يدخل اللَّبْسُ على من لَمْ يُعان رياضة العلوم العربية، ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقية الطبيعية](3).

وتعلم العربية أمرٌ لا بُدَّ منه للوصول إلى التفسير السليم الصحيح، وقد أشار إلى

(1) تفسير الطبري ٦/١.
(2) ديوان أبي فراس ص ١٥٧.
(3) تفسير الطبري ٧/١.

ذلك أبو جعفر رحمه الله فذكر أنَّ السلف رضي الله عنهم كانوا يتعلمون معاني الآيات عندما يحفظونها ثم يعملون بها، ولا سبيل إلى تعلمها إلا بإتقان العربية نحواً وصرفاً وبلاغة وأدباً وتذوقاً. ولنا إلى هذه الفكرة عودة نذكر بالتفصيل مفرداتها. إن شاء الله تعالى.

وتلاوة القرآن عبادة.. ولكن هذه العبادة تزداد حسناً بالتدبر والفهم وقد نقل الطبريُّ كلام سعيد بن جبير الذي كان يقول: «من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابي»(١) ثم قال:

[قال أبو جعفر: وفي حثّ الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات ــ بقوله جلّ ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(٢) وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٣) وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله عباده وحثَّهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه ــ ما يدل على أنَّ عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيه](٤).

يريد أنَّ في حث الله عباده على الاعتبار والتذكر والتدبر دليلاً على وجوب معرفة تفسير ما يمكن تفسيره من القرآن، أما إذا كانت الآيات مما لا يمكن تفسيره لأنه لا يعلم تأويله إلا الله فهذه الآيات يجب علينا الإيمان بها. وبيَّن ــ رحمه الله ــ أنه مستحيلٌ أن يُطلّبَ إلى العباد تدبُرُهُ إلا بفهمه ومعرفة معناه.

ثم قال:

[إنَّ تأويل جميع القرآن على أوجه ثلاثة:

أحدها: لا سبيل إلى الوصول إليه، وهو الذي استأثر الله بعلمه، وحجب علمه عن جميع خلقه، وهو أوقات ما كان من آجال الأمور الحادثة التي أخبر الله

(١) تفسير الطبري ٨١/١.
(٢) سورة ص: الآية ٢٩.
(٣) سورة الزمر: الآية ٢٧-٢٨.
(٤) تفسير الطبري ٨٢/١.

في كتابه أنها كائنة، مثل وقت قيام الساعة، ووقت نزول عيسى بن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، والنفخ في الصور.. وما أشبه ذلك.

والوجه الثاني: ما خصَّ الله بعلم تأويله نبيَّه ﷺ دون سائر أمته، وهو ما فيه ممَّا بعباده إلى علم تأويله الحاجةُ، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلاَّ ببيان الرسول ﷺ لهم تأويلَهُ.

والثالث منها: ما كان علمه عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه، لا يوصل إلى علم ذلك إلاّ من قِبَلِهِمْ][1].

وأشار بعد ذلك[2] إلى أنَّ أحق المفسرين بإصابة الحق في تفسير القرآن:

- من كان واقفاً على تأويل رسول الله ﷺ سواء كان هذا التأويل قد نقل عنه نقلاً مستفيضاً أم كان نُقِلَ عنه من قبل العدول الثقات الأثبات.
- وكان عالماً بلغة العرب، عارفاً الشواهد من أشعارهم السائرة، ولغاتهم المستفيضة المعروفة.
- وكان تفسيره غير خارج عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة.

* * *

هذه رؤوس أقلام من أصول التفسير تعرّض لها إمام المفسرين أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره، وليست هي كل آرائه في أصول التفسير، بل له آراء صائبة ونظرات عميقة في هذا العلم بثها في مواضع من تفسيره، منها رأيه في الموقف الذي يجب أن نقفه من تعيين الأمور التي أغفلها الله في كتابه؛ كتعيين بعض البقرة الذي أمر بنو إسرائيل بضرب القتيل به فقام حياً.

وكتعيين نوع المأكول الذي على المائدة التي أنزلها الله على عيسى.

وكتعيين اسم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى.

وما إلى ذلك فله في هذه القضية رأي سديد وموقف رشيد.

---

(١) تفسير الطبري ١/٩٢-٩٣.

(٢) تفسير الطبري ١/٩٣.

هذا وإن استقصاء ما ذكره هذا الإمام الجليل من أصول التفسير موضوع رسالة علمية ضخمة. وهو ما لا نستطيع تحقيقه في هذه البحوث، وفيما ذكرناه عن دور الطبري في أصول التفسير كفاية.

القرطبي وأصول التفسير

قلنا إنَّ من مصادر علم أصول التفسير ما كتبه أئمة التفسير في مقدمات كتبهم؛ ومن هذه المقدمات التي نجد فيها بحوثاً تتصل بأصول التفسير مقدمة القرطبي لتفسيره.

والقرطبي هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر العالم العلامة، المصنف. كان من أهل قرطبة، ثم ارتحل منها إلى مصر واستقرَّ بها إلى أن مات في شوّال سنة إحدى وسبعين وستمائة للهجرة رحمه الله تعالى.

وتفسيره هو «الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان» وهو من أجلّ كتب التفسير، وله عناية بالغة بالأحكام. وكتب أحكام القرآن كتب كثيرة معروفة.

وللقرطبي كتب أخرى غير التفسير، وبعضها مطبوع.

ويذكره مترجموه بالصلاح والورع والزهد والاستفادة من وقته بالعبادة والتصنيف. وقد طبعت دار الكتب المصرية تفسير القرطبي وصدر في عشرين جزءاً.

ولننظر في الموضوعات المتصلة بأصول التفسير التي أشار إليها في مقدمته.

التدبر:

أشار إلى أنَّ تدبُّرَ القرآن أمرٌ مطلوب فعله بالنسبة للقادر عليه، والتدبر هو الذي يلجىء القارىء إلى التفسير القائم على أصول معينة.

قال [(١)]: [فالواجب على مَنْ خصَّهُ الله بحفظ كتابه أن يتلوه حقَّ تلاوته،

---

(١) تفسير القرطبي ١/٢.

ويتدبّر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبيّن غرائبه. قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾[(١)] وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُون القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[(٢)]... ثم جَعَل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان منه مجملاً، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[(٣)] ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات ﴾[(٤)]].

الأمانة العلمية وتخريج الأحاديث:

ومن الأمور المهمة التي ينبغي أن يعتمدها مصنفو التفسير الامانةُ العلميةُ وَعَزْوُ الأقوال إلى قائليها. وهذا ما أشار إليه القرطبي رحمه الله بقوله:

[وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنِّفيها، فإنه يقال: (من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله) وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب التفسير والفقه مبهماً، لا يَعْرِف مَنْ أخرجه إلاَّ من اطلّع على كتب الحديث، فيبقى مَنْ لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم.

ومعرفةُ ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرَّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام][(٥)].

أقول: وهذان أمران مهمّان يجب الانتباه إليهما.

أما أولها فهو الأمانة العلمية التي توجب أن يضاف كل قول إلى قائله، وهذا خلق من أخلاق العلماء الفضلاء. ولكننا ــ مع الأسف ــ نسمع في أيامنا ونرى من السرقات العلمية ما يشيب له الغلام.

---

(١) سورة ص: الآية ٢٩.
(٢) سورة محمد: الآية ٢٤.
(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٤) سورة المجادلة: الآية ١١.
(٥) تفسير القرطبي ١/٣.

فهذا دعيٌّ من أدعياء العلم يسطو على كتاب لمؤلف قديم أو معاصر فيسلخه برمته، أو يحوّر فيه تحويراً طفيفاً، ثم ينسبه إلى نفسه بكل وقاحة وعدم مبالاة، يدفعه إلى ذلك الرغبة في الكسب المادي الرخيص والسمعة العلمية الزائفة ويعلل هذا الخائن السارق المغامر لنفسه هذا الصنيع بأنه رابح على أي حال، لأنه لو انكشف أمره ــ وهذا أمر مستبعد لديه ــ فإن عدد الذين يقفون على سرقته عدد قليل، ويبقى الأكثرون يحسبون أنه العالم المؤلف صاحب الكتاب. وهذا خلق ذميم ينبغي أن يترفع عنه طلبة العلم.

وأما ثانيها فهو تخريج الأحاديث وذكر المرجع الذي ورد فيه الحديث. ولا بدَّ من التنبيه إلى أهمية تخريج الأحاديث في تفسير القرآن، ذلك لأنَّ إيراد الحديث دون تحديد المرجع فيه تضليل وتوريط. فليس كل حديث صحيحاً، فإذا كان الحديث ضعيفاً أو موضوعاً ونسبه إنسان إلى رسول الله دون تنبيه إلى ضعفه أو وضعه كان أحد المروّجين للحديث الضعيف أو المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد روى مسلم في مقدمة صحيحه، والترمذي وصححه، وابن ماجه عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ أنه قال: «من حدَّث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[1] وأخرجه مسلم أيضاً في المقدمة وابن ماجه عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ[2] وأخرجه ابن ماجه عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم[3].

وفي موضوع تخريج الحديث أمران لا بد من ذكرهما:

الأول: لا بُدَّ لمن يتصدّى للتفسير عند التخريج من أن يرجع بنفسه إلى الكتاب الذي ورد فيه الحديث، ولا يكتفي بنقل الناقلين، لينأى بنفسه وكتابه عن السهو والتصحيف والوهم والاختصار المخل الذي يقع فيه بعض أهل العلم. فقد يورد أبو داود أو الترمذي حديثاً ليردّه ويبين وهنه وضعفه فيعمد بعضهم إلى

---

(١) صحيح مسلم ١/٧ والترمذي ٣/٣٧٣ وابن ماجه ١/١٥.
(٢) صحيح مسلم ١/٧ وابن ماجه ١/١٥.
(٣) ابن ماجه ١/١٤.

إيراد الحديث معزواً إلى أبي داود أو الترمذي دون أن يبين موقفه منه ودون أن ينقل كلامه كاملاً.

فنسبة الحديث إليه عمل فيه تقصير وافتراء وتدليس.

وقد وقفت على شيء من ذلك في مطالعاتي، يأتي باحث فيورد حديثاً منسوباً للترمذي، وعندما أرجع إلى الترمذي أجد الحديث ولكن الترمذي يتبعه ببيان ضعفه وأنه لا يصح بوجه من الوجوه.. أليس في هذا تحريف وإيهام؟

وعندما يرجع المفسر إلى الكتاب فعليه أن يذكر الجزء والصفحة والطبعة إن كان للكتاب طبعات.

وأما الأمر الثاني: فهو أنَّ ذكر المرجع والرد إلى الجزء والصفحة لا يكفي في التخريج بل لا بدَّ من ذكر درجة الحديث. وذلك بالرجوع إلى ما قاله أئمة هذا العلم الشريف. إنَّ ذكر الاسناد اليوم لم يعد يكفي كما كا في الماضي لدى المختصين.

إنَّ على طالب العلم الذي يريد أن يتصدى للتفسير أن يستكمل هذه الأداة. والتهاون في هذا هو الذي جعلنا نرى في بعض كتب التفسير أحاديث واهية وموضوعة مكذوبة يفسر بها كتاب الله، وبعضها ظاهر النكارة باطل المضمون.

الاسرائيليات:

وأشار القرطبي أيضاً إلى أمر مهم ينبغي للمفسر أن يلتزمه في تفسيره وهو إضرابه عن قصص المفسرين وعن رواية الاسرائيليات. وهذا من أهم الموضوعات التي تتصل بأصول التفسير والتي سنخصها بشيء من الفصيل إن شاء الله.

قال القرطبي:

[وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلاّ ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين] (١).

---

(١) تفسير القرطبي ٣/١.

الايمان والعمل الصالح مفتاح التفسير

من الأمور المهمة التي تتصل بأصول التفسير، والتي لا بُدَّ من أن نخصها بالذكر والتفصيل: أن هذا الكتاب الكريم لا يفتح خزائن كنوزه وجواهره ودرره إلاّ لمن آمن بمنزله، وعمل به كله، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه، وأخلص لله النية في فهمه وطلبه العلم الذي يبلغه تفسيره وتدبره.

وهذا معنى في غاية الأهمية بالنسبة إلى من يريد التصدي للتفسير، وقد ذكر القرآن الكريم أنَّه هدى وشفاء للمؤمنين، وأنه عمىً على الكافرين.

قال تعالى: ﴿ وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ. لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديْهِ ولا من خَلْفِهِ. تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ. ما يُقالُ لكَ إلاَّ ما قَدْ قِيلَ للرسُلِ مِنْ قَبْلِكَ. إنَّ ربَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وذُو عقاب أليمٍ. ولو جعلْناهُ قُرْآناً أعجمياً لَقَالُوا: لَوْلا فُصِّلَتْ آياته. أأعجميٌّ وعربيٌّ. قل: هو للذين آمنوا هُدىً وَشِفاءٌ. والذين لا يؤمنونَ في آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عمًى. أولَـئك يُنَادَوْن من مكان بعيد ﴾[1].

وما أجمل كلام الأستاذ سيِّد في تفسير هذه الآيات، فهو يقول:

[.. إنَّ هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء. فقلوب المؤمنين هي التي تدرك طبيعته وحقيقتـه، فتهتدي به وتشتفي. فأما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة، لا تخالطها بشاشة هذا الكتاب، فهو وقرٌ في آذانهم، وعمى في قلوبهم، وهم لا يَتَبَيَّنون شيئاً لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه ﴿ قُلْ هُو للذين آمنوا هُدًى وشفاء. والذين لا يـؤمنون في آذانِهم وقرٌ وهوَ عليهم عمىً أولَـئك يُنَادَوْنَ مِنْ مكان بعيدٍ ﴾ ويجد الانسان مصداق هذا القول في كل زمان وفي كل بيئة.

فناس يفعل هذا القرآن في نفوسهم فينشئها إنشاء، ويحْييها إحياءً، ويصنع بها ومنها العظائم في ذاتها وفيا حولها.

وناس يثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم، ولا يزيدها إلا صمماً

---

(١) سورة فصلت: الآية ٤١-٤٤.

وعمًى، وما تغير القرآن، ولكن تغيرت القلوب وصدق الله العظيم] [1].

وفي سورة البقرة ــ أول سورة في المصحف بعد الفاتحة وأطول سورة في القرآن ــ نجد قوله تعالى: ﴿ألم. ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ. هُدًى للمتقين﴾ قال الأستاذ سيد قطب:

[الهدى حقيقته [حقيقة هذا الكتاب] والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته. ولكن لمن؟ لمن يكونُ ذلك الكتاب هدىً ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً؟... للمتقين.

فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب، هي التي تفتح مغاليق القلب له، فيدخل ويؤدي دوره هناك. هي التي تهيء لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلق وأن يستجيب.

لا بُدَّ لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم. بقلب خالص. ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة أو أن تستهويه ضلالة. وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقياً خائفاً حساساً مهيئاً للتلقي] [2].

وفي سورة الإسراء حديث عن القرآن في عدد من آياتها.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إنَّ هذا القُرآنَ يَهدِي لِلَّتِي هِيَ أقومُ. وَيُبَشِّرُ المؤمنينَ الَّذينَ يَعْمَلونَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ أجْراً كَبيراً وأنَّ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِ أعْتَدْنَا لَهُمْ عَذاباً أليماً﴾ [3].

فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر الذين يؤمنون ويعملون الصالحات بالأجر الكبير أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فقد أعدّ الله لهم عذاباً أليماً، وذلك لكفرهم وإعراضهم عن منهج الحق.

ويقول تعالى: ﴿وَلَقدْ صَرَّفْنا في هَذَا القُرْآنِ لِيذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إلا

(١) في ظلال القرآن ١٣٩/٢٤.
(٢) في ظلال القرآن ٣٨/١-٣٩.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٩-١٠.

نُفُوراً﴾[1] في الآية السابقة كان القرآن هدى وصلاحاً يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين العاملين بمقتضاه بأنَّ لهم الأجر الكبير في الجنة. وهنا نرى في هذه الآية الذين أغلقوا قلوبهم وكفروا نراهم في نفور ولا يزيدهم هذا القرآن إلا نفوراً عن الحق.

ثم يقول تعالى في السورة نفسها وبعد ثلاث آيات:

﴿وإذَا قرأتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وبَيْنَ الذين لا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً. وَجعلنا عَلى قُلُوبِهِم أكِنَّةً أن يَفقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً. وإذَا ذَكَرتَ رَبَّكَ في القُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا على أدبارِهِمْ نُفُوراً﴾[2].

نعم لقد جعل الله بين هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة وبين محمد ﷺ وهو يقرأ القرآن حجاباً خفياً مستوراً، وجعل على قلوبهم أكنة ـ أي أغطية ـ فلا تفقه القرآن، وجعل في آذانهم ثقلاً فلا تسمع الحق ولا تعيه.

إنهم لا ينتفعون بالقرآن، ولا يهتدون به، بل يولون على أدبارهم نفوراً.

ويقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمةٌ لِلْمُؤمِنينَ وَلا يَزِيدُ الظالِمينَ إلا خساراً﴾[3].

أجل [في القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الايمان فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من رَوْح وطمأنينة وأمان][4] أما الظالمون فلا يزيدهم هذا القرآن إلا خساراً.

ويقول تعالى في سورة يونس:

﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم موعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ وهُدىً وَرَحْمةٌ لِلمؤمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلكَ فَلْيَفرَحُوا هُوَ خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[5].

---

(1) سورة الإسراء: الآية ٤١.
(2) سورة الاسراء: الآية ٤٥-٤٦.
(3) سورة الاسراء: الآية ٨٢.
(4) في ظلال القرآن ٦٣/١٥.
(5) سورة يونس: الآية ٥٧-٥٨.

إنَّ هذه الحقيقة لا بُدَّ من وضوحها لمن يريد أن يتذوق حلاوة القرآن، ويغوص في بحار أسراره، ويلتقط كريم درره. إنه عندئذ يستطيع أن يفسر القرآن أجود تفسير، وهذا أصل مهم من أصول التفسير.

تلاوة القرآن وحفظه:

وكذلك من الأمور المهمة أن يكون اتصال المفسر بالكتاب الكريم اتصالاً وثيقاً، فهو يقرؤه آناء الليل وأطراف النهار، في الصلاة وغير الصلاة.

فعلى طلبة العلم المتطلعين إلى العمل في تفسير القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالجد في العمل بمقتضى هذا الكتاب وأن يكثروا من قراءته وتلاوته، فهذا الكتاب لا تنتهي عجائبه ولا تبلى جدته. ومن الأمور المجرَّبة أنَّ المرء يكون قد تلا الآية أكثر من مائة مرة، ويتلوها من جديد فيتبيّن له معنى ما كان قد وقف عليه.

نعم إنَّ هذا الكتاب العزيز لا يفتح خزائن كنوزه وجواهره ودرره إلا لمن آمن بمنزلة الله رب العالمين وآمن باليوم الآخر والرسل والملائكة، وعمل بمقتضى هذا الكتاب، وحرص على أن تكون حياته ترجمة حية للقرآن. وكذلك فإنَّ الاتصال الدائم بالقرآن تلاوة ودراسة وحفظاً وترتيلاً من الأمور التي لا بد للمفسر من أن يتصف بها. وحفظ العالم للقرآن والاتصال الدائم به يعينه في تفسيره القرآن بالقرآن ولا تسدُّ المعاجم الموجودة مسدَّ الحفظ أبداً. ومن هنا كان حفظ القرآن عن ظهر قلب كسباً لطالب العلم. وهذا الذي كان يفعله المعلمون، فلا يقبلون الطالب في حلقات العلم إلا بعد أن يمتحن في حفظ القرآن امتحاناً شديداً.

وتلاوة القرآن بترتيل وتدبر بصورة دائمة توقف المفسر على كنوز لا حصر لها. فقد ينقدح في نفس القارىء مرة من المعاني في تفسير آية ما لم يكن خطر على باله من قبل وربما يكون المعنى الذي وفق إليه لم ينتبه له أحد من قبل.

ويقرب من هذا ما جاء في الفصل الذي كتبه القرطبي المفسر بعنوان:

[باب ما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه]

قال رحمه الله:

[فأول ذلك أن يخلص في طلبه لله جلّ وعزّ.. وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن في ليله ونهاره، في الصلاة أو في غير الصلاة لئلا ينساه. روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنّما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة: إنْ عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت. وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه»(١).

صفات مهمة:

وينبغي له أن يكون لله حامداً، ولنعمه شاكراً، وله ذاكراً، وعليه متوكلاً، وبه مستعيناً، وإليه راغباً، وبه معتصماً وللموت ذاكراً وله مستعداً.

وينبغي له أن يكون خائفاً من ذنبه، راجياً عفو ربه، ويكون الخوف في صحته أغلب عليه، إذ لا يعلم بما يختم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه لحسن الظنّ بالله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا يموتنَّ أحدُكم إلاّ وهو يحسن بالله الظنَّ»(٢) أي أنه يرحمه ويغفر له.

* * *

وينبغي له أن يكون عالماً بأهل زمانه، متحفظاً من سلطانه، ساعياً في خلاص نفسه، ونجاة مهجته، مقدّماً بين يديه ما يقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهداً لنفسه في ذلك ما استطاع.

* * *

وينبغي له أن يكون أهم أموره عنده الورع في دينه، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه](٣).

* * *

ونقل القرطبي عن عبد الله بن عمرو قوله:

---

(١) صحيح مسلم ١٩١/٢ ط استانبول.

(٢) وهو حديث صحيح أخرجه مسلم ١٦٥/٨ وأحمد ٢٩٣/٣ و٣٢٥ و٣٣٠ و٣٤٥ و٣٩٠ وأبو داود برقم ٣١١٣ وابن ماجه برقم ٤١٦٧ عن جابر.

(٣) تفسير القرطبي ٢٠/١.

[لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن؛ لأنَّ في جوفه كلام الله تعالى].

وقال القرطبي:

[وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طرق الشبهات، ويُقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه ويأخذ نفسه بالحلم والوقار.

وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويتجنب التكبر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب.

وينبغي له أن يكون ممّن يؤمن شرّه، ويُرجى خيره، ويُسْلَم من ضرّه، وألا يسمع ممّن نمَّ عنده، ويصاحب مَنْ يعاونه على الخير، ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق ويزينه ولا يشينه] [1].

الإيمان:

إن حرارة الايمان ووهجه ونوره.. لتعطي المرء طاقة غير محدودة في الفهم والتدبر والوعي والتفسير لكلام الله ذلك لأن الذي يؤمن من أعماق قلبه بأنَّ هذا الكلام هو كلام الله القوي الجبار الخالق البارىء المصور يفهم آياته على نحو يختلف كل الاختلاف عن فهم الشاك أو الملحد والعياذ بالله تعالى.

إن ذلك الإيمان الصادق ليرفع المرء إلى مستوى القرآن اللائق به، ويفتح فيه كل منافذ الرؤية المبصرة والفهم السديد.

التحلي بأخلاق القرآن:

وكذلك فإنَّ التحلي بأخلاق القرآن من الرفق والأدب والتواضع والبعد عن التكبر والعجب ومصاحبةَ الأخيار، ومجالسة الأ برار، والبعدَ عن الشبهات. وبعبارة

(١) تفسير القرطبي ٢١/١.

موجزة: الالتزام بما شرع الله في هذا الكتاب الكريم. إن ذلك كله ليضفي على النفس الطمأنينة ويهيء لها الجو الروحي اللازم لفهم كتاب الله وتفسيره.

لا يستطيع المرء بفهم ألفاظ القرآن وإدراك معاني جمله فقط أن يصل إلى إدراك التفاعل النفسي الذي كان ينطوي عليه رجال السلف الصالح عندما تعاملوا مع هذا الكتاب... هناك أشواق وتذوقات، وإشراقات وومضات، ونفحات وفتوحات لا يتوصل إليها المرء بمعرفة الألفاظ والمعاني.. بل لا بد له من أن يغمس المرء نفسه في نور تلك التذوقات والومضات. ولن يكون ذلك إلا بالإيمان العميق النامي والعمل الصالح والخلق الحسن.

تقوى الله والعمل الصالح:

ومن هنا كان من أهم ما تطلبه أصول التفسير من المفسر تقوى الله وإنماء الإيمان والعمل الصالح اقتداء برسول الله الذي كان خلقه القرآن ــ كما وصفته بذلك أم المؤمنين عائشة ــ وبالسلف الصالح الذين ــ كما يقول الأستاذ سيد قطب ــ (١) [لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع.

شعور الصحابة نحو القرآن:

لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأنِ الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه كما يتلقى الجندي في الميدان (الأمر اليومي) ليعمل به فور تلقيه. ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنه كان يحسُّ أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه. فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود (٢).

---

(١) معالم في الطريق ١٧-١٩.

(٢) ذكره ابن كثير في مقدمة التفسير ٣/١ وقد سبق في ص ٩ وانظر ص ٦٨ وص ٨٢.

هـذا الشعـور.. شعور التلقي للتنفيذ.. كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من المعرفة لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنما تتحول آثاراً وأحداثاً تحول خط سير الحياة.

إن هـذا القـرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح. روح المعرفة المنشئة للعمل. إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ ــ وإن كان هذا كله من محتوياته ــ إنما جاء ليكون منهاج حياة. منهاجاً إلهياً خالصاً. وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً يتلو بعضه بعضاً].

الاخلاص:

قرّر القرطبي في مقدّمة تفسيره أن على طالب العلم أن يحصّل عدداً من العلوم حتى يقوى على فهم القرآن وأوضح أهمية هذه العلوم بالنسبة إليه، وذكر من جملة تلك العلوم العربية، والسنّة، وعلوم القرآن، والفقه... وما إلى ذلك.

ثم لفت الأنظار إلى أنَّ هذه العلوم لا تكفي إن لم يكن الإخلاص محققاً عنده ودافعاً له ومحركاً إياه فقال(١):

[ولا ينتفع بشيء ممّا ذكرنا حتّى يخلص النية فيه لله جلّ ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدم.

فقد يبتدىء الطالبُ للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ في اعتقاده فيتوب من ذلك، ويخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك ويحسن حاله.

قال الحسن: كنا نطلب العلم للدنيا، فجرّنا إلى الآخرة. وقاله سفيان الثوري].

(١) تفسير القرطبي ٢٢/١.

والاخلاص هذا أمر في غاية الأهمية لمن يريد أن يتصدى لتفسير كلام الله تبارك وتعالى.

وفوائد الإخلاص عامّة وخاصة. أما الخاصة فإنَّ الإخلاص يفتح مجالات للمفسِّر لا تحصى ولا تعد ولا يحاط بها، إذ يقذف في قلب المسلم نوراً وبصيرة، ويمنحه قدرة على الفهم والتأويل والتذوق والفكر السديد، ويكسبه الأجر الجزيل، لأن الأعمال بالنيات كما قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى».

وأما فوائد الإخلاص العامة فإنّ الاخلاص في العمل يهب له القبول عند الناس، ويجعلهم ينتفعون منه ويتأثرون به أعظم التأثر. وهذا أمر مشاهد ملموس، فالواعظ والمفسر والمؤلف عندما يقوم بعمله باخلاص وصدق يعظم التأثر به ويكثر المقبلون عليه.

يقول ابن حبان رحمه الله: [أول شعب العقل هو لزوم تقوى الله، وإصلاح السريرة، لأنَّ مَن صَلَح جَوَّانيُّه أصلح الله برَّانيَّه، ومن فَسَدَ جَوَّانيُّهُ، أفسد الله برَّانيَّه] (١).

وقال مالك بن دينار: اتخذ طاعة الله تجارة، تأتك الأرباح من غير بضاعة (٢).

وقال كعب: والذي فلق البحر لبني اسرائيل، إني لأجد في التوراة مكتوباً: يا ابن آدم، اتق ربَّك، وصلْ رحمك، وبَرَّ والديك، يُمَدَّ لك في عمرك، ويُيَسَّرْ لك يُسْرَك، ويَصْرِف عنك عُسْرَك (٣).

وقال محمد بن عبد الله بن زَنجيّ البغدادي:

وإذا أعلنت أمراً حسناً ... فليكن أحسنَ منه ما تُسِرّ
فمُسِرُّ الخير موسومٌ به ... ومُسِرُّ الشرِّ موسومٌ بشرّْ (٢)

(١، ٢) روضة العقلاء ١٤.

(٣) روضة العقلاء ١٥.

فعلى طالب العلم الذي يريدُ أن يتصدَّى لتفسير كتاب الله أن يتسلح بسلاح الاخلاص ويراجع نفسه فيصحح النية، ويصلح داخله، وينقي قلبه من كل الشوائب.

إنَّ الاخلاص لله في فهم القرآن يعصم المرء من الانحراف والضلال عندما يفسّر كلام الله عز وجلّ. لأنَّ ذاك الاخلاص يدفعه إلى تقرير ما فهم من القرآن وفق ما تدل عليه طرائق العربية وأساليبها وآياتُ القرآن الأخرى، والأحاديث النبوية الثابتة.

ولا يمكن أن يتصور من الانسان المخلص العالم أن يؤثر رضى زعيم من الزعماء، أو طائفة من الطوائف على ما دلّ عليه سياق الآيات وظاهر النصّ كما تقضي قواعد اللغة وأساليب التعبير فيها. وذلك كما نرى في تفسيرات بعض المنحرفين الذين أعماهم الهوى فانطلقوا يلوون عنق الآية لتتطابق مع رغبة زعيم، أو مع اتجاه طائفة، أو مع منهج مدرسة.. وقد يكون بعض هؤلاء المنحرفين على اقتناع تام ــ بينهم وبين أنفسهم ــ بأنَّ نصّ الآية لا يدل على المعنى الذي قرروا.

وكثيراً ما يعتمد أصحاب الأهواء على المغالطات اللفظية، والبراعة في مخادعة القارىء وما كان ذلك إلا نتيجةً لغياب الاخلاص من قلوبهم ودوافعهم.

ومجانبة الإخلاص في التفسير خسارة للمفسر لا تعدلها خسارة، وتعظم عندما يكثر عدد المتأثرين به. قال تعالى: ﴿ وإذا قِيلَ لَهُمْ مَّاذا أَنزَلَ رَبُّكُمْ. قَالُوا أَسَاطِيرُ الأ ولِين. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيامَةِ ومِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهم بِغَيْرِ عِلمٍ ألا سَاء مَا يَزِرُون ﴾ (١).

إن المؤمن يعتقد أن القرآن كلام الله رب العالمين، فإذا ابتغى المفسر في تفسيره رضى زعيم من الزعماء، أو طائفة من الطوائف، أو مدرسة من المدارس السائدة، ضلَّ مسعاه، وخاب مقصده، ووقع في سخط الله، ومَنْ كان كذلك كان من الخاسرين. وهذه صفة كثير من اليهود، فقد قال فيهم ربنا عزَّ وجلّ:

﴿ مِّنَ الذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَّواضِعِهِ. وَيَقُولُونَ: سَمِعْنَا وعَصَيْنا.

---

(١) سورة النحل: الآية ٢٤-٢٥.

واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وراعِنا. لَيّاً بألسِنَتِهِمْ وطَعْناً في الدِينِ. ولَو أَنَّهُمْ قالُوا: سَمِعْنا وأطَعنَا، واسمَعْ وانْظرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وأقومَ. ولكِنْ لَعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فلا يُؤمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾[١].

والشاهد في هذه الآية قوله سبحانه عن هؤلاء اليهود: يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجعلنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيةً يُحرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَّواضِعِه وَنَسُوا حَظَّاً مِمَّا ذُكِّروا بِهِ، ولا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ. فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إنَّ الله يُحِبُّ المحسِنِين ﴾[٢].

أرأيت يا أخي كيف حمل أولئك اليهود المغضوب عليهم بعدُهم عن الإخلاص لله في فهم ما أنزلَ على التحريف والخيانة فباؤوا بغضب من الله ولحقتهم اللعنة وأصابتهم قسوة القلب والعياذ بالله تعالى.

وقال سبحانه في اليهود أيضاً بعد قصة البقرة:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوة. وَإنّ مِنَ الحِجَارَةِ: لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهارُ. وَإنَّ مِنهَا لَمَا يشقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء. وإنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيةِ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عمَّا تعملُونَ. أفَتَطْمَعُونَ أنْ يؤمِنُوا لكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيق مِنْهُمْ يَسْمَعُونُ كلامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمونَ. وَإذا لَقُوا الذينَ آمنوا قالوا آمنا وَإذا خَلا بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بما فَتَحَ الله عَلَيكُم لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أفَلا تعقِلُونَ. أوَلاَ يَعْلمونَ أنَّ الله يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ ومَا يُعلِنونَ ﴾[٣].

لقد جرّت عليهم أهواؤهم وبعدُهم عن الاخلاص قسوة القلب وتحريف كلام الله بعدما عقلوه والنفاق الغبي الذي يحملهم على أن يقول بعضهم لبعض ﴿ أتُحدِثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ الله عَليكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾.

* * *

(١) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٧٤-٧٧.

العلوم التي ينبغي أن يتقنها المفسر:

أشار القرطبي إلى عدد من العلوم التي ينبغي أن يتقنها المشتغل بالقرآن، وأن يوليها اهتمامه كله.

علوم القرآن:

ومن هذه العلوم علوم القرآن كالمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه.

قال: [وينبغي له أن يعرف المكيَّ من المدنيِّ، ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام.

وما افترض الله في أول الاسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره.

فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيُّ المدنيّ، لأن المنسوخ هو المتقدم في النزول قبل الناسخ له] (١).

وموضوع ضرورة إتقان المفسر لعلوم القرآن موضوع سنعرض له بالتفصيل لأنَّ له أهمية بالغة في تفسير القرآن الكريم.

ونقل القرطبي عن الفضيل بن عياض رحمه الله قوله:

[لن تتعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه] (٢).

اللغة:

ومن هذه العلوم التي لا بُدَّ من أن يتقنها مبتغي التفسير علوم العربية من الغريب والاعراب ونحو ذلك.

---

(١) تفسير القرطبي ٢١/١.

(٢) تفسير القرطبي ٢٢/١.

قال: [ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك ممّا يسهل عليه معرفة ما يقرأ ويزيل عنه الشك فيما يتلو][1].

السنن والفقه:

ومن هذه العلوم معرفة السنن المأثورة والفقه.

قال: [ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فبها يصل الطالبُ إلى مراد الله عز وجلّ في كتابه وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً. وقد قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ولَكِن كُونُوا ربَّانيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ﴾[2] قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً][3].

أهمية التفسير:

وأشار القرطبي إلى أهمية التفسير فعقد فصلاً موجزاً في ذلك[4].

وأهمية التفسير أمرٌ من الأمور التي ينبغي أن يقدرها المفسر حق قدرها[5].

ونقل عن سيدنا عليّ رضي الله عنه أنه وصف سيدنا جابر بن عبد الله بالعلم. فقال له رجل: جعلت فداءك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت!؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى... وذكر آية من سورة القصص.

وهكذا فإن معرفة معاني كتاب الله ترشح صاحبها ليحوز لقب العالم.

ونقل عن عدد من رجالات السلف والعلماء الذين جاؤوا من بعد أنهم كانوا يرحلون إلى بلاد بعيدة من أجل الوقوف على معنى آية وتعلم تفسيرها.

وأورد كلمة إياس بن معاوية في فضل التفسير. قال إياس:

---

(١) تفسير القرطبي ١/٢١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

(٣) تفسير القرطبي ١/٢١-٢٢.

(٤) انظر ١/٢٦ من تفسير القرطبي.

(٥) انظر ص ١٩ فقد ذكرنا هناك أهمية التفسير.

(مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قومٍ جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعةٌ ولا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب)[1].

وهذا التشبيه الذي قرّره إياس في غاية الروعة والإحكام، فالقرآن كتابٌ كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بالحقِ مُصَدِقاً لما بَينَ يَدَيهِ﴾[2] وهذا الكتاب الكريم نزل إلى الناس من الله رب العالمين ملك الملوك بديع السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وأنزَلنَا إليكَ الذِّكرَ لِتُبيّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إلَيهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾[3].

فهذا الكتاب كتاب الله نُزّل إلى هؤلاء الناس.

وأي إنسان يأتيه كتابٌ ما من إنسان ما فضلاً عن أن يكون المرسل وزيراً أو ملكاً لا بُدَّ أن يقرأه إن كان يستطيع القراءة فإن لم يستطع كأن كان أمياً، أو كان الكتاب بغير لغته، أو لم يكن عنده نور يقرأ بضوئه ذاك الكتاب، التمس الوسيلة التي تبلغه معرفة مضمونه ولم يأل في ذلك جهداً. ويعظم اهتمامه كلما كان المرسل كبيراً أو ذا شأن.

فاعلموا ــ يا عباد الله ــ أن هذا الكتاب الكريم منزل من عند الله إليكم، وفيه ذكركم. قال تعالى: ﴿لَقدْ أنْزَلنا إليكُمْ كتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أفلا تَعقِلُون﴾[4].

وربكم يخاطبكم بقوله: (يا عبادي) وبقوله: (يا أيها الناس) وبقوله: (يا أيها الذين آمنوا) ويناديكم ويدعوكم لما يحييكم.. فتأملوا هذا الكتاب وافهموه وعوا حقائقه وتدبروا آياته، وأحلوا حلاله وحرِّموا حرامه تفوزوا بسعادة الدارين. ولا يليق بعاقل أن يأتيه كتاب مهم ثم يضعه جانباً وينصرف عنه ولا يدري ما فيه،

---

(١) ٢٦/١ من تفسير القرطبي.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣.
(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٠.

فقد يكون فيه خير يفوته إن لم يفهمه، وقد يكون له فيه تهديد له وإنذار له بشر لينأى عنه ويجانبه، وفهمه للكتاب هو الخطوة الأولى لنجاته من ذاك الشر. فهو في إعراضه عن فهمه في الحالين خاسر أعظم الخسارة.

والأمر جليل عندما يكون الكتاب من عند الله رب العالمين.

وإذا كان هذا بالنسبة إلى الناس كافة مهماً فإنه أهم في حق طالب العلم الذي يريد أن يتصدى للتفسير ولبيان معاني كلام الله للناس.

إن العلماء ورثة الأنبياء، فالأنبياء قد ورّثوا العلم، وناب عنهم العلماء الصادقون في مهمة التبليغ والأداء.

وهم مطالبون بأن يستكملوا العدّة، وأن لا يتصدوا الى تلك الوظيفة العظمى إلا بعد اطمئنانهم أنهم قد خطوا الخطوة المتقدمة في هذا السبيل.

وعندما يبذلون جهدهم في الاستعداد لهذا العمل الجليل فهم مأجورون مرتين إن أصابوا، ومرة واحدة إن أخطؤوا.

التدبر والعلماء:

إنَّ من أهم الأمور التي تتصل بأصول التفسير تيسير الأسباب الموصلة إلى تدبر القرآن، وتبيين مهمة العلماء في الكشف عن معاني آيات القرآن وتعليمها للناس.

إنَّ هذا القرآن العظيم كلام الله تبارك وتعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] أنزله الله ليهدي الناس إلى الحق، وليبصرهم بطريق الرشاد، وليبثّ الحياة والسعادة والأمن في القلوب والأفراد والمجتمعات.

وهو نذير وبشير، ينذر كل من بلغه، ويبشر من آمن به وعمل بمقتضاه. فمن آمن به وعمل به اهتدى ونجا، ومن كفر به وأعرض عنه ضلَّ وغوى وكان من الهالكين.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٤٢.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إنِي رَسُولُ الله إليكُمْ جَمِيعاً. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السّمواتِ والأرْض. لا إلَهَ إلاَّ هُوَ. يُحْيي ويُمِيتُ. فآمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ النَّبيِّ الأمّيِّ الّذي يُؤْمِنُ بالله وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تهتَدُون ﴾[1].

وهذا النداء ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأمي ﴾ نداء مستمر إلى يوم القيامة، لأن رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات، وهو خاتم الأنبياء، وقد أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة. وأمر ﷺ أن يقول للناس بأن هذا القرآن أوحي إليه لينذر الناس كما قال تعالى: ﴿ قُلِ الله شَهيدٌ بَينِي وبَيْنَكُمْ وأوحِيَ إليَّ هَذا القرآنُ لأنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾[2].

والإنذار يجب أن يُفهم حتى يتحقق الغرض من توجيهه، وإلا فإنَّ الانسان الذي لم يفهم الإنذار ولم يحاول أن يستعين بأحد لفهمه لا ينتفع من اغتنام الفرصة، إنه لا بُدَّ من فهم الإنذار وتدبره واستيعابه.. إن القرآن ينذر كل من يكفر به، ينذره بالنار قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يُؤمِنُون ﴾[3].

إن فَهْمَ القرآن وتدبره هو الخطوة الأولى لوعي الإنذار، وفعل المأمور، واجتناب المحظور ومن هنا كان الأمر بالتدبر في عدد من آيات كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدبَّرُونَ القرآنَ. ولَوْ كانَ مِنْ عِندِ غيرِ الله لَوجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كثيراً ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ كتابٌ أنزَلناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيدَّبَّروا آياتِهِ وليتَذَكَّرَ أولوْا الألبابِ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ أفلا يَتدَبَّرون القرآنَ أمْ علَى قلوب أقفَالُها ﴾[6]

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.
(٢) سورة الانعام: الآية ١٩.
(٣) سورة هود: الآية ١٧.
(٤) سورة النساء: الآية ٨٢.
(٥) سورة ص: الآية ٢٩.
(٦) سورة محمد: الآية ٢٤.

ولقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على أن هذا القرآن من عند الله، وأنه نور وخير وسبب السعادة والأمن، والفلاح والنجاح، وعلى أن محمداً رسول الله، فهو مكتوب في التوراة والانجيل، ودينه الذي جاء به يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل للناس الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وينقذهم ويخلصهم من الأغلال والقيود التي كانت مفروضة عليهم، ويحررهم من مآسي الشرك والظلم والجهل والطغيان..

وهذا أمر ثبت بالنقل، وقامت الأدلة الواقعية ناطقة به، وشهد العقل السليم بعدالة أحكامه.. وبهذا كان الذي أنزل على محمد ﷺ نوراً يهدي المؤمن إلى الحق ويجعله من المفلحين.

قال تعالى: ﴿ ورحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيء فَسَأكْتُبُهَا لِلّذينَ يَتَّقونَ ويُؤتُونَ الزكاةَ والذينَ هُمْ بآياتِنا يُؤمنُونَ. الذينَ يتّبِعُونَ الرَّسولَ النبيَّ الأميَّ الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّورَاةِ والإنجِيلِ يأمُرُهُمْ بالمعرُوفِ وينْهاهُمْ عَنِ المُنكَر، ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ويُحرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبَائثَ، ويَضَعُ عَنهُمْ إصْرَهُمْ والأغلالَ الَّتي كَانَتْ عَلَيهِمْ. فَالذِينَ آمنُوا بِهِ وَعزَّرُوهُ وَنصرُوهُ واتَّبَعُوا النُورَ الذِي أُنزِلَ مَعَهُ أولَـئكَ هُمُ المُفلِحونَ. قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إنِي رسُولُ الله إلَيْكُمْ جَميعاً الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرض لا إلهَ إلاَّ هُوَ يُحيي ويُمِيتُ. فَآمنوا بالله وَرَسُولِهِ النَّبيِّ الأمِّيِّ الَّذِي يُؤمِنُ بالله وكَلِماتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعلَّكُم تَهْتَدُون ﴾ (١).

هذه الآيات الكريمة تقرّر سعة رحمة الله وأنَّ هذه الرحمة سيكتبها للذين يتصفون بالتقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بآيات الله واتباع الرسول محمد ﷺ النبي الأمي. هذا الرسول الذي بشرت به التوراة والانجيل كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله وكما جاء في حديث عبد الله بن عمرو الذي أخرجه البخاريُّ وغيره. يقول عبد الله بن عمرو: «أجل والله. إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين. أنت عبدي ورسولي. سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦-١٥٨.

بالسيئة السيئة، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفتَحُ بها أعينٌ عُمْيٌ، وآذان صم، وقلوب غلف»[(١)].

ثم تابعت الآيات أوصاف هذا الرسول المتصلة بالرحمة والهداية والتخفيف فذكرت من أوصافه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث، ووضع الإصر عن الناس، ووضع الأغلال التي كانت عليهم وتحريرهم منها.

ثم حصرت الفلاح بالايمان بهذا الرسول وتوقيره ونصرته واتباع ما جاء به من عند الله ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ وهذا الأسلوب أسلوب قصر أي ما المفلحون إلا هؤلاء.

ثم قررت الآيات عموم رسالة محمد ﷺ ودعوة الناس جميعاً إلى اتباعه ليهتدوا. إنَّ هذه الدعوة تنادي الناس بجميع أقوامهم وأجناسهم وعلى كل مستوياتهم أن يؤمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه، ولن يكون هذا متحققاً ما لم يقم العلماء بتبيان آيات هذا الكتاب وشرحها باللغة والأسلوب الذي يفهمه كل قوم وبالمستوى الذي يناسبهم.

إذن فالعلماء هم المطالبون بأن يقوموا بهذه المهمة ذلك لأن العلماء ورثة الأنبياء وإنما ورثوا عنهم العلم، فلا بُدَّ من قيامهم بهذا الواجب حتى ينقذوا أنفسهم من المسؤولية يوم القيامة.. وحتى لا يكونوا ممن كتم العلم.

﴿إنَّ الَّذينَ يَكتُمُونَ ما أنزَلنا مِنَ البيِّناتِ والهُدَى مِنْ بَعدِ ما بيَّنّاهُ لِلنّاسِ في الكِتابِ أولَـئكَ يَلعَنُهُمُ الله ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنونَ إلاَّ الَّذِي تَابوا وأَصلَحوا وبيَّنُوا فأولئكَ أتُوبُ عَلَيهِمْ وأنَا التوّابُ الرَّحِيم﴾[(٢)].

﴿إنَّ الذينَ يكتُمونَ ما أنزَلَ الله مِنَ الكِتَابِ ويَشْترونَ بِهِ ثَمناً قليلاً أولئكَ ما ياكُلُونَ في بُطُونِهِمْ إلاَّ النّارَ ولا يُكَلِّمُهُمُ الله يومَ القيامَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) «فتح الباري» ٤/٣٤٢-٣٤٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٩-١٦٠.

أليمٌ أولَـئكَ الذينَ اشْتَرُوا الضَّلالَةَ بالهُدَى والعذَابَ بالمَغْفِرَةِ فما أصبَرَهُمْ عَلى النَّارِ﴾[1].

التحذير من التفسير بالرأي:

تعرَّض القرطبي إلى تفسير القرآن بالرأي، وقرَّر أن مَنْ فعل ذلك انطبق عليه الحديث: «من قال بالقرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[2] وأنَّ هذا انحراف عن طريق الحق، وقرَّر أن الرأي هنا هو الهوى. وقال[3]:

[وإنما النهي يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن وَفْق رأيه وهواه، ليحتجَّ على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

▫ وهذا النوع يكون تارة **مع العلم:** كالذي يحتجُّ ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يلبِّس على خصمه.

▫ وتارة يكون **مع الجهل:** وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه. فيكون قد فسَّر برأيه، أي رأيه حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه.

▫ وتارة يكون له غرض صحيح، فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل بما يعلم أنه ما أريد به؛ كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله تعالى: ﴿اذهَبْ إلى فِرْعَونَ إنَّهُ طَغَى﴾[4] ويشير إلى قلبه، ويومئ إلى أنه المراد بفرعون؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام، وترغيباً للمستمع. وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز. وقد

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٤-١٧٥.
(٢) وهو حديث ضعيف وانظر تخريجه في كتابي «لمحات في علوم القرآن» ٢٨٠ ط ٢.
(٣) انظر ٣٣/١ من تفسير القرطبي.
(٤) سورة طه: الآية ٢٤.

تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزلون القرآن على وَفْق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة، وما فيه من الاختصار والحذف، والاضمار، والتقديم والتأخير.

فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرّد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسّر القرآن بالرأي.

والنقل والسماع لا بُدّ له منه في ظاهر التفسير أوّلاً ليتَّقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط.

والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾[1] معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها.

فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أنَّ الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والاضمار. وأمثال هذا في القرآن كثير.

وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه. والله أعلم].

إن من أعظم الآفات والبلايا التي تعرّض لها المسلمون في تاريخهم القديم والحديث سيطرة الهوى على عدد من قادتهم في مجال الفكر والسياسة. فأداهم هذا البلاء إلى الافتراق والتشاحن، والتباغض والتقاتل، وأصبح بأسهم بينهم شديداً، ففشلوا وذهبت ريحهم، وضعفوا واستكانوا، وطمع فيهم أعداؤهم فتقاسموا بلادهم، وسيطروا على خيراتهم، وحجزوهم عن تحقيق مهمتهم في تحرير الدنيا من

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٩.

ظلمات الشرك والخرافة، ومن ظلم الاستبداد والطغيان. وأداهم هذا البلاء إلى انحراف بعضهم عن نهج الله وصراطه المستقيم، فقامت فرق وطوائف ابتعد كثير منها عن جادة الحق حتى أصبحت خارجة عن الاسلام، وما انتسابها إليه إلا زور من القول وافتراء على الحق والواقع. وكم نرى في كتب الفرق والملل والنحل، وفي دنيا الناس اليوم فرقاً وطوائف تنتسب إلى الاسلام والاسلام منها براء، لأنها تخالف أصوله وفروعه، وتبتعد عن منهجه وأخلاقه، ولا تقف عند حدوده.

عن أبي هريرة قال:

قال ﷺ: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[1].

وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: «.. وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملّة. كلهم في النار إلا ملة واحدة» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2].

والهوى يُعمي ويصم كما في حديث ضعيف أخرجه أبو داود وغيره «حُبُّك الشيء يعمي ويصم»[3]. وهذا ما نراه عند المتعصبين من اتباع المذاهب، فأنت ترى أحدهم عندما يقرأ القرآن أو يطالع كتب الحديث يبحث ويجدُّ في البحث ليرى ما يوافق مذهبه، وقد يتكلف في تأويل النص ليطابق ما يقرره مذهبه. ويتكلف أيضاً في تأويل النصوص التي تخالف مذهبه ليتخلص من دلالتها.

فليتق الله طلبة العلم، ولينقوا أنفسهم من شائبة الهوى. وليكن الحق رائدهم والوصول إلى الصواب مبتغاهم، وهم يقرؤون كتاب الله.

إنَّ كتاب الله هو الأصل الأول لدين الإسلام، فما تدل عليه تلك الآيات هو

---

(١) انظر تخريج هذا الحديث في كتاب «الباعث على الخلاص» للعراقي بتحقيقنا رقم الحديث ١٣.
(٢) انظر تخريج هذا الحديث في كتاب «الباعث على الخلاص» للعراقي بتحقيقنا رقم الحديث ١٤.
(٣) انظر تخريج هذا الحديث في كتاب «مختصر المقاصد» بتحقيقنا رقم ٣٥٦.

الذي ينبغي أن يلتزم ويعتمد، وأما آراء العلماء من أهل السنة والجماعة العدول فهي آراء رجال من البشر يخطئون ويصيبون.

بهذه الروح روح الرغبة في الوصول إلى الحق، روح تعظيم كلام الله تعالى، روح الوقوف عند حدود الله ينبغي أن يقبل المشتغل بالتفسير لا يعصف به هوى اعتقادي أو مذهبي أو طائفي[1].

وإنني أذكر أنني وقفت على كتاب يورد آيات من القرآن، ثم يذكر استدلال الفرق والطوائف من هذه الآيات ما يتفق ومذهبها. وهذا يدل على أن الأهواء إذا استحكمت جاءت بالغريب العجيب.

---

(١) للشيخ محمد عبده كلام جميل في أن الواجب علينا أن نستنطق القرآن في عقيدتنا وأحكامنا لا أن نحمل القرآن على ما حفظناه من المذهب (وانظر: لمحات في علوم القرآن ص ٣١٧).

أبو حيان وأصول التفسير

ومن مقدمات كتب التفسير التي جاء فيها فوائد وقواعد تتصل بأصول التفسير مقدمة أبي حيَّان لكتابه الجليل: البحر المحيط. ونحن موردون ههنا ما جاء فيها مع شيء من الشرح والتعليق مما يتصل بهذا الموضوع.

وأبو حيَّان هو أثير الدين محمد بن يوسف بن علي الأندلسي الغرناطي الجياني. ولد في الأندلس سنة أربع وخمسين وستمائة للهجرة، وتلقى العلوم العربية والاسلامية عن أكابر رجالها في الأندلس، وكان شاعراً له ديوان شعر كبير، وكان عالماً بالتفسير والقراءات والحديث واللغات، ثبتاً فيما ينقله، عارفاً بالعربية. أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره حتَّى صار لا يذكر في أقطار الأرض فيها غيره. كان ظاهرياً، ثم تحوَّل إلى مذهب الشافعي عندما نزل مصر. توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة.

كان سليم العقيدة، بعيداً عن قبول الخرافة التي تشيع عند المتصوفة الذين يحمّلون الألفاظ ما لا تحمل. قال رحمه الله:

الحذر من الصوفية:

[وربَّما ألممت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ](1).

الحذر من الشيعة:

وكان حذراً من ضلال الشيعة الباطنية الذين يفترون على الله عز وجل ويفترون على سيدنا عليٍّ رضي الله عنه متنبهاً إلى خطرهم قال:

[وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى وعلى عليّ كرّم الله وجهه وعلى ذريته ويسمونه علم التأويل. وقد وقفت على تفسير لبعض رؤوسهم، وهو تفسير عجيب،

---

(١) البحر المحيط ١/٥.

وإنما يؤخذ ذلك مسلَّماً في علم التفسير دون استدلال عليه.

وكذلك ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول، وأحاديث في الفضائل، وحكايات لا تناسب، وتواريخ إسرائيلية. ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير] [١].

فالإعراب أمر مهم عندما يتوقف المعنى عليه، ولكن ذكر علل النحو التي لا يقوى على فهمها إلا المختصون أمر لا ينبغي أن يكون في التفسير.

وذكر أحكام الفقه المتعلقة بالآية أمر ضروري لفهم الآية وتدبرها، ولكن التوسع في ذكر الدلائل الأصولية والمناقشات الفقهية أمر آخر خارج عن نطاق التفسير.

وكذلك تقرير أصول العقيدة أمر مهم بالنسبة للآيات التي تبحث في قضايا التوحيد وانكار الشرك. ولكن ذكر الأدلة الكلامية والمناقشات الفلسفية ليس موضعه كتب التفسير، وهو أمر خارج عن نطاق هذا العلم الشريف.

وهذه الأمور السابقة مقررة في كتب العلوم الخاصة بها، فمن أراد التوسع في معرفتها استطاع أن يرجع إلى هاتيك الكتب والمراجع المؤلفة فيها.

وهذا أمر في غاية العمق وسداد البصر.

ويذكرني كلام أبي حيان العميق بكلام قرأته للأستاذ الذواقة سيد قطب رحمه الله تعالى في كتابيه «التصوير الفني» و «في ظلال القرآن».

يقول في كتابه «التصوير الفني في القرآن»:

[ودخلتُ المعاهد العلمية، فقرأتُ تفسير القرآن في كتب التفسير، وسمعت تفسيره من الأساتذة، ولكنني لم أجد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل الذي كنت أجده في الطفولة والصبا وأسفاه!! لقد طمست كلُّ معالم الجمال فيه، وخلا من اللذة والتشويق.

---

(١) البحر المحيط ١/٥.

تُرى هما قرآنان؟ قرآن الطفولة العذب الميسر المشوِّق، وقرآن الشباب العسر المعقد الممزق؟ أم إنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير] [1].

وقال في مقدمة تفسيره القيم «في ظلال القرآن» في الطبعة الأولى:

[كل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية، تحجب القرآن عن روحي، وتحجب روحي عن القرآن] [2].

أجل إن الإغراق في هذا يحجب القرآن عن روح الانسان المسلم الذي يريد أن يتدبر القرآن.

* * *

العلوم التي يحتاج إليها علم التفسير:

ومما يتصل بأصول التفسير ذكر العلوم التي يحتاج إليها علم التفسير وهذا ما قرره الإمام أبو حيان النحوي في مقدمة تفسيره فقال:

[.. فلنذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم على الاختصار، وننبه على أحسن الموضوعات التي في تلك العلوم المحتاج إليها فنقول:

النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه:

الوجه الأول: علم اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً.

الحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم.

وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللغة [وذكر أسماء عدد من كتب اللغة، ثم ذكر أنه في صغره حفظ بعض كتب اللغة ودواوين الشعراء: امرىء القيس، والنابغة، وعلقمة، وزهير، وطرفة، وعنترة، والأفوه الأودي، وأنه حفظ ديوان الحماسة وغيرها].

الوجه الثاني: معرفة الأحكام التي للكلم العربية. من جهة إفرادها، ومن جهة تركيبها. ويؤخذ ذلك من علم النحو [وذكر أسماء عدد من كتب النحو

(١) التصوير الفني ص ٨.

(٢) في ظلال القرآن: مقدمة الطبعة الأولى، وقد حذفها المؤلف من الطبعة الثانية.

يذكر فيه أقاويل السلف مزدرياً عليهم وذاكراً أنه ما جهل مقالاتهم، ثم هو يفسر الآية على شيء لا يكاد يخطر في ذهن عاقل، ويزعم أنّ ذلك هو المراد من هذه الآية. وهذه الطائفة لا يلتفت إليها، وقد ردَّ أئمة المسلمين عليهم أقاويلهم وذلك مقرر في علم أصول الدين. نسأل الله السلامة في عقولنا وأدياننا وأبداننا][1].

وهذا يدل على سلامة اتجاهه ونظرته السلفية الصحيحة.

رد الخرافات لا يعني الجمود على أقوال السلف بل نتدبر:

وإذا التزمنا جانب الحق وبعدنا عن قبول الخرافات وضالّ التأويلات فلا يعني هذا الموقف أن نرفض التدبّر لكتاب الله وأن نجمد على ما نقله لنا السلف من صحابة وتابعين عن فهم الكتاب الكريم.

وهذا الموقف هو الذي وقفه أبو حيَّان من معاصر له، ذكر ردَّه عليه في تفسيره القيم «البحر المحيط» فقال: [وقد جارينا الكلام يوماً مع بعض من عاصرنا، فكان يزعم أنَّ علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني تراكيبه بالاسناد إلى مجاهد وطاووس وعكرمة وأضرابهم، وأنّ فهم الآيات متوقف على ذلك. والعجب له أنه يرى أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف، متباينة الأوصاف، متعارضة ينقض بعضها بعضاً، ونظير ما ذكره هذا المعاصر أنه لو تعلّم أحدنا مثلاً لغة الترك أفراداً وتركيباً، حتى صار يتكلم بتلك اللغة، ويتصرف فيها نثراً ونظماً، ويعرض ما تعلمه على كلامهم فيجده مطابقاً للغتهم، قد شارك فيها فصحاءهم، ثم جاءه كتاب بلسان الترك فيحجم عن تدبره وعن فهم ما تضمنه من المعاني حتى يسأل عن ذلك سنقراً التركي.. تُرى مثل هذا يعدُّ من العقلاء؟ وكان هذا المعاصر يزعم أنَّ كل آية نقل فيها التفسير خلف عن سلف بالسند إلى أن وصل ذلك إلى الصحابة.

ومن كلامه أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن تفسيرها، هذا وهم العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلسانهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/١.

وقد روي عن عليّ كرم الله وجهه وقد سئل: هل خصكم رسول الله بشيء؟ فقال: ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل في كتابه.

وقول هذا المعاصر يخالف قول علي رضي الله عنه. وعلى قول هذا المعاصر يكون ما استخرجه الناس بعد التابعين من علوم التفسير، ومعانيه ودقائقه، وإظهار ما احتوى عليه من علم الفصاحة والبيان والاعجاز، لا يكون تفسيراً حتى ينقل بالسند إلى مجاهد ونحوه وهذا كلام ساقط](١).

* * *

قيمة التفسير:

من الأمور المهمة في أصول التفسير ــ كما سبق أن نوهنا ــ أن يعرف المفسر قيمة علم التفسير وأنه يتبوأ من العلوم أعلى منازلها وأشرفها. وهذا أمر قرره أبو حيان رحمه الله فقال:

[وبعد فإنَّ المعارف جمّة، وهي كلها مهمة، وأهمها ما به الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية، وذلك علم كتاب الله، هو المقصود بالذات، وغيره من العلوم له كالأدوات، هو العروة الوثق والوزر الأقوى والحبل المتين، والصراط المبين](٢).

* * *

التنبيه على أمور ينبغي ألا تكون في التفسير:

ومن مسائل أصول التفسير ما نبه إليه أبو حيان من شحن المفسرين كتبهم بأمور ينبغي ألا تكون في التفسير قال رحمه الله:

نَحو وفقه وكلام:

[وكثيراً ما يشحن المفسرون تفاسيرهم من ذلك بالإعراب بعلل النحو، ودلائل أصول الفقه، ودلائل أصول الدين، وكل هذا مقرر في تآليف هذه العلوم.

---

(١) البحر المحيط ١/٥.

(٢) البحر المحيط ١/٢-٣ وللزمخشري كلام جيل في مقدمة الكشاف عن قيمة التفسير.

والصرف، ثم ذكر أستاذه في هذا الفن الذي تلقى عنه].

الوجه الثالث: كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح. ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع. وقد صنّف الناس في ذلك تصانيف كثيرة وأجمعها... [وذكر اسم كتابين، ثم أستاذه الذي تلقى هذا الفن عنه].

الوجه الرابع: تعيين مبهم، وتبيين مجمل، وسبب نزول، ونسخ، ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ وذلك من علم الحديث [ثم ذكر أسماء الكتب الستة وسنن الشافعي ومسند الدارمي، والطيالسي، ومسند الشافعي، وسنن الدارقطني، ومعجم الطبراني الكبير والمعجم الصغير له وغير ذلك].

الوجه الخامس: معرفة الاجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والاطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما أشبه هذا. ويختص أكثر هذا الوجه بجزء الأحكام من القرآن. ويؤخذ هذا من أصول الفقه. ومعظمه هو في الحقيقة راجع لعلم اللغة؛ إذ هو شيء يتكلم فيه على أوضاع العرب، ولكن تكلم فيه غير اللغويين أو النحويين، ومزجوه بأشياء من حجج العقول [ثم ذكر أسماء كتب في علم الأصول وذكر أسماء العلماء الذين درس عليهم هذا العلم].

الوجه السادس: الكلام فيما يجوز على الله تعالى، وما يجب له، وما يستحيل عليه. والنظر في النبوة.

ويختص هذا الوجه بالآيات التي تضمنت النظر في الباري سبحانه وتعالى وفي الأنبياء وإعجاز القرآن.

ويؤخذ هذا من علم الكلام وقد صنف علماء الإسلام من سائر الطوائف في هذا كتباً كثيرة، وهو علم صعب، إذ المزلّة فيه، والعياذ بالله مفضية إلى الخسران في الدنيا والآخرة [وذكر العالم الذي سمع منه مسائل هذا العلم].

الوجه السابع: اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص، أو تغيير حركة، أو إتيان بلفظ بدل لفظ، وذلك بتواتر وآحاد.

ويؤخذ هذا الوجه من علم القراءات. وقد صنف علماؤنا في ذلك كتباً لا

تكاد تحصى][1] [ثم ذكر أسماء طائفة من هذه الكتب وأسماء الذين قرأ عليهم القراءات، وذكر أنه هو نفسه ألف كتاباً في القراءات سماه كتاب عقد اللآلىء وهو قصيدة على عروض قصيدة الشاطبي ورويه. وقصيدة الشاطبي مشهورة].

ثم قال:

[فهذه سبعة وجوه لا ينبغي أن يقدم على تفسير كتاب الله إلا من أحاط بجملة غالبها من كل وجه منها.

ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته، ولا يمتطى منه صهوته، إلاَّ من كان متبحراً في علم اللسان، مترقياً منه إلى رتبة الاحسان، قد جبل طبعه على إنشاء النثر والنظم دون اكتساب، وإبداء ما اخترعته فكرته السليمة في أبدع صورة وأجمل جلباب، واستفرغ في ذلك زمانه النفيس، وهجر الأهل والولد والأنيس، ذلك الذي له في رياضه أصفى مرتع، وفي حياضه أصفى مكرع، يتنسم عرف أزاهر طالما حجبتها الكمام، ويترشف كؤوس رحيق له المسك ختام، ويستوضح أنوار بدور سترتها كثائف الغمام، ويستفتح أبواب مواهب الملك العلام، يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد، وينفتح له ما استغلق إذ بيده الإقليد][1].

قرَّر أبو حيان أنَّ من لم يتعمق في العلوم السبعة التي هي:

اللغة ومفرداتها، والنحو والصرف وقواعدهما، وأصول الفقه، والحديث، والعقيدة وأصول الدين والقراءات؛ كان بمعزل عن فهم غوامض الكتاب العزيز، وإدراك لطائفه، والوقوف على أسراره، ولم يستطع أن يتذوق إعجاز القرآن، وسحره وحلاوته، وفصاحته وبلاغته، وهذا هو السبب الذي جعل بعض الناس يقولون: إنَّ القرآن مقدور على الإتيان بمثله، وإن الاعجاز كامنٌ في أنَّ الله صرفهم عن ذلك.

وسخر أبو حيان منهم وشبّههم بتلك المرأة التي قرأ زوجها بيت شعر قاله، ذَكَرَ

---

(١) البحر المحيط ١/٦-٧.

فيه الله ورسولَه وكتابه، فحسبته قرآناً، فلم تُرزق من الذوق ما تُفرِّقُ به بين كلام الله المعجز وكلام البشر العادي.

إن الذين يقولون بالصرفة يشبهون هاتيك المرأة في عدم تذوق النصوص، وهؤلاء ليسوا أهلاً لأن يقدموا على التفسير لعجزهم عن الفهم والتذوق والإدراك..

قال رحمه الله:

[وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم ــ يريد العلوم السبعة التي ذكرناها آنفاً ــ أو قصَّر في إنشاء المنثورِ والمنظومِ، فإنه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وإدراك لطائف ما تضمَّنه من العجب العجاب.

وحظه من علم التفسير إنما هو نقل أسطار، وتكرار محفوظ على مرّ الأعصار.

ولتباين أهل الإسلام في إدراك فصاحة الكلام، اختلفوا فيا به إعجاز القرآن:

■ **فمن توغل** في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوقل[1] في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أنَّ القرآن أتى في غايةٍ من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهايةٍ من البلاغة لا يمكن أنْ يُحامَ عليها. فمعارضتُه عندَهُ غيرُ ممكنةٍ للبَشَر، ولا داخلةٍ تحت القَدَر.

■ **ومن لم يدرك** هذا المدرك، ولا سلك هذا المسلك، رأى أنه من نمط كلام العرب، وأنَّ مِثْلَهُ مقدورٌ لمنشيء الخطب، فإعجازه عنده إنما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته ومناضلته، وإن كانوا قادرين على مماثلته.

والقائلون بأن الإعجاز وقع بالصرف هم من نقصان الفطرة الإنسانية في رتبة بعض النساء..] [2] (وذكر قصة المرأة وزوجها بنحو ما أشرنا إليه آنفاً) [3].

---

(١) توقل: صعد.

(٢) «البحر المحيط» ١/٧-٨.

(٣) ذكر أصحابُ كتب التراجم والأدب قصة هذه المرأة في ترجمة سيدنا عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وهي مستبعدة عندي وانظرها في «الاستيعاب» لابن عبد البر ٢/٢٧٨. وابن حجر لم يذكرها في «الاصابة». وأنا أستبعد وقوعها لأمرين الأول: لأنه من المستبعد أن تكون عربية أنصارية في أيام النبي ﷺ بهذا المستوى الذي يجعلها لا تفرق بين القرآن والشعر. =

وهناك كلام رائعٌ للزمخشري يبيّن فيه الشروط التي يجب أن تتوافر في المفسر نوردها هنا استحساناً لها كما فعل أبو حيان إذ قال:

[ولله درُّ أبي القاسم الزمخشري حيث قال في خطبة كتابه في التفسير ما نصُّه:

إنَّ أملأَ العلوم بما يَغْمُرُ القرائح، وأنهضَها بما يَبْهَرُ الألبابَ القوارح، من غرائبِ نكتٍ يَلْطُفُ مسلكُها، ومستودعاتِ أسرارٍ يَدِقُّ سِلْكُها، علمُ التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب «نظم القرآن»:

فالفقيهُ وإن برز على الأقران، في علم الفتاوى والأحكام،
والمتكلمُ وإن بزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام،
وحافظُ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَّةَ [(١)] أحفظ،
والواعظُ وإن كان من الحسن البصري أوعظ،
والنحويُّ وإن كان أنحى من سيبويه، واللغويُّ وإن عَلَك اللغات بقوة لحييه،

لا يتصدَّى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجلٌ قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونه، وتعب في التنقير عنهما أزمنه، وبعثته على تتبع مظانِّهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ.

كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورُجع عليه، وردَّ ورُدَّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدماً في حَمَلَةِ الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقَّادها، يقظان النفس، درَّاكاً للمحةِ وإن لَطُفَ شأنها، منتبهاً على الرَّمْزَةِ وإنْ خَفِيَ مكانها، لا كزَّاً جاسيا، ولا غليظاً جافيا، متصرفاً ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح نبات

= والثاني: أنّ القصة تدور حول حرمة قراءة الجنب للقرآن. وهذا الحكم لا تخلو أدلته من ضعف. وانظر «نيل الأوطار» للشوكاني ١٢٦/١.

(١) هو أيوب بن زيد أحد بلغاء الدهر، خطيب يضرب به المثل، يقال: أبلغ من ابن القِرِّيَّة، التحق بابن الأشعث وسيق إلى الحجاج أسيراً فقتله سنة ٨٤ هـ.

الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف][1].

وهذه الشروط التي ذكروها يمكن أن نُصنّفها في زمرتين:

أولاهما تتصل بالعلم والدرس والتحصيل.

وثانيتهما تتصل بالموهبة والملكة والخصائص الذاتية.

وقبل هاتين الزمرتين شرط أهم منهما وهو توافر تقوى الله والورع والوقوف عند حدود الله تعالى.

وإنَّ مما يأسف له المرء قلة من تتحقق فيهم هذه الأوصاف من المتصدين للتفسير في هذا الزمان. فلقد كثر المدعون الفارغون من العلم والموهبة الذين يقدمون بجرأة مذمومة على خوض عباب هذا البحر الهائل المتلاطم الأمواج.

فقد اطلعت على تفسير لدعي جاهل جاء في مقدمته بكلام متناقض ينقض آخره أوّلَهُ، ويذم أهل العلم الأفاضل وينال منهم، ويتهم كثيراً منهم تهماً باطلة. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

إنَّ على من يريد أن يرتقي هذا المرتقى الصعب أن يتقي الله سبحانه ويخشاه وأن يستكمل أدوات الفهم والعلم وأن يتحقق كونه ذا ملكة وموهبة.. فإن لم يبلغ ذلك فليترك الأمر إلى أهله ولله در القائل:

يا باري القوس برياً ليس يحسنه   لا تظلم القوس أعط القوس باريها

هذا وقد لخصت العلوم التي يحتاج إليها المفسر في كتابي «لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير» فذكرت أنها عديدة، وأهمها:

١ ــ اللغة والاشتقاق: لأننا باللغة نعرف معاني المفردات. وفهمُ حقائق الألفاظ المفردة يكون باستقصاء المعاني التي دلت عليها هذه الكلمة في آيات القرآن.

ولا بد للوصول إلى هذا المقصد من الاطلاع على معاني المفردات زمن التنزيل،

---

(١) البحر المحيط ٩/١.

إذ كلما استطعنا تحديد مدلول الكلمة في ذاك الزمان كنا أقدر على فهم معنى الكلمة المراد. قال مجاهد: [لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب].

ومما يتصل بمعرفة المفردات معرفة المترادف والمشترك... وما إلى ذلك من أنواع اللغة. وكذلك فإن معرفة الاشتقاق تعين على الفهم الدقيق للآية.

٢ ــ **النحو والصرف:** لأن فهم المعنى يتوقف في أحيان كثيرة على معرفة الإعراب، ويقع الذين يجهلون هذين العلمين، ويتصدون للتفسير في أغلاط شنيعة. كما حدث لبعضهم في شرح الآية: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾[(١)] فقد فهم أن (الإمام) جمع (أم) وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم. قال الزمخشري: [وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن (أماً) لا تجمع على (إمام)].

٣ ــ **الأدب وعلوم البلاغة:** ذلك لأن مراعاة ما يقتضيه الاعجاز أمر لازم في التفسير، فلا بد من اشارة إلى نواحي الجمال الفني في الآية وتحليلها.

ومن أجل ذلك كله كان التذوق الأدبي أمراً ضرورياً لكل من يتصدى للتفسير، ولا ينمو هذا التذوق إلا بعد طول معاناة لكلام البلغاء، وقراءة آثارهم، وحفظ مختارات منها، واطلاع على نتاج النقاد، ودراسة للشعر والرسائل والخطب، واشتغال بالكتابة. قال الزمخشري: [من حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز، أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح].

٤ ــ **علوم القرآن:** ذلك لأن معرفة هذه العلوم من أهم الأدوات التي لا بد منها لعملية التفسير:

□ فمعرفة أسباب النزول تساعد كثيراً على فهم الآيات الفهم الصحيح الدقيق، وتجنب المفسر أغلاطاً كان من المحتمل أن يقع فيها.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧١.

□ وكذلك فإن معرفة المكي والمدني تعين في إدراك معاني الآيات على وجه دقيق سليم ولنأخذ على ذلك مثلاً آيات الجهاد، فإننا عندما نعرف المكي والمدني منها نتصور الجهاد على الوجه الصحيح السليم.

وقد بيّن مسألة الجهاد حسب أوقات نزولها كل من ابن القيم وسيد قطب أحسن البيان[1].

□ وكذلك فإنّ معرفة الناسخ والمنسوخ لها أهميتها القصوى في تفسير الآيات التي تقرر حكمين مختلفين في موضوع واحد.

□ وكذلك فإن المحكم والمتشابه من الأمور الأساسية في التفسير، حتى نتخلص من عناء الدخول في متاهات المتشابه، ولنصرف جهدنا وطاقاتنا في تفسير المحكم.

٥ ــ **علم أصول الدين والتوحيد:** وذلك لأن هذا الكتاب الكريم يتضمن نظرة جديدة إلى الكون والحياة والانسان متمثلة في العقيدة الاسلامية.

فإدراك أصول هذه العقيدة يساعد مساعدة تامة في شرح الآيات الكريمة المتعلقة بذلك.

٦ ــ **علم أصول الفقه:** لأننا بواسطة هذا العلم نستطيع أن نعرف استنباط الأحكام من النص، ووجه الاستدلال على الأحكام.

ولعلّ هذا العلم من أهم العلوم التي نستفيد منها في قواعد أصول التفسير.

٧ ــ **الحديث النبوي:** ذلك لأن في أحاديث النبي ﷺ تفسيراً لعدد من آيات القرآن، إذ كانت مهمة النبي ﷺ الأولى تبيان ما نزل إلى الناس، ومنه تفصيل المجمل، وبيان المبهم. وخذ مثلاً كتاب البخاري فأنت تجد فيه كتاباً كبيراً في التفسير، أورد ما جاء في تفسير القرآن من أوله إلى آخره.

٨ ــ **الفقه:** ذلك لأنه يعرض الأحكام الاسلامية التي ذكرها القرآن مبوبة مجموعة، فيساعد استحضارها على تصور دقيق لمعاني آيات الأحكام.

---

(١) انظر «زاد المعاد» ٣/١٥٨ و«معالم في الطريق» ٧٥ وتفسير سورة الانفال وسورة براءة من كتاب «في ظلال القرآن».

٩ ـ **السيرة النبوية:** ذلك لأنّ فيها تجلية لكثير من الآيات، وذلك كما في آيات الأنفال التي تتحدث عن غزوة بدر، وآيات آل عمران التي تتحدث عن غزوة أحد.

١٠ ـ علوم أخرى كالعلوم الاجتماعية والعقلية والكونية، وما يتصل بالثقافة العامة كالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وعلم الفلك... كل هذه العلوم مما يساعد على تفسير القرآن تفسيراً يتصل بحياة الناس.

ثم ذكرت الشروط التي يشترطها العلماء في المفسر وقسمتها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ شروط علمية: وتتلخص بإتقان المفسر قدراً جيداً من العلوم التي ذكرناها آنفاً وأن يكون مطلعاً على التشريع، ملماً بطبائع الأمم ونفسيات الشعوب وأمزجة أنواع من البشر.

٢ ـ شروط عقلية: وهي أن يكون المفسر موهوباً ذا قدرات عقلية ممتازة، قوي الاستدلال، حسن الاستنباط، قادراً على الترجيح إن تعارضت الأدلة، عارفاً اختلاف الأقوال على حقيقته، إذ كثيراً ما يكون الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وأن يكون ذا ذوق سليم يمكنه من أن يعوض عن السليقة العربية الصافية التي كان العرب يمتلكونها.

٣ ـ شروط دينية وخلقية: وهي أن يكون صحيح العقيدة، مؤدياً للواجبات الدينية، ملتزماً الأداب والأخلاق الاسلامية التي دعا إليها الإسلام وأن يكون محرراً من سلطان الهوى، شديد الخشية لله.

ابن كثير وأصول التفسير

من المفسرين الذين كتبوا مقدمة واسعة اهتمت بأصول التفسير ابن كثير.

وهو إسماعيل بن عمر بن كثير. أبو الفداء. الدمشقي القرشي. ولد سنة إحدى وسبعمائة (سنة ٧٠١) وجدَّ في طلب العلم حتى نبغ، وبدأ التأليف في وقت مبكر من حياته. كان كثير التصنيف والحفظ. لازم الحافظ المزيَّ وصاهره فتزوج بنته، وتتلمذ على أعلام عصره وما أكثرهم وما أجلّهم من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي والمزي وغيرهم. ولقد كانت له خصوصية بابن تيمية وتعلق به ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه، وقد أخذ الكثير عنه وقد أصابه بسببه بعض الأذى فاحتمل ذلك في سبيل الله، وإنك لتلمس مدى هذه العلاقة والاعجاب فيما كتبه ابن كثير في الجزء الرابع عشر من البداية والنهاية. توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة (سنة ٧٧٤) في دمشق، ودفن قريباً من شيخه ابن تيمية في مقبرة الصوفية التي قام عليها الآن مستشفى الجامعة السورية وبعض أبنية الجامعة.

وتفسير ابن كثير تفسير جيّد، انتفع الناس به قديماً وحديثاً، وذلك عائد إلى سلامة منهجه وإخلاص مؤلفه، وسهولة المراجعة فيه.

سئلتُ مرة عن أفضل تفسير يمكن لطالب العلم أن يقتصر عليه، فأجبت السائل قائلاً: هناك كلمة يرددها العلماء وهي قولهم: (لا يغني كتابٌ عن كتاب)، فليس هناك كتاب في التفسير ولا في غيره من العلوم يغني طالب العلم ومبتغي المعرفة عن غيره. وكتب التفسير بخاصة يكمل بعضها بعضاً. قال السائل: فما قولك إن أردت أن أقتصر على كتاب واحد في التفسير؟ قلت: إن كان ولا بد من الاقتصار على تفسير واحد فعليك بتفسير ابن كثير. وما قلت ذلك إلا لما أعلم من فضله.

إنه من أشهر كتب التفسير بالمأثور، وأكثرها شيوعاً وانتشاراً بين الناس، وزادت المطابع في عصرنا من شهرته، فطبع أكثر من مرة وفي أكثر من بلد، مستقلاً حيناً، ومع تفسير آخر حيناً آخر. وعنوان الكتاب «تفسير القرآن العظيم» وقد قدّم له بمقدمة قيمة تحدّث فيها عن أصول التفسير، ويبدو أنه استفاد من كلام شيخه ابن تيمية في رسالة له في أصول التفسير. وقد اختصره كثيرون. والكتاب ــ على الرغم من الجهود التي بذلت في خدمته [1] ــ ما يزال بحاجة إلى المزيد من الخدمة والتحقيق.

□ أشار ابن كثير ــ رحمه الله ــ إلى أن هذا القرآن الكريم كان نذيراً كما جرت سنة الله في الرسل المتقدمين ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ [2] وأن رسول الله خاتمَ الأنبياء أرسل كافة للناس وأنزل عليه القرآن لينذرهم به ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ ومنْ بلغَ ﴾ [3] ﴿ وما أرْسَلناكَ إلاّ كَافةً للناسِ بَشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلَمُون ﴾ [4] وجاء التهديد لمن كفر بهذا القرآن في آيات منها قوله سبحانه: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكذِّبُ بهذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدرِجُهُمْ مِنْ حَيثُ لا يَعْلَمُون. وأمْلِي لَهُمْ إنّ كَيدي مَتِين ﴾ [5] وأنّ الله تبارك وتعالى ندبهم إلى تدبّره وفهمه.

وموضوع تدّبر القرآن ذكرناه أكثر من مرة في بحثنا في أصول التفسير.

□ ثم انتبه ابن كثير إلى أمر واقعي مهمّ، وهو أنَّ المسلمين لا يستطيعون جميعاً أن يتدبروا هذا القرآن بأنفسهم، لقلة علم أكثرهم، ولجهل كثير منهم باللغة

---

(١) بدأ باختصاره الشيخ أحمد شاكر وأصدر من مختصره خمسة أجزاء صغيرة، واختصره آخرون، وحققه في مصر (عبد العزيز غنيم والدكتور محمد أحمد عاشور ومحمد ابراهيم البنّا) وصدر عن كتاب الشعب في ثمانية أجزاء كبيرة، وبلغني أنه بدأ بتخريج أحاديثه مقبل بن هادي ويطبع في أوروبا.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٤) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٥) سورة القلم: الآية ٤٤-٤٥.

العربية لكونهم من غير العرب الذين لا يعرفون إلاّ لغتهم. فوضوع التدبر لهذا الكتاب الذي فيه التبشير والإنذار لا يتحقق إلا بمساعدة العلماء، الذين أخذ عليهم العهد أن يبلغوا دين الله، وإلا كانوا من الكاتمين الملعونين فقال:

[فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانّه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: ﴿وإذ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الذينَ أوتُوا الكِتَابَ لَتبيننَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ، فَنبذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ واشتَرَوا بِهِ ثَمناً قليلاً فَبِئسَ ما يَشتَرُون﴾[1] وقال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ يَشْتَرونَ بِعَهْدِ الله وأَيمَانِهِمْ ثَمناً قليلاً. أولئكَ لا خَلاَقَ لَهُمْ في الآخِرَةِ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يَنظُرُ إليهِمْ يَومَ القِيَامَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أليم﴾[2].

فذمّ الله تعالى أهل الكتاب قبلنا باعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عمّا ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ولا يَكُونُوا كالَّذينَ أوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمِ الأَمَدُ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُون. إعلَمُوا أنَّ الله يُحْيِي الأَرضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾[3] في ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي. والله المؤمّل المسؤول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم][4].

وهو بهذا الكلام يشير إلى أمر في غاية الأهمية، وهو واجب العلماء بالنسبة لإتاحة التدبّر لأكبر عدد من المسلمين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٧.
(٣) سورة الحديد: الآية ١٦-١٧.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/١.

وقد ذكر أنَّ واجب العلماء مزدوجٌ ذو شقين:

أما أولها فهو استكمال مصادر البحث ودراسة المراجع المتعلقة بالقرآن، وقد عبَّر عنها بالتعلم والتفهم.

وأما الشق الثاني فهو بيانه للناس بأسلوب واضح جميل، وقد عبر عن ذلك بالتعليم والتفهيم.

قصص القرآن والاعتبار بأخبار الأمم السابقة:

ومن الأمور المهمة التي يقف عليها المرء في كلام ابن كثير إدراكه أهمية الاعتبار بأخبار الأمم السابقة الواردة في الكتاب العزيز، ولا سيما أخبار بني إسرائيل فقد ذمَّ الله أهل الكتاب بإعراضِهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالِهم على الدنيا. فهذا الذمُّ لأولئك القوم تنبيه لنا أن نأخذ العبرة حتى لا نقع فيما وقعوا فيه.

ومسألة الدنيا والسعي وراءها والاهتمام بجمع متاعها هي المسألة التي أدّت إلى انحراف كثير من أبناء هذه الملة الإسلامية عن جادة الحق. إنَّ أولئك اليهود والنصارى اشتروا بكتاب الله الذي أنزله الله عليهم ثمناً قليلاً، وكتموه، ونبذوه وراء ظهورهم، وكان عملهم هذا مدعاة إلى ذمِّهم ويمكن أن يكون هذا الذمُّ موجهاً إلى كل أمة أعرضت عن كتاب الله الذي أنزل عليها، وجعلت همَّها الأول تحصيل المال والمتعة.

وهذه القضية تتصل بقصص القرآن كله. فما من أمة ورد ذكرها في القرآن إلا كان من أجل تقرير حكمة والتنبيه إلى سنة من سنن الله الكونية التي قررها، وبيان شأن حد من الحدود التي شرعها.

وقد تتعدد الحكم والسنن والحدود، وقد يكون هذا التعدد سبباً من أسباب تكرار القصة في القرآن. وهذا الموضوع سنأتي عليه في التفصيل إن شاء الله فيما نستقبل من هذه الأصول.

أحسن الطرق في التفسير:

□ ثم أورد سؤالاً مهماً جداً في أصول التفسير وأجاب عنه فقال:

[فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

تفسير القرآن بالقرآن:

فالجواب أنّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن. فما أَجْمِلَ في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر.

تفسير القرآن بالسنة:

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له.

بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿ إنا أَنْزَلنا إليكَ الكِتَابَ بالحقّ لِتَحكُمَ بينَ النَّاسِ بما أراكَ الله ولا تكُنْ لِلْخائنينَ خَصِيماً ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدًى ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ وأنْزَلنا إليكَ الذِّكرَ لِتُبيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ ولَعلَّهمْ يَتفكَّرون ﴾ (٣) ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» يعني السنة.

والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلاّ أنها لا تتلى كما يتلى القرآن. وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٦٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «فبم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»] (١).

ثم قال ابن كثير: [وهذا الحديث في «المسند» و«السنن» بإسنادٍ جيد كما هو مقرر في موضعه] (٢).

وليس هذا الحكم على الحديث بمسلّم. بل إنَّ ابن كثير نفسه في «البداية والنهاية» (٣) نقل كلام الترمذي في الحديث وهو: (هذا حديث لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل) ثم قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: (وقد رواه ابن ماجه من وجه آخر عنه من طريق محمد بن سعيد بن حسان وهو المصلوب أحد الكذابين) انتهى كلام ابن كثير. وقد قال البخاري في هذا الحديث: إنه منكر. وقال الذهبي: (وأنّى له الصحة ومداره على الحارث بن عمرو وهو مجهول عن رجال من أهل حمص لا يدرى من هم؟ عن معاذ) (٤).

إذن فالحديث من حيث السند غير صحيح أما ما قرره من الاعتماد على القرآن ثم على السنة فهذا هو الذي أراد أن يستشهد به ابن كثير.

يفسر المفسر القرآن بالقرآن، فإن لم يجد فسّره بما جاء في السنة قال ابن كثير:

أقوال الصحابة:

[وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك:

لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها.

ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ولا سيا علماؤهم

(١، ٢) تفسير ابن كثير ٣/١.

(٣) البداية والنهاية ١٠٣/٥.

(٤) انظر كتابنا «الحديث النبوي» ٢٢-٢٣.

وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم][1].

وهذا الموقف هو الموقف السليم بالنسبة إلى ما نقف عليه من أقوال الصحابة. فهم أهل اللغة وهم الذين شهدوا تطبيق الشريعة على يد رسول الله، وهم الذي عاصروا أسباب النزول وعايشوها.

ثم أورد بعد ذلك آثاراً تدل على فضل ابن مسعود وسعة علمه في التفسير وأتبعها بآثار أخرى تدل على مكانة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم في تأويل كتاب الله عز وجل.

ابن مسعود:

• وبدأ بابن مسعود[2] فذكر الأمور الآتية عنه:

١ ــ ما من آية في القرآن إلا وهو يعلم فيمن نزلت وأين نزلت.
٢ ــ ما كان يعلم أن هناك أحداً أعلم منه بكتاب الله، ولو كان يعلم وجود إنسان أعلم منه لقصد إليه مهما كان منزله بعيداً.
٣ ــ تعلّم العلم مقروناً بالعمل، فهو يحكي أن الرجل من الصحابة ما كان يجاوز في التعلم العشر آيات إلى غيرها حتى يقف على معانيهن ويعمل بهن.

قال ابن كثير: [.. قال عبد الله بن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت. ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته».

وقال الأعمش.. عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[3].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣.
(٢) هو عبد الله بن مسعود الهذلي أحد السابقين الأولين شهد بدراً والمشاهد توفي بالمدينة سنة ٣٢.
(٣) تقدم ذكر هذين الأثرين في ص ٩ وص ٣٤ وسنذكرهما في ص ٨٢.

يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً][(١)].

إن هذه الآثار لتغري المفسر أيما إغراء بالحرص على هذا العلم الجمّ من هذا الصحابي، وهذا يقتضينا أن نتثبت من صحة نسبة الأقوال إليه فإذا صحّت كانت مادة علمية ثمينة يحرص عليها وينتفع منها أعظم الانتفاع، ويرجع إليها في فهم كتاب الله وتفسيره.

ابن عباس:

* ثم ثنّى ابن كثير بابن عباس[(٢)] وذكر الأمور الآتية عنه:

١ ــ كان ترجمان القرآن ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم.
٢ ــ كان يلقبه الصحابة بهذا اللقب «ترجمان القرآن» ومنهم عبد الله بن مسعود.
٣ ــ اكتسب علماً كثيراً بسبب طول عمره وجدّه ودأبه وسؤاله الصحابة.
فقد عاش بعد ابن مسعود ستاً وثلاثين سنة.
٤ ــ تفسيره مؤثر حتى قيل: لو سمعته الروم لأسلموا.

قال ابن كثير: [ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن، ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»... قال عبد الله بن مسعود: نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس.... فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده عبد الله ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود.

وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليٌّ رضي الله عنه عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ــ وفي رواية: سورة النور ــ ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا][(٣)].

---

(١) ابن كثير ١/٣.
(٢) ولد عبد الله بن عباس قبل الهجرة بثلاث سنوات وغزا في أفريقية وتوفي بالطائف سنة ٦٨ هـ وكان من العلماء الكبار.
(٣) تفسير ابن كثير ١/٣-٤.

والمنقول عن ابن عباس أنواع منه الصحيح ومنه الضعيف ومنه الموضوع فعلى من يريد أن يتصدى للتفسير أن يتثبت من صحة الأقوال المنسوبة إلى هذا الصحابي الجليل وألا يورد إلا ما صح منها[1].

* * *

الاسرائيليات:

ثم استطرد إلى موضوع مهمّ وهو موضوع الاسرائيليات. فقد ذكر الحديث «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وقال: رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو. وقسم الأحاديث الاسرائيلية إلى ثلاثة أقسام:

١ ـــ قسم علمنا صحته لأنه وافق القرآن وصحيح السنة.
٢ ـــ قسم علمنا كذبه لأنه يعارض القرآن وصحيح السنة.
٣ ـــ قسم مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل.

[ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة أنواع:

أحدها : ما علمنا صحته ممّا بأيدينا مما يشهد له بالصدق. فذاك صحيح.
الثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.
والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل. فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً. ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا: أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي

(١) انظر كتاب لمحات في علوم القرآن ص ٢٠٣-٢٠٤ ط ٢.

كلم الله منها موسى.. إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم.

ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى: ﴿سَيقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ. وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلبُهُمْ رَجْماً بِالغيبِ. ويقولونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلبُهُمْ. قُلْ رَبي أَعَلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يعلمُهُمْ إلا قَلِيلٌ. فَلا تُمَارِ فيهِمْ إلا مِراء ظَاهِراً ولا تَسْتَفْتِ فيهِمْ مِنْهُمْ أحداً﴾(١).

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال، ضعّف القولين الأولين، وسكت عن الثالث فدل على صحته، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته. فقال في مثل هذا ﴿قُلْ رَبي أعلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال: ﴿فَلا تُمارِ فِيهِمْ إلاَّ مراء ظَاهِراً﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم.

فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً، فإن صَحَّحَ غير الصحيح عامداً فقد تعمّد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ.

وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى؛ فقد ضيع الزمان وتكثّر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٢.

والحق أنَّ رواية الاسرائيلية شيء وإيرادها في التفسير شيء آخر، فإيرادها في صدد تفسير آية تصديق لها وأي تصديق ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

ولم يفصل ابن كثير في الحالات التي تواجه المفسر بالنسبة إلى كلام الصحابة، ولن أدخل الآن في ذكر التفصيلات لأنني في صدد عرض كلام المفسرين في أصول التفسير في مقدماتهم.

أقوال التابعين:

ثم عقد ابن كثير في مقدمته فصلاً بحث فيه الموقف من أقوال التابعين، فقرّر أن كثيراً من الأئمة رجعوا إلى أقوالهم وأقوال تابعي التابعين وتابعيهم من العلماء. وهذا أمر صحيح مناسب. لماذا لا نستفيد من علم العلماء الذين تقدمونا؟ بل هل نستطيع أن نتجاهلهم؟

إنَّ الاستفادة من علمهم مطلب يلح على طالب العلم. وإن الاستغناء عن الإفادة من قول صحيح لعالم من العلماء غلط كبير ومخالفة للمنهج العلمي السديد وكلما اقترب زمن هذا العالم من عهد النبوة كان الاطمئنان إلى صحة الفهم أكبر؛ لأنّ اللحن لم يكن قد انتشر، والعجمة لم تكن قد استحكمت.

وبعد أن قرر المؤلف هذا الموقف أثنى على إمام فاضل من أئمة التابعين وهو مجاهد[1] وأورد أسماء عدد من التابعين.

مجاهد:

قال ابن كثير: [إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عَرَضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها.

(١) مجاهد بن جبر المكي المقرىء الامام المفسر روى عن ابن عباس وأبي هريرة وغيرهما. مات وهو ساجد بمكة سنة ١٠٢ أو ١٠٣.

وقال ابن جرير: ... عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عبّاس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه قال: فيقول له ابن عباس: اكتب. حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

تابعون آخرون:

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيَّب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية] (١).

اختلاف التابعين في المسألة الواحدة اختلاف تنوع:

ثم تعرّض إلى أمر مهمٍّ جداً بالنسبة لأقوال هؤلاء التابعين والعلماء، وهذا الأمر سبق أن أشار إليه شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، رحمه الله تعالى في رسالته [ص ٢٨] وأخذه عنه المؤلف قائلاً:

[فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها مَنْ لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك. فإنَّ منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينصّ على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك. والله الهادي] (١).

وهذه ملاحظة قيمة إذ [يبدو في كثير من الروايات في المسألة الواحدة عن الصحابة أو التابعين أو عن صحابي واحد اختلاف أو تعارض، ولكن التعمق في هذه الأقوال يقنع بأنها غير متناقضة ولا متعارضة، وأنها تعود إلى أصل واحد، وبينها عموم وخصوص. وكثيراً ما بيّن ابن جرير في تفسيره أنها غير متعارضة، وقد نبه على مثل هذا الاختلاف] (٢) الشيخ طاهر الجزائري ولخص فيه القول تلخيصاً

(١) تفسير ابن كثير ١/٤-٥.
(٢) لمحات في علوم القرآن ٢١٠.

جيداً فقال: [الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد...] [١].

حجية أقوال التابعين:

ثم ناقش المؤلف حجيّة أقوال التابعين فقال:

[وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجةً فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح.

أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرْتابُ في كونه حجة.

فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض، ولا على من بعدهم.

ويُرْجع في ذلك إلى **لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك**] [٢].

ذلك لأن أقوال الرجال لا تكون حجة في الدين، وليس لها قوة النصوص الدينية، فكل شيء ليس من عند الله معرض للنقص والتناقض والاختلاف كما قال ربنا عزّ وجل ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [٣] فالعصمة لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم فيما يبلغون عن ربهم، وأما ما عداهم من البشر فهو معرض في اجتهاده إلى الخطأ والصواب. ومن هنا قال الإمام مالك: ما منا إلا من ردّ وردّ عليه إلا صاحب هذا القبر وكان يشير إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

ويروى عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: (ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال) [٤].

---

(١) توجيه النظر ص ٢.
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥.
(٣) سورة النساء: الآية ٨٢.
(٤) لمحات في علوم القرآن ٢١٠.

وأما ما ذكره المؤلف من الإلزام بما أجمع عليه التابعون فهذا صحيح، ويجب الأخذ بالقول الذي أجمعوا عليه، لأن إجماعهم يدل على وجود نصّ ملزم.

ومع نفي الإلزام فيما لم يجمعوا عليه فعلينا أن ننظر في أقوالهم ونفيد منها ونرجع كما قال المؤلف إلى اللغة العربية عامة وإلى لغة القرآن والسنة وأقوال الصحابة.

ابن تيميَّة وأصُول التفسير

وابن كثير قد أفاد من شيخه ابن تيمية أعظم الاستفادة في أصول التفسير وفي غيره، تلمس ذلك في فكر ابن كثير وفيما كتبه في «البداية والنهاية» عندما وصل إلى عصر ابن تيمية. وهذا يقودنا إلى أن نقف وقفة متأنية عند رسالته القيمة التي ألفها في هذا العلم، ويعدها العلماء من آصل ما كتب في هذا الموضوع. وعنوانها «مقدمة في أصول التفسير».

وسنتحدث عن دور الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في إنماء هذا العلم وتقعيد قواعده، سواء كان ذلك في هذه الرسالة المذكورة أم كان في جولاته المتعددة في تفسير كتاب الله وذلك في ثنايا كتبه وفتاويه ورسائله.

وأود أن أغتنم فرصة الحديث عن دور ابن تيمية في أصول التفسير لأورد معالم حياته المباركة التي كانت خيراً كبيراً على المسلمين في عصره وعلى من جاء بعده.

إنه شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام.. ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي.

[(١)] كان ابن تيمية شخصية فذة، وذا عبقرية نادرة، وداعية إلى الله، حريصاً على الخير، وبطلاً مجاهداً صادقاً لا يقف عند حد، ولا تصده عن عزمه رغبة أو رهبة.

كان يؤثر ما عند الله، صبوراً على الشدائد، زاهداً في عرض الحياة الدنيا، ثائراً على البدع والخرافات والأباطيل، وكان على علم واسع عميق، ومعرفة تامة بأحوال عصره، واستحضار عجيب لما حفظه.

---

(١) انظر تفصيل هذا الموجز في الترجمة التي كتبتها مقدمةً لكتاب «أحاديث القصاص».

وكان إنتاجه العلمي غزيراً، وأثره الاجتماعي خيراً نافعاً مباركاً فيه.

ولد في ١٠ ربيع الأول سنة ٦٦١ في حرّان، وهي بلدة تقع في الشمال الشرقي من بلاد الشام في الجزيرة، وهي تقع الآن في تركيا على مسافة ٣٥ كم من الحدود السورية الشمالية وهي مدينة عامرة.

وتحوّل به أبوه من حرّان إلى دمشق سنة ٦٦٧ عند استيلاء التتار على البلاد، فنشأ فيها وتلقى على أبيه وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام. استطاع ابن تيمية أن يلم بفنون الثقافة في عصره في وقت مبكر وكان ذا حافظة خارقة، وكان على حداثة سنه حريصاً على الوقت جداً لا يضيع منه شيئاً أبداً، ويعرف عما ينصرف إليه لذاته من الصبيان. قال فيه الحافظ الذهبي: (هو الشيخ الإمام العلامة، الحافظ، الناقد، الفقيه، المجتهد، المفسر، البارع، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان)[١].

ولم يكف عن الدراسة والقراءة والبحث والتأليف طوال عمره وفي مختلف أحواله[٢].

وقال الذهبي أيضاً: (وكان محافظاً على الصلاة والصوم، معظماً للشرائع ظاهراً وباطناً، لا يؤتى من سوء فهم، فإنَّ له الذكاء المفرط. ولا من قلة علم، فإنه بحر زخار ولا كان متلاعباً بالدين، ولا ينفرد بمسائله بالتشهي، ولا يطلق لسانه بما اتفق، بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس، ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة)[٣] وقال تلميذه صاحب الأعلام العلية: (وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها، بل جعل همه وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى)[٤].

---

(١) تذكرة الحفاظ ١٤٩٦/٤.

(٢) فوات الوفيات ٦٤/١.

(٣) الدرر الكامنة ١٦١/١.

(٤) الأعلام العلية ٣٣.

ومجال القول في دراسة شخصية ابن تيمية متسع مترامي الأطراف وليس هذا محله ولكني سأشير إلى جوانب ثلاثة من حياته.

■ **الجانب العلمي:** وأهم سمات هذا الجانب.

١ ــ التنوع في العلوم، وسعة الاطلاع في كل فن. كان مطلعاً أوسع الاطلاع على العلوم الاسلامية والعربية والمنطق والحساب وأصول الديانات والفرق الضالة.

٢ ــ استقلاله وقوة شخصيته، يتجلى هذا الاستقلال وتلك القوة في موقفه من المنطق الصوري اليوناني.

٣ ــ قدرته على الاستنباط وتأصيل القواعد وتفريع المسائل.

٤ ــ غزارة إنتاجه العلمي.

■ **الجانب الاصلاحي:** لقد شعر ابن تيمية بمسؤوليته العظمى في تغيير الواقع المنحرف الذي كان فيه المسلمون ومن هنا ثار على الأوضاع المنحرفة المخالفة لما جاء عن رسول الله ﷺ ورفض الأوضاع التي تنحرف عن التصور الصحيح للإسلام. واستطاع أن ينجح في ثورته هذه.

■ **الجانب الجهادي:** كان رحمه الله مجاهداً بعلمه وقلمه ولسانه وسيفه ولم يكن يخاف في الله لومة لائم. ويتمثل جهاده في أمرين:

□ إقدام في المعارك لا نظير له وهذا ما وقع في معركة شقحب(١).

□ وجرأة في الحق لا حد لها وهذا ما وقع له مع قازان ومع الملك الناصر.

أدخل السجن آخر مرة في شعبان سنة ٧٢٦ هـ ومكث في السجن إلى أن توفاه الله في ٢٦ من ذي القعدة سنة ٧٢٨ رحمه الله تعالى].

نشرت هذه الرسالة أول مرة سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦) بدمشق بعناية مفتي الحنابلة الشيخ جميل الشطي، ثم أعيد طبعها في القاهرة سنة ١٣٧٠ بعناية السيد محب

(١) كتبت رسالة في هذه المعركة، وسأقدمها للطبع قريباً إن شاء الله.

الدين الخطيب ثم طبعت في الهند والرياض وبيروت وقد حققها صديقنا الدكتور عدنان زرزور وطبعت في دار القلم في بيروت سنة ١٣٩١[١].

وسنتحدث عن هذه الرسالة وأقسامها لأنها أهم ما يقف عليه الباحث فيما كتب السلف من بحوث في أصول التفسير.

بدأ المؤلف رسالته بذكر خطبة الحاجة وسبب تأليفه هذه الرسالة. وخطبة الحاجة هي [إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله] وهناك آيات أوردها النبي ﷺ بعدها من سورة آل عمران والنساء والأحزاب. ولكن الذي أتى به ابن تيمية في مفتتح رسالته هو قريب من النصّ الذي أوردناه. وخطبة الحاجة هذه [كان السلف الصالح يقدمونها بين يدي دروسهم وكتبهم ومختلف شؤونهم] [٢] وقال الشيخ محمد ناصر الألباني: [قد تبيّن لنا من مجموع الأحاديث المتقدمة أن هذه الخطبة تفتتح بها جميع الخطب سواء كانت خطبة نكاح أو خطبة جمعة أو غيرها][٣] وقال: [وقد جرى على هذا النهج شيخ الاسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فهو يكثر من ذلك في مؤلفاته كما لا يخفى على من له عناية بها] [٤].

ثم ذكر ابن تيمية بعد خطبة الحاجة سبب تأليفه هذه الرسالة وهو أن بعض الإخوان سأله أن يكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية تعين على فهمِ القرآن ومعرفةِ تفسيره، والتمييزِ بين الحق والباطل فاستجاب لهذا الطلب وكتب هذه الرسالة. يقول:

[أما بعد فقد سألني بعض الاخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتميز ــ في منقول ذلك ومعقوله ــ بين الحق وأنواع الأباطيل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل، فإنّ

---

(١) معتمداً على نسخة خطية قيمة موجودة في خزانة الشيخ زهير الشاويش.

(٢) خطبة الحاجة ص ٩.

(٣) خطبة الحاجة ص ٣١.

(٤) خطبة الحاجة ص ٣٢.

الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين].

ثم قال: [والعلمُ إمّا نقل مصدَّقٍ عن معصوم، وإمَّا قول عليه دليل معلوم] وفي هذه الجملة الأخيرة إشارة إلى أنَّ العلم إمَّا نقل وإما اجتهاد.

أما النقل فيشترط في ناقله أن يكون ثقة مصدقا، وأما الاجتهاد فيشترط فيه أن يكون الدليل الذي يعتمد عليه المجتهد دليلاً سليماً من النقد معلوماً.

ثم يقرر المؤلف أن ما عدا الأمور النقلية والأمور الاجتهادية لا حاجة للناس إليه لأنه مردود، لا يقع من الأمة موقع الحاجة.

وقال: [وحاجة الأمة ماسّة إلى فهم القرآن].

وهذا كلام مهم جداً، يقرر فيه حاجة أمة الاسلام إلى فهم الكتاب الكريم الذي أنزل على الناس ليدّبروه وليعملوا به.. إن حاجتهم إلى ذلك ماسة.

ثم وصف هذا القرآن وصفاً رائعاً، استعار فيه ألفاظ حديث ورد في وصفه، وهذا الحديث وإن كان صحيح المعنى لكنه ضعيف جداً[1] لأنه من رواية الحارث الأعور وهو كذاب. والمؤلف رحمه الله لم يورده حديثاً، وإنما جعله من كلامه هو لأن معناه جميل فقال:

[وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله].

ثم تابع المؤلف وصفه للقرآن وذلك بإيراده عدداً من الآيات القرآنية التي تصف هذا القرآن.

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي والدارمي وانظر تخريجي للحديث في كتابي «لمحات في علوم القرآن» ص ٢٧ طبع المكتب الاسلامي.

فمن ذلك: الآيات الواردة في سورة طه والتي تقرر أنَّ من اتَّبع هذا القرآن لا يضل ولا يشقى وأن من أعرض عنه اضطربت أحوال معيشته الدنيا، وقاسى الضيق وعانى الضنك ولقي في الآخرة العذاب الشديد. يقول تعالى:

﴿ فإمَّا يأتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قالَ ربِّ لِمَ حَشرتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَها وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى ﴾ (١).

□ ومن ذلك الآيتان الواردتان في سورة المائدة واللتان تصفان القرآن بأنه نور وأنَّ من اتبعه هدي إلى سبل السلام، وخرج من الظلمات إلى النور. يقول تعالى:

﴿ قَدْ جَاءكُمْ مِنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلمَاتِ إلى النُّورِ بإذنِهِ وَيهدِيهم إلى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ ﴾ (٢).

□ ومن ذلك الآيتان الواردتان في أول سورة ابراهيم وهما قوله تعالى:

﴿ الَر. كِتابٌ أنزلْنَاهُ إليكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميدِ. اللهِ الَّذِي لَهُ مَا في السَّمَواتِ ومَا في الأرْضِ ﴾ (٣).

□ وختم هذه المقدمة بالاستشهاد بالآيتين الأخيرتين من سورة الشورى وهما قوله تعالى:

﴿ وَكَذلكَ أوحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أمرِنا. مَا كُنت تَدْرِي مَا الكِتَابُ ولا الإيمَانُ ولَكِن جَعَلنَاهُ نُوراً نَهدِي بِهِ مَن نَشاء مِنْ عَبَادِنا وإنَّكَ لَتَهْدِي إلَى صَراطٍ مُستَقِيمٍ. صِراطِ الله الَّذي لَهُ مَا في السَّمواتِ وَما في الأرضِ. ألاَ إلَى الله تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (٤).

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٣-١٢٦.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٥-١٦.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ١-٢.
(٤) سورة الشورى: الآية ٥٢-٥٣.

ثم ذكر أمرين يتصلان بوصف رسالته هذه التي كتبها في أصول التفسير. وهذان الأمران هما:

١ ــ أن هذه الرسالة طابعها هو الاختصار.

٢ ــ أن هذه الرسالة أملاها من فؤاده، ويبدو أنه لم تكن عنده مراجع يستطيع أن يرجع إليها ينقل نصوصها من هاتيك المراجع.

يقول:

[وقد كتبت هذه المقدمة مختصرة بحسب تيسير الله تعالى من إملاء الفؤاد والله الهادي إلى سبيل الرشاد].

وهاتان الصفتان تدلان على علم ابن تيمية واستحضاره للنصوص وقدرته على أن يوجز القول المعبر في العلم فيأتي على أهم ما يحتاج إليه طالب العلم.

تدبّر القرآن وكيفية دراسته والعمل به:

يبدأ ابن تيمية رسالته القيمة في أصول التفسير بفصل يعالج موضوعاً مهماً من موضوعات هذا العلم وهو (تدبّر القرآن وكيفية دراسته).

وينبه إلى أن تدبّر القرآن ودراسته ينبغي أن تختلف عن دراسة غيره من الكتب البشرية، ذلك لأنّ هذا الكتاب إنما أنزل ليعمل به الناس وليحكم حياة المسلمين. والعمل به مفتقر إلى فهمه وتدبره.

وذكر ابن تيمية ــ رحمه الله ــ أنَّ السلف الصالح كانوا يسيرون على هذا المنهج: كانوا يتدبرون القرآن ويفهمونه مستعينين بتبيين النبي ﷺ الذي بيّن لفظه ومعناه لهم، وأنهم كانوا يعملون به.. وأورد تلك الآثار المشهورة.. من أن الصحابة من أمثال عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيرهما كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات يتوقفون فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يعملوا، فتعلموا القرآن علماً وعملاً جميعاً.

وهذا يفسر لنا الأخبار التي تذكر بقاء أحدهم مدة طويلة في حفظ سورة من سوره فابن عمر رضي الله عنه يبقى ثمان سنين في حفظ سورة البقرة.

إنَّ الشخص العاديّ في الحفظ يستطيع أن يحفظ هذه السورة في ثلاثة أشهر بكل يُسر وسهولة. وليس بقاء ابن عمر تلك المدة قصوراً في قدرته على الحفظ، ولكنه كان يسلك منهج الصحابة في التعامل مع القرآن ودراسته.. المنهج الذي يقرن الحفظ بالعمل والتطبيق.

إذن طريقة الصحابة هذه هي الطريقة المثلى في حفظ القرآن ودراسته، وهذا المعنى انتبه إليه من المؤلفين المعاصرين الأستاذ سيد قطب رحمه الله عندما قرر أن المسلمين في الأزمان المتأخرة انحرفوا في دراسة القرآن، وذلك عندما صاروا يدرسونه على أنه كتاب ثقافة ولم يدرسوه على أنه أوامر للتنفيذ.. وقد بسط هذه الفكرة في مواضع من كتابه «معالم في الطريق» و «في ظلال القرآن».

قال ابن تيمية: [يجب أن يعلم أنَّ النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن، كما بيّن لهم ألفاظه فقوله تعالى: ﴿ لِتبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ﴾ يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي[(١)]: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا. وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين. قيل: ثمان سنين. ذكره مالك][(٢)].

والتدبر لما يقرأ أمر طبيعي في كل كتاب يريد قارئه الانتفاع منه، وقد ضرب المؤلف على ذلك مثلاً: إنسان يقرأ كتاباً في الطب أو في الحساب. ما فائدة قراءته إذا لم يفهمه وإذا لم يطلب شرحاً لما عسر فهمه عليه في هذا الكتاب؟

إنَّ قراءة شيء وعدم محاولة فهمه أمر غير طبيعي في حياة الناس العادية. فما القول إذا كان هذا الكتاب من الله رب العالمين، أنزله ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر ص ٩ وص ٣٤ وص ٦٨.

(٢) مقدمة ٣٥-٣٦.

قال ابن تيمية: [وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿ كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدَّبَّروا آياتِهِ ﴾ [1] وقال: ﴿ أفَلا يتدبَّرُونَ القُرآنَ ﴾ [2] وقال: ﴿ أفَلَمْ يَدَّبَّروا القَوْلَ ﴾ [3] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن. وكذلك قال تعالى: ﴿ إنَّا أنزلناهُ قُرْآناً عَربيّاً لعلكُم تَعْقِلُونَ ﴾ [4] وعقل الكلام متضمن لفهمه.

ومن المعلوم أنَّ كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك. وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم].

أجل.. هذا أمر طبيعي جداً لكن المسلمين في العصور التي تلت عصر الصحابة لم يقوموا بهذا التدبر، ولعلّ السبب الأهم في هذا هو أنهم تركوا منهج الصحابة في قرن العلم بالعمل، بل أصبح من يدرس القرآن منهم يدرسه على أنه كتاب ثقافة فيها الفقه والنحو والكلام وما إلى ذلك.. وما كل الناس مستعدون لدراسة هذه العلوم ولم يُطلب من الناس كلهم ذلك. بينما نزل القرآن للعمل، ومطلوب من الناس كلهم أن يعملوا به. وساعد على ترك التدبر أمران:

أولهما: اشتغال الجم الغفير من الناس بالاستكثار من تلاوته عن التدبر لأنّ هذا القرآن ـ كما ورد في أحاديث صحيحة عدة ـ يتعبد بتلاوته، وقد ورد أنّ لقارئه بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها [5]. وهذا لا يمنع التدبر بل إن العبادة تزداد حسناً وكمالاً إذا جمع العابدُ إليها تدبر ما يردد من ألفاظ فيها.

والأمر الثاني: فساد سليقة المولدين، وعجمة كثير من الذين دخلوا الإسلام،

---

(١) سورة ص: الآية ٢٩.
(٢) سورة النساء: الآية ٢٨ ومحمد: الآية ٢٤.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٦٨.
(٤) سورة يوسف: الآية ٢.
(٥) حديث صحيح رواه الترمذي عن ابن مسعود (انظر: رياض الصالحين ط المكتب الاسلامي رقم ١٠٠٦).

فهؤلاء وأولئك لا يفهمون معنى القرآن الذي يقرؤون، وهم يريدون الحصول على الثواب في قراءة القرآن.

من أجل دلك غاب هذا التدبر إلا قليلاً في واقع سواد المسلمين في قراءتهم للقرآن. وعلاج هذا الواقع هو أن نعود إلى المنهج السليم في التعامل مع هذا الكتاب الكريم. والعجيب في أمر هذا التدبر أن القرآن الكريم ميسر ليفهمه الناس على مختلف مستوياتهم، إنَّه يفتح خزائنه لكلِ من يقبل عليه فيأخذ كل منهم بحسب مستواه وقدرته، فالبدوي والعالم النِّحرير يفهم كل منهما على حسب طاقته وإمكاناته.

الخلاف بين الصحابة والتابعين في التفسير قليل:

ثم أشار ابن تيمية إلى أمر قد يغيب عن أذهان كثير من طلبة العلم: وهو أن الخلاف بين الصحابة في التفسير قليل جداً.. وهو أيضاً في التابعين قليل وإن كان أكثر منه الصحابة.. ثم قرر قاعدة جليلة وهي: أن العصر عندما يكون شريفاً يكون الاجتماع والائتلاف قال: [ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر].

وإننا لنرى مصداق هذا في العصور النكدة التي ساء فيها واقع المسلمين كيف أن الخلاف يمزقهم في كل شيء، ولو أنهم تدبروا كتاب الله واجتمعوا عليه لقلَّ بينهم الخلاف.

وتحدث ابن تيمية رحمه الله في هذا الفصل أيضاً عن التابعين وأنّ منهم من تلقى تفسير القرآن كله عن الصحابة، وخصّ بالذكر مجاهداً وأثنى عليه ثناء كبيراً، فلقد نقل عنه قوله أنه قرأ القرآن كله مفسراً على ابن عباس، وأنه كان يستوقفه عند كل آية من آيات الكتاب يسأله عن كل شيء يتصل بالآية، وأورد كلمة الثوري في الثناء على مجاهد، وذكر أن أئمة العلم الموثوقين كالشافعي والبخاري وأحمد يعتمدون على مجاهد في التفسير.

قال: [ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة. كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس: أوقفه عند كل آية وأسأله عنها. ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير، يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره].

نوعا تفسير التابعين: المنقول والمستنبط:

وختم هذا الفصل بأن تفسير التابعين على نوعين:

- نوع نقله هؤلاء التابعون عن الصحابة.
- ونوع توصل إليه هؤلاء التابعون عن طريق الاستنباط والاستدلال.

وعقب على ذلك بأن صنيع هؤلاء التابعين في التفسير كان أيضاً في السنّة فقد كان لهم استنباط واستنتاج فيها.

اختلاف السلف في التفسير:

لقد قرر ابن تيمية حقيقة يغفل عنها بعض الباحثين، وسبب الغفلة أنهم يكبرون حجم القضية المطروحة وهذه القضية اختلاف الصحابة والتابعين في تفسير القرآن.

هناك اختلاف في تفسيرهم، ولكنه اختلاف محدود لا يكاد يذكر، غير أنَّ الجاهلين يحسبون هذا القليل كثيراً. وسبب هذا الوهم عدم التروي وعدم النظرِ في أقوالهم التي نقلت في تفسير القرآن، فقد يفسر عدد من الصحابة وعلماء السلف الآية بأقوال متعددة، فيحسبها المتسرع في الحكم اختلافاً، مع أنها متقاربة والخلاف في التعبير واللفظ.

وقد أشبع ابن تيمية هذا الموضوع بحثاً في هذا الفصل، ونحن سننقل ما أورده مع محاولتنا عَرْضَه بما نستطيع من التسهيل والتقريب.

قال رحمه الله:

[الخلاف بين السلف في التفسير قليل. وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير]. وهذه ملاحظة هامة جداً ينبغي أن يتنبه لها طلبة العلم، والنظرُ فيما رُوي عن السلفِ يؤكدّ هذه الملاحظة، ذلك أننا قد نجد للسلف في مسألة فقهية واحدة أقوالاً عدة، والخلاف فيما بينهم خلاف حقيقي، كأن يرى بعضهم جواز أمر ما، ويرى بعضهم حرمته. أو يرى بعضهم أن هذا الأمر أفضل، ويرى بعضهم أنَّ غيره أفضل...

أما خلافهم في التفسير إن وُجد فهو في الغالب خلاف ظاهري، وقد عبَّر عنه ابن تيمية بأنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضادّ، قال رحمه الله:

[وغالب ما يصحّ عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضادّ].

ومن ينظر في أقوال السلف التي نقلها ابن جرير يجدْ مصداق هذا القول، فبعد أن يورد أقوالهم تراه يجمعُها في وصفٍ عامٍّ يشملها كُلَّها.. وهذا كثير في كتابه.

وقد حَصَر ابنُ تيمية خلافَ السلفِ في التفسيرِ بنوعين فقال:

[وذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبّر كل واحد منهما عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدلُّ على معنى في المسمّى غير المعنى الآخر، مع اتحاد المسمّى، بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة] أقول: وفي هذه الجملة حسّ لغوي دقيق جداً إذ من الألفاظ ما يكون متبايناً وَأَدْخَلُ ما يَدْخُلُ فيه الأضدادُ. قال ابن فارس في فقه اللغة: [من سنن العرب في الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد نحو (الجون) للأسود، و (الجون) للأبيض] (1).

---

(1) نقلاً عن «المزهر» للسيوطي ٣٨٧/١.

ومنها ما يكون مترادفاً وهو كما قال الإمام فخر الدين: [هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد][1].

وهناك ما يكون بين هذا وذاك وسمّاه متكافئاً، وقد رأيت السيوطي في «المزهر» ينقل هذا القول يعزوه إلى بعض المتأخرين، جاء في المزهر [قال بعض المتأخرين: وينبغي أن يكون هذا قسماً آخر وسماه المتكافئة. قال: وأسماء الله تعالى وأسماء رسوله ﷺ من هذا النوع...][2].

وضَرَبَ ابن تيمية مثلاً على هذا كلمات (السيف والصارم والمهند) فقال:

[كما قيل في اسم السيف الصارم والمهند. وذلك مثل أسماء الله الحسنى وأسماء رسوله ﷺ وأسماء القرآن].

ولا بُدَّ من وقفة يسيرة نبسط فيها هذا الكلام:

إذا أردنا أن نشرح كلمتي الصارم والمهند قلنا: إنهما تعنيان السيف.

والحقيقة أن كلمة (الصارم) صفة في السيف تدل على أنه قاطع، وكلمة (المهند) تدل على أن السيف مصنوع مطبوع من حديد الهند، ولكن كلاً منهما تدل على مسمّى واحد وهو السيف. وبناء على هذا فلو فسّر مفسر السيف بأنه صارم وفسّره آخر بأنه مهند لم يكن بين هذين التفسيرين اختلاف تضاد بل كان بينهما اختلاف في التعبير، وكان مع هذا الاختلاف فرق يسير في الدلالة الزائدة على تعيين الذات، فعندما أقول: السيف هو الصارم؛ أكون قد دللت على الذات وهي السيف، ودللت على صفة من صفات السيف وهي أنه قاطع. وكذلك عندما أقول السيف هو المهند؛ أكون قد دللت على الذات وهي السيف ودللت على صفة أخرى من صفات السيف وهي أنه مصنوع مطبوع من حديد الهند. إذن فالاختلاف كما ترى ليس اختلاف تضاد، وليس هو كالاختلاف في الأحكام الفقهية، فمثلاً المطلقة طلاقاً بائناً هل لها نفقة وسكنى أم لا نفقه لها ولا سكنى؟

(١) نقلاً عن «المزهر» للسيوطي ١/٤٠٢.

(٢) انظر «المزهر» ١/٤٠٥.

فذهب بعض الصحابة والعلماء إلى أنَّ لها النفقة وذهب آخرون من الصحابة والعلماء إلى أنه ليس لها شيء من ذلك (١). هذا اختلاف حقيقي وليس اختلافاً ظاهرياً. وسيتضح الأمر أكثر عند إيراد الأمثلة بعد قليل.

أما **الصنف الثاني** من الخلاف بين السلف فقد عبَّر عنه ابن تيمية بما يأتي قال:

[الصنف الثاني: أن يذكر كلٌّ منهم من الاسم العامّ بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحدّ المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه.

مثل سائل أعجمي سأل عن مسمّى لفظ الخبز.
فأري رغيفاً وقيل له: هذا.

فالإشارة إلى نوع هذا، لا إلى هذا الرغيف وحده].

وهذا واضح. إذن فالخلاف في التفسير بين السلف:

□ إما أن يعبّر كل واحد منهما عن المراد بعبارة غير صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى.

□ وإما أن يذكر كل منهما من الاسم بعض أنواعه على سبيل التمثيل.

وقد ضرب المؤلف أمثلة عامة على كل صنف ثم أورد أمثلة خاصة من القرآن. ولننظر في بعض الأمثلة التي أوردها على الصنف الأول.

□ أورد عدداً من أسماء الله الحسنى فقال:

[.. فإنَّ أسماء الله كلها تدلّ على مسمًّى واحد. فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر. بل الأمر كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادعُوا الله

(١) انظر «نيل الأوطار» ٦/٣٢٠ وما بعدها.

أَوِ ادْعُوا الرحمنَ. أيّاً ما تدعُوا فَلَهُ الأسماء الحسنى ﴾[1] وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسّماة وعلى الصفة التي تضمنها الاسم، كالعليم، يدل على الذات والعلم، والقدير يدل على الذات والقدرة والرحيم يدل على الذات والرحمة].

إنّ كلّ هذه الأسماء تدل على ذات الله تبارك وتعالى، وهي مع دلالتها على ذاته سبحانه تدل على صفة من صفاته الحسنى.. إذن فهذه الأسماء مختلفة في اللفظ وإن كانت مشتركة في الدلالة على الذات. ويختلف كل اسمٍ عن الاسم الآخر في أنه يدل على صفة بالاضافة إلى الذات من صفات الله الحسنى.

قال ابن تيمية بعد أن استطرد استطراداً قصيراً وذلك عندما ذكر أنَّ من أنكر دلالة أسماء الله على صفاته ممّن يدعي الظاهر أنَّ قوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة.

ولا نريد أن ندخل في هذا الاستطراد النافع لأنه يخرج بنا عن حدود موضوعنا في أصول التفسير.. قال: [وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الاسم من صفاته، ويدل أيضاً على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم].

ومعنى هذا أن كلمة (القدير) مثلاً تدل على الذات وعلى القدرة وتدل أيضاً على الصفة التي توجد في (العليم) مثلاً وهي العلم بطريق اللزوم، لأن الله القدير يلزم من قدرته العلم... وهكذا.

ومن الأمثلة على النوع الأول أي الذي يكون سببه تعبير كل من أولئك السلف بعبارة غير عبارة صاحبة تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمّى من الأمثلة عليه من القرآن قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإِنَّ لَهُ معيشةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامةِ

(١) سورة الاسراء: الآية ١١٠.

أعمى ﴾ (١) وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ أنَّ الذكر ههنا هو القرآن، سواء قيل: (ذكري) أو (كتابي) أو (هداي) أو نحو ذلك، فإنَّ المسمّى واحد وهو كلامه المنزل.

إذن فالمفسرون إذا اختلفوا في شرح كلمة (ذكري) على النحو الذي أوردناه آنفاً كان اختلافهم لفظياً بسبب التعبير الذي يشير إلى ناحية والمسمّى واحد.

وتفسير (ذكري) بالقرآن هو التفسير الراجح، وهناك تأويل مرجوح، وهو أن يكون معنى (ذكري) أي ذكر الله مثل قول القائل (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ولكن المراد من الآية بالذكر هو الكلام المنزل من عند الله سبحانه، يدل على هذا النظر في سياق الآية. ولنقرأ الآية مع ما سبقها ومع ما جاء بعدها. يقول الله تعالى: ﴿ .. وَعَصَى آدم ربَّه فَغَوَى. ثم اجتباهُ رَبُّهُ فتابَ عليه وَهَدَى. قال اهبطا مِنْها جميعاً بعضُكم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فإمَّا يأتينَّكم مِنّي هُدَىً فمن اتَّبع هُدَايَ فلا يَضِلُّ ولا يشقى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري فإنَّ لَهُ معيشةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامةِ أعْمى. قالَ ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعْمى وَقَد كُنْتُ بَصيراً. قَالَ كذلكَ أَتَتْكَ آياتُنَا فنسيتَها وَكذلِكَ اليومَ تُنْسى. وَكَذلِكَ نَجْزي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤمِنْ بآياتِ ربِّهِ وَلعَذابُ الآخرةِ أشدُّ وَأبْقى ﴾ (٢).

وهكذا يدل هذا السياق على أن المراد بالذكر في قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري ﴾ القرآن بدليل قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿ فإمَّا يَأتينَّكُم مِنِّي هُدَىً فَمنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴾ وهدى الله هو ما أنزله من الذكر.

وبدليل قوله تعالى بعد الآية: ﴿ قَالَ كذلكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنْسى وكذلكَ نَجْزي مَنْ أسرفَ وَلَمْ يُؤمنْ بآياتِ رَبِّهِ ﴾.

إن صنيع ابن تيمية في هذا الترجيح يلفت نظرنا إلى قاعدة مهمة من قواعد أصول التفسير.

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٢) سورة طه: الآية ١٢١-١٢٧.

وهذه القاعدة هي ضرورة الرجوع إلى السياق والاحتكام في التفسير إلى مجموع الآيات الذي ضم هذه الآية المراد تفسيرها، ذلك لأن قطع الآية عن سياقها وسباقها يوقع في الغلط والانحراف.

لا يجوز أن تُقطع الآية عن وسطها الذي وردت فيه ثم تشرح.. إنَّ ذلك أمر خطير جداً يؤدي إلى أسوأ النتائج في كثير من الأحيان.

هل نستطيع أن نفسر قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ للمصلّين﴾ مقطوعة عن سياقها وما بعدها؟

إنّه لا بد في فهم أي آية من آيات القرآن من قراءة ما قبلها وما بعدها ليتبيَّن المعنى الحق منها.

هذا وإنَّ بعض الفرق الضالة تعمد أحياناً إلى تفسير الآية مبتورة عمّا قبلها وعما بعدها لتأخذ منها دليلاً يدعم ضلالها ويؤيد انحرافها.. إنَّ هذا من تحريف الكلم عن مواضعه ومن العبث بكتاب الله تبارك وتعالى.

إنَّ من أهم ما ينبغي للمفسر أن يفعله قراءة الآية بتأنٍّ وإمعان، في موضعها من السورة. وهناك أمثلة كثيرة على الانحراف في فهم الآية عندما لا نراعي هذه القاعدة الأصولية الهامة[1].

وناقش ابن تيمية القول المرجوح الذي فسرت به الآية وهو أنَّ المراد بذكر الله نحو قول القائل: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله..) وما إلى ذلك.. فأشار إلى أن كلمة (الذكر) مصدر. والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة يضاف إلى المفعول، والذي يحدد طبيعة الإضافة هو السياق.

---

(١) من ذلك آية النساء ﴿فانكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النساء مَثْنى وثلاثَ ورُباعَ﴾ إذ يطرح بعض الطلبة سؤالاً حول الآية قائلين: أيها الأصل في الزواج التعدد أم الاقتصار على واحدة. ويغفلون عن السياق الذي وردت فيه الآية.. إنَّ الآية وردت بشأن العدل في اليتامى، فإن خاف ولي اليتيمة ألا يعدل فيها لو تزوجها، فليتزوج غيرها ما شاء من النساء مثنى وثلاث ورباع. ويبقى حكم تعدد الزوجات جائزاً مباحاً، مثله مثل الاقتصار على واحدة. ويعود الأمر إلى الرجل الذي ينظر في مصلحته وحاجته.

فإذا قيل: إن المصدر (ذكري) ههنا أضيف إلى المفعول، كان المراد: ومن أعرض عن ذكري من تسبيح وتكبير وحمد وتهليل فإنَّ له معيشة ضنكا. وهذا المعنى لا يؤيده السياق كما بيّنا.

وإذا قيل: إن المصدر (ذكري) ههنا أضيف إلى الفاعل؛ كان المراد: ومن أعرض عن كلامي والذكر الذي أنزلته على رسولي فإنَّ له معيشة ضنكا. وهذا هو المعنى المراد.

إنَّ مُراد السائل عن معنى (ذكري) معرفة تعيين المسمّى ما هو؟ أي ما المراد بالذكر في الآية. والجواب أن نقول: هو القرآن، أو هدى الله، أو كتاب الله، أو كلام الله المنزل، أو الفرقان... أي إن أي كلمة من هذه الكلمات تصلح في الجواب، لأنها تقع تعييناً للمسمّى. والله أعلم.

لنقف أمام هذه الآية الكريمة وقفة تأمل، ننظر ونحن في ظلالها واقعنا في عصرنا ألا نرى معناها قائماً مجسداً في واقع المسلمين اليوم؟

إنَّ هناك في المسلمين قوماً غُرِّرَ بهم فأعرضوا عن ذكر الله وهدايته، وتنكروا لشريعته السمحاء التي جاءت بما يصلح أحوالهم الدنيوية والأخروية، ورفعوا شعارات مستوردة تدعو لأفكار هدامة، فكان عاقبة أمرهم أنهم يعيشون عيشة قائمة على الضنك والشدة والعسف والشقاء في كل جوانب الحياة. سواء أكانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو فكرية.

إنهم يعانون من الضعف والتأخر، والفقر والتخلف، والجهل والمرض، في معظم شؤون الحياة.

وإنَّ متابعة أحداث واقعهم لتدلنا على ذلك بكل جلاء ووضوح.

وإنَّ سبيل الخلاص من هذا الضنك هو التوجه إلى الله، والاقبال على هداية الله والاستمساك بحبل الله.

فإذا أردتم العزة في الدنيا، والبحبوحة في الرزق، والطمأنينة في العيش فما عليكم إلا أن تستمسكوا بهدي الله وذكره الحكيم، وتحكّموا كتابه الكريم في شؤون حياتكم.. إنكم والله إن فعلتم ذلك كنتم من الفائزين السعداء في الدنيا والآخرة إنَّ الذي لا يتعظ بما مرَّ معه وبما شاهده في أمته ينزل عن رتبة الإنسان. إن المآسي التي مرت علينا يجب أن تقنعنا بعد أن جرَّبنا ألواناً من المبادىء بأن طريق الخلاص هو العودة إلى كتاب الله ودينه الذي حوَّلنا في يوم من أيام التاريخ المشرقة إلى أن نكون سادة العالم وقادة الدنيا إلى البر والخير وهداتها إلى سبيل الرشاد.

ورحم الله القائل: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ألا وهو الدين ورضي الله عن عمر بن الخطاب الذي يقول: نحن العرب قوم أعزنا الله بالاسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

ولنقبل على كتاب الله عاملين نحل حلاله ونحرم حرامه يَزُلْ ما بنا من ضنك ونفز برضوان الله.

﴿ إنَّ في ذلكَ لذِكرى لِمَن كانَ له قلبٌ أوْ ألقى السمعَ وَهُوَ شهيدٌ ﴾.

من مسائل أصول التفسير فهم حقيقة الخلاف في تفسير القرآن بين السلف؛ لأنَّ هذه قضيّة هامة لها أكبر الأثر في تفسير كلام الله تعالى. وقد بيَّنا أن خلاف الصحابة خاصة والسلف عامة في التفسير قليل، وأن معظم ما نقل إلينا منه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، أو بعبارة أخرى: إنَّ مآل كثير من أقوال السلف التي تبدو أول الأمر أنها أقوال متعددة مآلها إلى معنى واحد، كل واحد منهم عبَّر عن هذا المعنى بعبارة تدل على معنى في الآية غير المعنى الآخر.

وقد يسأل سائل عن مسمّى اسم في القرآن، فعندئذ تكون الإجابة مجدية ومحققة للمطلوب بذكر أي صفة من صفات هذا الاسم أو بذكر المسمّى نفسه.

أما إذا كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به فلا يكفي

أن يذكر المسمّى، بل لا بد من قدر زائد على تعيين المسمّى، وهذا القدر هو ذكر الصفة الواردة في هذا الاسم.

وضرب ابن تيمية رحمه الله على ذلك مثلاً أن يسأل سائل عن (القدوس السلام المؤمن) والسائل يعرف أن القدوس هو الله وكذلك السلام والمؤمن.. إذن فلو قلنا في جوابه إن المراد بالقدوس والسلام والمؤمن هو الله لم يكن الجواب كافياً، لأنه لا يسأل عن تعيين المسمّى.. بل يسأل عن الصفة التي تضمنها هذا الاسم. وهذه الأسماء الحسنى واردة في قوله تعالى من سورة الحشر: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾ (١).

لا بد من أن يتضمن جوابه شرحاً لهذه الكلمات على النحو الآتي بعد قليل.

وفهم أسماء الله الحسنى وصفاته العلى من الأمور التي تدخل في صميم العقيدة وفي التوحيد. وقد عني علماء الاسلام ودعاته بتوضيح هذه الأمور أيما عناية في كتبهم ورسائلهم وفتاواهم وخطبهم... وعلى علماء المسلمين المعاصرين أن يتابعوا هذه المهمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

قال ابن تيمية:

[وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصّة به، فلا بدّ من قدر زائد على تعيين المسمّى مثل أن يسأل عن (القدوس السلام المؤمن) وقد علم أنه الله، لكن مراده: ما معنى كونه قدوساً سلاماً مؤمناً؟ ونحو ذلك. إذا عرف هذا فالسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمّى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر كمن يقول... والقدوس هو الغفور الرحيم. أي إنَّ المسمّى واحد، لا أن هذه الصفة هي هذه.

ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد، كما يظنه بعض الناس] (٢).

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ٤٠-٤١.

ولننظر في هذه الآيات نظرة سريعة متأملة وهي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَهُ خَاشِعاً متصدعاً مِنْ خشيةِ الله ﴾ [إنَّ لهذا القرآن لثقلاً وسلطاناً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته]. ومن صفات المؤمنين أنهم إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً قال تعالى: ﴿ إنَّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكر الله وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زَادتْهم إيماناً وعَلى ربِّهم يَتوكلُونَ ﴾ (١). ومن صفات الأنبياء أنهم إذا تليت آيات الله خروا سجداً وبكياً قال تعالى: ﴿ أولئكَ الذينَ أنعمَ الله عليهمْ من النبيِّينَ من ذريَّةِ آدمَ وممَّنْ حمَلْنَا مَعَ نوح ومن ذريةِ إبراهيمَ واسرائيلَ وممَّنْ هدينا واجتبيْنا إذا تُتلى عليهم آياتُ الرحمنِ خرُّوا سُجَّداً وبُكيّاً ﴾ (٢). ومن صفات الذين أوتوا العلم هذا التأثر بالقرآن قال تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ أوتُوا العلمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً ويقولونَ سُبْحانَ ربِّنا إنْ كانَ وعدُ ربِّنا لَمفعولاً ويَخِرُّون للأذقانِ يبكونَ ويزيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (٣) وقد مثّل الله للمؤمنين في هذه الآيات بأن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيت الجبل خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

ثم جاءت هذه الآيات المبدوءة بقوله (هو الله) وملئت بأسماء الله الحسنى.

يقول الأستاذ سيد قطب:

[ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر في هذا الكون ملحوظ، وأثر في حياة البشر ملموس فهي توحي إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات. فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء. وليست هي صفات سلبية أو منعزلة عن كيان هذا الوجود وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده] (٤).

وتتكرر كلمة التوحيد في مطلع الآيتين:

هو الله الذي لا إله إلا هو... ثم تتالت الأسماء الحسنى.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٢) سورة مريم: الآية ٥٨.

(٣) سورة الاسراء: الآية ١٠٧.

(٤) في ظلال القرآن ج ٢٨ ص ٤٩.

ولننظر في معاني هذه الأسماء الحسنى:

□ أما القدوس فمأخوذة هذه الكلمة من (القدس) وهو الطهارة والتنزيه. جاء في «مختار الصحاح»: [وقُدوس بالضم اسم من أسماء الله تعالى، وهو فُعُّول من القدس وهو الطهارة. وكان سيبويه يقول: قَدُّوس وسَبُّوح، بفتح أوائلها.. وقال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول، مثل سَفود وكلوب وسمور وشبوط وتنور، إلا السبوح والقدوس، فإنَّ الضمَّ فيها أكثر، وقد يفتحان وكذلك الذُّروح. وقد يفتح] والذُّروح: دويبة حمراء منقطة بسواد، والجمع ذراريح.

وجاء في «تفسير ابن كثير»:

[وقوله تعالى (القدوس) قال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال مجاهد وقتادة: أي المبارك. وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام] (١).

قلت: وقد تدل هذه الصيغة على المبالغة في الطهارة والنزاهة عن النقائص.

□ وأما السلام فقد جاء في «المفردات» للراغب الأصفهاني:

[قيل: وصف بذلك من حيث لا تلحقه العيوب والآفات التي تلحق الخلق] (٢).

وجاء في «تفسير ابن كثير»:

[السلام أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله] (٣).

وقال صاحب كلمات القرآن: [ذو السلامة من كل عيب].

□ وأما المؤمن فقد جاء في «تفسير ابن كثير»:

[قال الضحّاك عن ابن عبّاس: أي أمن خلقَه من أن يظلمهم. وقال قتادة: آمن بقوله أنه حق. وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به] (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٤٣/٤.
(٢) المفردات للراغب الأصبهاني.
(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٣/٤.

وقال صاحب كلمات القرآن: المصدق لرسله بالمعجزات.

* * *

وضرب المؤلف مثلاً آخر على اختلاف السلف الاختلاف اللفظي الظاهري في تفسير القرآن، ذاك الاختلاف الذي هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وهذا المثل هو قوله تعالى: ﴿الصراط المستقيم﴾. وهذه الكلمة وردت في القرآن في مواضع نذكرها هنا.

□ وردت في سورة الفاتحة التي يقرؤها المسلم في يومه الواحد مرات لا تقل عن سبع عشرة مرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصراطَ المستقيمَ﴾. ووردت في سورة البقرة في موضعين وهما قوله تعالى: ﴿يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ﴾ [(١)] وقوله تعالى: ﴿والله يَهْدي من يشاء إلى صراط مستقيمٍ﴾ [(٢)].

□ ووردت في سورة آل عمران في موضعين هما قوله تعالى: ﴿إنَّ الله ربي وربُّكم فاعبدوهُ هذا صراط مستقيمٌ﴾ [(٣)] وقوله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بالله فَقَدْ هُدِيَ إلى صراط مستقيمٍ﴾ [(٤)].

□ ووردت في سورة النساء في موضعين هما قوله تعالى: ﴿ولَهَدَيْنَاهُمْ صِراطاً مُسْتقيماً﴾ [(٥)] وقوله: ﴿فَأمَّا الذينَ آمنُوا بالله واعتصمُوا به فَسَيُدْخِلُهُمْ في رَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ ويَهْدِيهم إليه صِراطاً مُسْتقيماً﴾ [(٦)].

□ ووردت في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُمْ مِنَ الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾ [(٧)].

□ ووردت في سورة الأنعام في خمسة مواضع هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأ

---

(١) (٢) سورة البقرة: الآية ١٤٢، ٢١٣.
(٣) (٤) سورة آل عمران: الآية ٥١، ١٠١.
(٥) (٦) سورة النساء: الآية ٦٨، ١٧٥.
(٧) سورة المائدة: الآية ١٦.

يَجْعَلْهُ على صراطٍ مستقيمٍ ﴾[١] وقوله تعالى عن أنبيائه ورسله: ﴿واجتبيناهُمْ وهديناهُمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾[١] وقوله: ﴿ وهذا صراط رَبِّك مستقيماً ﴾[١] وقوله: ﴿وأنَّ هَذا صِرَاطي مُسْتقيماً فاتَّبِعُوهُ ﴾[١] وقوله: ﴿ قُلْ إنَّني هداني ربِّي إلى صراطٍ مستقيمٍ ديناً قِيَماً ملةَ إبراهيمَ حنيفاً ﴾[١].

□ ووردت في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِما أَغْوَيْتَني لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيمَ ﴾[٢].

□ ووردت في سورة يونس في قوله: ﴿ والله يَدْعُو إلى دارِ السلامِ وَيَهْدي مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾[٣].

□ ووردت في سورة هود في قوله: ﴿ إنَّ رَبّي على صراطٍ مستقيمٍ ﴾[٤].

□ ووردت في سورة الحجر في قوله: ﴿ قَالَ هذا صراط عليَّ مستقيمٌ ﴾[٥].

□ ووردت في سورة النحل في موضعين في قوله: ﴿ وَضَربَ الله مثلاً: رجلينِ: أحدُهما أبكمُ لا يقدِرُ على شيء وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاَهُ أيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يأتِ بخيرٍ هل يَسْتوي هُوَ ومَنْ يأمرُ بالعدلِ وَهُوَ على صراطٍ مُسْتقيمٍ ﴾[٦]. وقوله سبحانه: ﴿ إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قَانتاً لله حَنيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركينَ شاكراً لأنعمِهِ اجتباهُ وهَداهُ إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾[٦].

□ ووردت في سورة مريم في قوله: ﴿ وإنَّ الله ربِّي وربُّكم فاعْبُدوهُ هذا صراط مستقيمٌ ﴾[٧].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٩، ٨٧، ١٢٦، ١٥٣، ١٦١.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦.
(٣) سورة يونس: الآية ٢٥.
(٤) سورة هود: الآية ٥٦.
(٥) سورة الحجر: الآية ٤١.
(٦) سورة النحل: الآية ٧٦، ١٢٠-١٢١.
(٧) سورة مريم: الآية ٣٦.

□ ووردت في سورة الحج في قوله: ﴿وإنَّ الله لهادِ الذينَ آمنُوا إلى صراط مُستقيمٍ﴾[1].

□ ووردت في سورة المؤمنون في قوله: ﴿وإنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إلى صراط مستقيم﴾[2].

□ ووردت في سورة النور في قوله: ﴿والله يَهْدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم﴾[3].

□ ووردت في سورة يس في قوله: ﴿إنَّك لَمِنَ المرسلينَ على صراط مستقيم﴾[4].

□ ووردت في سورة الصافات في قوله عن موسى وهارون: ﴿وهَدَيْنَاهُما الصراطَ المستقيمَ﴾[5].

□ ووردت في سورة الشورى في قوله: ﴿وكذلكَ أَوْحَيْنا إليكَ رُوحاً من أمرِنا ما كنتَ تَدْري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ولكن جعلناهُ نوراً نهدي به من نشاء من عبادِنا وإنك لَتَهْدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ ألا إلى الله تصيرُ الأمورُ﴾[6].

□ ووردت في سورة الزخرف في ثلاثة مواضع في قوله: ﴿فاستمسك بالذي أوحِيَ إليكَ إنَّكَ على صراط مستقيم﴾[7] وقوله سبحانه: ﴿وإنه[8] لَعِلْمٌ للساعة

(١) سورة الحج: الآية ٥٤.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧٣.
(٣) سورة النور: الآية ٤٦.
(٤) سورة يس: الآية ٤.
(٥) سورة الصافات: الآية ١١٨.
(٦) سورة الشورى: الآية ٥٢-٥٣ آخر السورة.
(٧) سورة الزخرف: الآية ٤٣، ٦١، ٦٤.
(٨) الضمير يعود على ابن مريم عليها السلام. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٣٢٥/٧ [وقرأ الجمهور (لَعِلْمٌ) بكسر العين وتسكين اللام؛ وقرأ ابن عباس وأبو رزين وأبو عبد الرحمن وقتادة وحميد وابن محيصن بفتحهما] وجاء في تفسير ابن كثير ١٣٢/٤: [قال مجاهد (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة].

فلا تمترُنّ بها واتّبعُون هذا صراط مستقيم ﴾[1] وقوله سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ إنَّ الله ربي وربكم فاعبدُوهُ هذا صراط مستقيم ﴾[1].

□ ووردت في سورة الفتح في موضعين في قوله: ﴿ لِيَغْفِر لَكَ الله ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ويَهْدِيَكَ صِراطاً مستقيماً ﴾[2] وقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ الله مغانمَ كثيرة تأخذُونَها، فعجَّلَ لكم هذهِ، وكَفَّ أيديَ الناسِ عنكم، ولتكونَ آيةً للمؤمنين ويهديَكم صراطاً مستقيماً ﴾[2].

□ ووردت في سورة الملك في قوله: ﴿ أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشي سَوِيّاً على صراط مستقيم ﴾[3] وقد وصف الصراط بأنه سويّ أيضاً. ومن النظر في هذه الآيات نجد أنّ أكثر هذه الآيات قرنت كلمة (الصراط المستقيم) بـ(الهداية) وأن الصراط في أكثرها هو دين الاسلام، ودين الاسلام عماده ومصدره القرآن كتاب الله العظيم.

قال ابن تيمية: ص ٤١-٤٢:

[ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد، كما يظنه بعض الناس، مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم. فقال بعضهم: هو القرآن، أي اتباعه لقول النبي ﷺ.][4] وأورد حديث عَليّ الذي فيه «هو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم» وهو حديث سبق أن قررنا أنه ضعيف جداً وإن كان أخرجه الترمذي والدارمي وأبو نعيم[5]. ثم قال: [وقال بعضهم: هو الاسلام

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٣، ٦١، ٦٤.
(٢) سورة الفتح: الآية ٢، ٢٠.
(٣) سورة الملك: الآية ٢٣.
(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ٤١-٤٢.
(٥) ما كنت أود أن يورده المؤلف على الصورة الآتية: (لقول النبي ﷺ في حديث علي الذي رواه الترمذي ورواه أبو نعيم من طرق متعددة...) فإيراده بهذه الصورة يوحي باعتماده وتحسينه. هذا والاستشهاد على المعنى الصحيح بحديث ضعيف قد يجور على المعنى عندما ينتقد الدليل منتقد، لا سيما عندما يزعم المستشهد أن الحديث قوي. والله أعلم.

لقوله ﷺ في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره «ضرب الله مثلاً: صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الانسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه. قال: فالصراط المستقيم هو الاسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن»] وهذا الحديث صحيح (١).

وقد اعتمد عليه من قال: إن الصراط المستقيم هو الاسلام، وذلك لقوله ﷺ: «فالصراط المستقيم هو الاسلام».

وهذا الذي يدل عليه النظر في سياق الآيات التي جاءت فيها كلمة (الصراط المستقيم) كما أوضحنا].

ثم قال:

[فهذان القولان (أي تفسير الصراط المستقيم بالقرآن والاسلام) متفقان؛ لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن. ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر. كما أن لفظ (صراط) يشعر بوصف ثالث

وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة.

وقول من قال هو طريق العبودية.

وقول من قال هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وأمثال ذلك.

فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة. لكن وَصَفَها كل منهم بصفة من صفاتها] (٢).

---

(١) أخرجه أحمد ١٨٢/٤ والترمذي ٣٥/٤ والحاكم ٧٣/١. وجاء في «صحيح الجامع الصغير» رقم ٣٧٨٢.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٢.

وهكذا يتضح لنا هذا المعنى أتم وضوح، وهو أن خلاف السلف في التفسير ليس خلاف تضاد. نعم قد يكون قول بعضهم مطرداً أكثر ينطبق على الحالات الأخرى. ولكنه على أية حال يبقى الخلاف أقرب ما يكون إلى الخلاف اللفظي والله أعلم.

هذا وإنَّ النظر في حديث النواس بن سمعان الذي مرَّ بنا آنفاً يبيّن لنا حقائق مهمة، ويحذرنا من الزلل والانحراف. وهو حديث جميل يقوم على التشبيه الموفق الرائع.

فالصراط المستقيم هو دين الإسلام العظيم، وهو الصراط الذي نسأل الله كل يوم مرات ومرات أن يهدينا إليه كلما وقفنا بين يديه في الصلاة وذلك عندما نقرأ ﴿ اهدِنَا الصراطَ المستقيمَ ﴾ والسوران اللذان يقعان على جنبتي الصراط هما حدود الله التي أمرنا الله في كتابه أن لا نقربها وألا نتعداها قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتعدَّ حُدودَ الله فأولئكَ هُمُ الظالمونَ ﴾[(٢)] وقال: ﴿ وَمَنْ يعصِ الله ورسولَهُ ويتعدَّ حُدودَه يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها وَلَهُ عذابٌ مُهينٌ ﴾[(٣)] وقال: ﴿ ومَنْ يتعدَّ حدودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[(٤)] وقال: ﴿ تلكَ حدودُ الله فلا تَقْرَبُوها ﴾[(٥)] وهذه الحدود واضحة المعالم، والعاقل من أخذ احتياطه فلم يقترب منها لأن من رعى حول الحمى أوشك أن يرتع فيه.

والأبواب المفتحة محارم الله عليها ستور مرخاة، من السهل على من أراد ولوجها أن يدخلها، وكان ذلك ليكون نهج العدالة في المجازاة جارياً في مجراه ﴿ قَدْ أفلحَ مَنْ زكَّاها وَقَدْ خابَ من دسَّاها ﴾ فمن دخل في هاتيك الأبواب وارتكب المحرمات فقد هلك.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.
(٢) سورة النساء: الآية ١٤.
(٣) سورة الطلاق: الآية ١.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

ولم يترك الله عباده نهباً للشهوات دون تنبيه وتحذير. بل لقد أقام لهم على رأس الطريق داعياً يأمرهم وينهاهم، وينبههم ويحذرهم، وهذا الداعي هو القرآن الكريم ينادي:

يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تتعوجوا أي لا تميلوا ذات اليمين ولا ذات الشمال فإن في الانحراف عن هذا الصراط الهلاك كما قال تعالى: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تتَّبعُوا السُّبلَ فتفرَّقَ بِكُمْ عَنْ سبيلِهِ. ذَلكُمْ وصَّاكُمْ بِهِ لعلكم تتقونَ﴾ (١).

جاء في شرح المناوي:

[إنما ضرب المثل بذلك زيادة في التوضيح والتقريب ليصير المعقول محسوساً، والمتخيَّلُ متحققاً، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهد، ليساعد فيه الوهمُ العقل، فإنَّ المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة الوهم، لأنّ طَبْعَهُ الميلُ إلى الحسّ وحبّ المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الالهية، وفشت في عبارات البلغاء... قال النووي: سرُّ هذا الحديث أنه أقام الصراط معنى للإسلام، وأقام الداعي معنى للكتاب، والداعي الآخر معنى للعظة في قلب كل مؤمن. فأنت على الصراط الدائم وهو الاسلام، وسامع النداء القائم وهو القرآن] (٢).

ومن ذلك خلافهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتابَ الذينَ اصطفَيْنَا مِنْ عِبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ ومِنهُمْ مقتصدٌ ومِنْهُمْ سابق بالخيراتِ﴾ (٣).

□ فالظالم لنفسه يتناول المضيِّعَ للواجبات والمنتهك للحرمات.

ولكننا نجد بعض السلف يشرح (الظالم لنفسه) بنوع من الأنواع المتعددة التي

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.
(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٤/٢٥٤.
(٣) سورة فاطر: الآية ٣٢.

تندرج تحت هذا المعنى المذكور؛ وقد عبر القرآن في موضع آخر عن الظالمين لأنفسهم بأنهم أصحاب الشمال.

فهناك من يشرحه قائلاً: الظالم لنفسه هو الذي يؤخر صلاة العصر إلى الاصفرار.

وهناك من يشرحه قائلاً: الظالم لنفسه هو آكل الربا، أو مانع الزكاة.

وكلٌّ من منع الزكاة وأكل الربا وتأخير الصلاة عن وقتها أنواع من الظلم للنفس، وكل من هؤلاء إما مضيّع لواجب وإما منتهك لحرمة من حرمات الله.

وليست هذه التفسيرات متناقضة ولا متضادة.

□ والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات.

ولكننا نجد أقوالاً منقولة عن السلف في تفسيرها متعددة، وكل قول منها يشرح (المقتصد) بنوع من الأنواع التي يشملها هذا المعنى العام الذي أوردناه آنفاً. وقد عبّر القرآن في موضع آخر عن المقتصدين هؤلاء بأنهم أصحاب اليمين.

فهناك من يشرح (المقتصد) بأنه الذي يصلي صلاة العصر في أثناء الوقت المشروع ولا يؤخرها إلى وقت الحرمة.

وهناك من يشرح (المقتصد) بأنه الذي يؤدي الزكاة المفروضة أو لا يأكل الربا.

وكل من أداء الصلاة في وقتها فقط، وأداء الزكاة المفروضة فقط، والامتناع عن أكل الربا أنواع من الاقتصاد.

وكل من هؤلاء إمَّا فاعل لواجب وإما تارك لمحرّم.

وليست هذه التفسيرات متناقضة ولا متضادة.

□ والسابق بالخيرات يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات.

وقد نجد في شروح بعض السلف أقوالاً عدة لتفسير (السابق بالخيرات) وكلها تدخل في هذا المعنى العام الذي ذكرناه.

وقد عبر القرآن عن هؤلاء السابقين بالخيرات في سورة الواقعة بقوله سبحانه: ﴿ والسابقونَ السابقونَ أولئكَ المقرَّبُونَ﴾. وفي هذه السورة أي سورة الواقعة نجد الأقسام الثلاثة التي وردت في سورة فاطر وذلك في قوله تعالى: ﴿إذَا وقعتِ الواقعةُ. لَيْسَ لوقعتِها كاذبةٌ. خافضةٌ رافعةٌ. إذا رُجَّتِ الأرض رَجّاً. وَبُسَّتِ الجبالُ بَسّاً. فكانتْ هَبَاء مُنبثاً. وَكُنْتُمْ أزواجاً ثلاثةً. فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ. وأصحابُ المشأمةِ ما أصحابُ المشأمةِ. والسابقونَ السابقونَ أولئكَ المقرَّبُونَ. في جَنَّاتِ النعيم. ثُلَّةٌ مِنَ الأولين وقليلٌ مِنَ الآخِرينَ. على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ. متكئينَ عليها متقابلين...﴾.

قال ابن كثير في تفسير سورة الواقعة:

[وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله..﴾ وذلك على أحد القولين[1] في (الظالم لنفسه)].

وأورد ابن كثير أنَّ ابن عباس ذهب إلى ذلك فقال في ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ قال: [هي التي في سورة الملائكة ــ أي فاطر ــ ﴿ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا﴾].

وقد ذكر ربنا سبحانه أن أهل الكتاب من قبلنا لم يكن أكثرهم من السابقين ولا من المقتصدين، بل كان أكثرهم من الذين ساء عملهم فقال تعالى: ﴿ولو أنَّ أهلَ الكتابِ آمنُوا واتَّقَوْا لكَفَّرْنَا عَنهُمْ سيئاتِهم ولأدْخَلْنَاهُم جَنَّاتِ النعيمِ. وَلَوْ أنَّهُمْ أقَامُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزلَ إليهِمْ مِنْ رَبِّهِم لأكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِم. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وكثيرٌ منهم ساء ما يَعْمَلون﴾[2].

إنَّ الفائدة العملية التي نقف عليها في أصول التفسير من وراء هذا البحث أن

(١) ذكر المغراوي في جامع جوامع الاختصار صفحة ١٠٤-١٠٥ أن الأقوال في تفسير هذه الآية بلغت ٤٥ قولاً.
(٢) سورة المائدة: الآية ٦٥-٦٦.

نقرر أنَّ تفسير السلف من الصحابة وتابعيهم ــ وهم أهل اللغة وأبناء خير القرون ــ كان يسير في اتجاه واحد متكامل، وأنَّ ما نقل إلينا من اختلافهم يزيدنا إدراكاً واستيعاباً لمعنى الآية. فإذا فسَّرها أحدهم بنوع أتى الآخر بنوع غيره، وهذا وذاك يمدانا بالتصور الواضح الأكمل للنصّ القرآني.

وهذا البحث يبين لنا أتمَّ البيان فساد رأي الذين يظنون أن تفسيرات السلف متباينة متعارضة، والأمر عند التحقيق ليس كذلك، فلقد رأينا أن تلك الأقوال هي أنواع لمعنى واحد.

ولننظر في الآية الكريمة في موضعها من السياق؛ قال تعالى:

﴿ والذي أوْحَيْنَا إليكَ مِنَ الكتاب هُوَ الحقُّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ. إنَّ الله بعبادِهِ لخبيرٌ بصيرٌ. ثُمَّ أوْرَثْنَا الكتابَ الذينَ اصطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنَا فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابق بالخيراتِ بإذنِ الله. ذلك هو الفضلُ الكبيرُ. جناتُ عدن يَدْخُلونَها يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أساور مِنْ ذَهب وَلُؤلُؤاً ولباسُهم فيها حريرٌ. وقالوا الحمدُ لله الذي أذهبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ. الذي أحلَّنا دارَ المُقَامةِ مِنْ فضلِهِ لا يَمَسُّنَا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوب. والذينَ كَفرُوا لَهُمْ نارُ جَهنَّم لا يُقْضى عليهم فَيموتُوا ولا يُخَفَّف عَنْهُمْ مِنْ عذابها. كذلكَ نَجْزي كُلَّ كَفُور. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فيها ربَّنا أخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نعملُ. أوَلَم نُعمِّرْكُمْ ما يتذكَّرُ فيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وجاءكُمُ النذيرُ فذوقُوا فَمَا للظالمينَ مِنْ نصيرٍ ﴾[1].

إنَّ هذه الأمة المحمدية مشرَّفة بحمل هذا الكتاب إلى الدنيا.. إنها الأمينة على هداية الله ووحيه، الحافظة لدين الله الحق وشرعه.. وهي خير أمة أخرجت للناس تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. وهي ليست سواء بل كانت أنواعاً ثلاثة.. فمنها سابق بالخيرات، ومنها مقتصد، ومنها ظالم لنفسه.

وهذا الكتاب الذي شرفت بحمله ووراثته مصدق لما بين يديه من الكتاب؛

(١) سورة فاطر: الآية ٣١-٣٧.

ذلك لأنَّ رسالات الله واحدة في العقيدة، فما من نبي أرسله الله إلى الناس إلا كانت دعوته قائمة على توحيد الله، ولذلك كان كل رسول ينادي قومه ويدعوهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك الله، وهذا القرآن يقصّ علينا أخبارهم.

ونذكر ما جاء على لسان نوح وهود وصالح وشعيب:

□ يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قومِهِ إنِّي لَكُمْ نذيرٌ مبينٌ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ الله ﴾[1].

□ ويقول: ﴿ وَإلى عَادٍ أخاهم هُوداً قالَ: يا قَوْمِ اعبدُوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾[2].

□ ويقول: ﴿ وَإلى ثَمُودَ أخاهُمْ صالحاً قالَ: يا قَوْمِ اعبُدوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾[3].

□ ويقول: ﴿ وَإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قالَ: يا قَوْمِ اعبُدوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾[4].

وحملت أمة الاسلام هذا الكتاب تنشر في الأرض الدين الخالص، وتحقق في ربوعها العدالة، وتوفر للانسان المطحون في أحقاب التاريخ الكرامة لانسانيته، والسعادة في حياته.

وقد قررت الآيات أنه سبحانه خبير بعباده يعرف حقيقتهم، بصير لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا يستطيع أن يسبقه أحد من العصاة ﴿ أمْ حَسِبَ الذينَ يَعْملونَ السيئاتِ أنْ يسبقونَا ساء ما يَحْكُمونَ ﴾[5]. ولقد فصّلت الآيات الكريمات جزاء السابقين والمقتصدين.. والجنة درجات ومراتب.

---

(١) سورة هود: الآية ٢٥-٢٦.
(٢) سورة هود: الآية ٥٠.
(٣) سورة هود: الآية ٦١.
(٤) سورة هود: الآية ٨٤.
(٥) سورة العنكبوت: الآية ٤.

إنها جنات عدن يُحَلَّوْنَ فيها من أساور الذهب ومن أنواع اللؤلؤ، ويلبسون ثياباً من الحرير.. وينعمون بالسعادة فيحمدون الله أن أذهب عنهم الحزن وأحلهم الجنة التي لا يمس من سكنها نصب ولا لغوب، واللغوب التعب والاعياء.

وأما الظالمون لأنفسهم فإن تابوا واستقاموا كانوا من الناجين، لهم جنات النعيم، وأما الذين يصرون على الشرك ويموتون على الكفر فلهم نار جهنم.. والمصيبة الكبرى أنه لا موت فيها، فهم لا يقضى عليهم فيستريحوا، ولا يخفف عنهم من عذابها شيء.. إنهم في العذاب الشديد.. وهذا جزاء كل كفور وهناك — وبعد فوات الأوان — أدركوا خطأهم، فيصرخون ويستغيثون ويقولون: ربنا أخرجنا منها نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل. فيأتيهم الجواب المفحم المؤلم: أو لم نعمركم في الدنيا وقتاً يتذكر فيه من تذكر وأرسلنا إليكم رسلنا ينذرونكم.. فما كان منكم إلا الكفر والاعراض فذوقوا ما كنتم تعملون فإنكم أنتم الظالمون.. وما للظالمين هناك من نصير.

مَعرفة أسبَاب النزول

إنَّ معرفة أسباب النزول تعين أيما إعانة على فهم معنى الآية وعلى استيعاب مدلولاتها التي تتضمنها.

قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها [١].

وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قويٌّ في فهم معاني القرآن [٢].

وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب [٣].

وكذلك فإنَّ معرفة أسباب النزول تزيل ما قد يعرض من الإشكال لبعض من يقرأ الآية قبل أن يعرف سبب النزول.

□ لما سمع أحد التابعين [٤] قول الله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الذينَ يَفْرَحُونَ بما أتوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمَفازَةٍ مِنَ العذابِ، وَلَهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾ [٥] قال: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأَحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبنّ أجمعون، فبيِّن له ابن عباس أنَّ الآية نزلت في أهل الكتاب

---

(١) أسباب النزول ص ٢ والاتقان ١/٢٨.

(٢) الاتقان ١/٢٨.

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٧ و«الاتقان» ١/٢٨.

(٤) وهو مروان بن الحكم المولود سنة ٢ هـ وقد اختلف في صحبته.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

حين سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه. أخرجه الشيخان.

وعلّق بعض أهل العلم على جواب ابن عباس قائلاً: إن الوعيد مرتّب على أثر الأمرين المذكورين وهما الفرح وحب الحمد لا عليهما أنفسهما، إذ هما من الأمور الطبيعية التي لا يُعلّق بها التكليف أمراً ونهياً.

وقال الخازن في «تفسيره»[1]: وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في اليهود أو المنافقين خاصة فإنَّ حكمها عام في كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح أو ينسبَ إلى العلم وليس هو كذلك.

أقول: ويشهد لهذا الفهم قوله ﷺ: «المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[2].

□ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إنَّ الصَّفَا والمروةَ مِنْ شعائرِ الله. فَمَنْ حَجَّ البيتَ أو اعتمرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بهما ومَنْ تَطوَّعَ خَيْراً فإنَّ الله شاكرٌ عليمٌ ﴾[3].

فإن ظاهر لفظها لا يقتضي أنَّ السعي فرض؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿ فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما ﴾ وهذا التعبير لا يدل على الفرضية، بل يدل على رفع الاثم في الطواف بهما.

وقد ردّت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها على عروة عندما فهم عدم الفرضية، فذكرت له سبب نزولها وهو أنه كان على الصفا صنم وعلى المروة صنم

---

(١) تفسير الخازن ٣٠٨/١ مطبعة الاستقامة القاهرة ١٣٧٤ (١٩٥٥).

(٢) أخرجه الشيخان عن أسماء (رضي الله عنها) قال النووي: [والمتشبع: هو الذي يظهر الشبع وليس بشبعان، ومعناه هنا أن يظهر أنه حصل له فضيلة وليست حاصلة. ولابس ثوبي زور: أي ذي زور، وهو الذي يزور على الناس بأن يتزيا بزي أهل الزهد والعلم أو الثروة ليغتر به الناس، وليس هو بتلك الصفة] وانظر «رياض الصالحين» ط المكتب الاسلامي رقم الحديث ١٥٥٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

آخر، وكان المشركون إذا سعوا تمسحوا بهما، فلما جاء الإسلام تحرّج الصحابة أن يطوفوا بينهما لأنه من عمل الجاهلية، فنزلت الآية لنفي هذا الحرج.

□ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ لا أجدُ فيما أوحِيَ إليَّ محرَّماً على طاعم يَطْعَمُهُ إلاَّ أنْ يكونَ ميتةً أوْ دَماً مَسْفُوحاً أوْ لَحْمَ خنزيرٍ فإنَّهُ رِجْسٌ، أو فسقاً أُهِلَّ لغيرِ الله بهِ. فمنِ اضطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ رَبَّكَ غَفورٌ رحيمٌ ﴾[1].

قال الشافعي ما معناه: إن الكفار لما حرّموا ما أحلّ الله، وأحلّوا ما حرّم الله وكانوا على المضادّة والمحادة فجاءت الآية مناقضة لفرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلاً منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة. فتقول: لا آكل اليوم إلا حلاوة.

والغرض المضادّة لا النفي والإثبات على الحقيقة. فكأنه قال تعالى: لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنـزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه، إذ القصدُ إثبات التحريم لا إثبات الحل.

قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية.

وكذلك معرفة أسباب النزول تبيّن وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

إنَّ النصوص التشريعية نصوص عامة هي أقرب إلى التجريد، من نحو قوله (لا يحل لكم كذا) و(أحل لكم كذا) (من فعل كذا فله ثواب عظيم) و(من فعل كذا فله عقاب أليم).

إن النصوص التشريعية لا بُدَّ من أن تكون عامة حتى تنطبق على الحالات الفردية الخاصة الكثيرة ولكن معرفة سبب النزول يجعلنا ندرك مناسبة النص وارتباطه بالحياة الواقعية والجانب العملي الحيوي فيها، وبذلك يتضح وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

فمن ذلك أن الوقوف على سبب نزول آيات اللعان يوضح حقيقة الحكم وحكمته التشريعية قال تعالى: ﴿ والذينَ يَرْمُونَ أزواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاء إلاَّ أنفسُهم فشهادةُ أَحَدِهِمْ أربعُ شهادات بالله إنَّهُ لَمِنَ الصَّادقينَ. والخامسة أنَّ لعنة الله عليهِ إنْ كانَ مِنَ الكاذبينَ. ويَدْرَأُ عنها العذابَ أنْ تَشْهَدَ أربعَ شهادات بالله إنَّهُ لَمِنَ الكاذبينَ. والخامسة أنَّ غَضَبَ الله عَلَيْها إنْ كَانَ مِنَ الصَّادقينَ ﴾ (١).

قال ابن كثير: [هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج، وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البيّنة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل، وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان.. وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حَدُّ الزنا ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين] (٢). ثم نقل عن البخاري حديث ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء. قال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلاّ حدٌّ في ظهرك» فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحدّ. فنزل جبريل وأنزل عليه (والذي يرمون...) (٣).

وهكذا تبين لنا أن معرفة سبب النزول توقفنا على حكمة التشريع العظيمة المحكمة التي تنقذ المرء من السكوت على ريبة رآها من أن ينسب له ولد ليس منه وتنقذه كذلك من الحد فيما لو تحدث عما رأى.

قال ابن حجر:

---

(١) سورة النور: الآية ٦-٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢٦٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/٢٦٦.

[وقد اختلف الأئمة في هذا الموضع:

فمنهم من رجّح أنها نزلت في شأن عويمر.

ومنهم من رجّح أنها نزلت في شأن هلال.

ومنهم من جمع بينهما بأنَّ أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت في شأنهما معاً في وقت واحد. وقد جنح النووي إلى هذا وسبقه الخطيب][1].

من الآيات التي يوضح ذكر سبب نزولها معناها، ويزيل الإشكال منها قوله تعالى:

﴿وَآتُوا اليَتَامى أَمْوَالَهُمْ وَلا تتبدَّلُوا الخبيثَ بالطَّيِّبِ. وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إلَى أموالِكُمْ إنَّهُ كانَ حُوباً كَبيراً وَإِنْ خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتَامَى فانكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ منَ النساء مَثْنى وثُلاثَ ورُبَاعَ. فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانُكُمْ ذلك أدْنى ألاَّ تَعُولوا﴾[2].

فقد يتساءل المرء قبل أن يعرف سبب النزول: ما العلاقة بين العدل في اليتامى وبين الزواج باثنتين أو ثلاث أو أربع؟

ومعنى الآية كما يوضحه سبب النزول: [إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه][3] فلينكح ما طاب له من النساء من غيرها ثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً.

روى البخاري في «صحيحه» عن عائشة أن رجلاً كانت له يتيمة، فنكحها وكان لها عذق وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه:

---

(١) فتح الباري ٨/٤٥٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٣.

(٣) ابن كثير ١/٤٤٩.

﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[1].

وروى البخاريّ أيضاً أن عروة بن الزبير سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿ وإنْ خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتَامَى ﴾ فقالت: يا بن أختي! هذه اليتيمة تكون في حَجْر وليِّها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيُعطيَها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا لهنَّ أعلى سُنَّتهنّ في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ.. قالت عائشة: وقول الله تعالى في آية أخرى ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾[2] رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال. قالت: فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كنَّ قليلات المال والجمال[1].

وبذلك يبدو ارتباط الكلام بعضه ببعض بدقة متناهية. إن سياق الآيات يتحدث عن حرمة أكل مال اليتامى، وههنا حالة كان الزواج فيها ذريعة لهذا المحرّم فكان سد هذه الذريعة متعيناً.

وجاء الأمر بنكاح أكثر من واحدة ضماناً لاجتناب أكل مال اليتيم. ألا فليتق الله من كان في ولايته يتيمة يحق له أن يتزوجها، وليحذر من أن يكون الدافع إلى زواجها رغبة في مالها أو جمالها.

إن عليه إن خاف الجورَ في هذا الزواج، والعدوان على مالها وحقوقها.. إنّ عليه أن يترك هذا الزواج، ولينكح ما طاب له من النساء غيرها، فهن كثير.. ليتزوج ثنتين إن شاء، أو ثلاثاً أو أربعاً إن شاء. وهذا المعنى يوضح لنا لماذا كان البدء بالنكاح مثنى وثلاث ورباع.

(١) صحيح البخاري ٦/٣٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٧.

وعلى المفسر أن ينتبه ــ في موضوع أسباب النزول ــ إلى أمرين مهمين:

■ **أما أولها**: فهو التأكد من صحة الحديث الذي ينقل لنا سبب نزول الآية؛ ذلك لأنَّ كثيراً من الأحاديث المروية في هذا الموضوع من الأحاديث الضعيفة والتالفة.

فليس كل حديث يروى في أسباب النزول مقبولاً. بل الحديث المقبول هو الحديث المحتجُّ به وهو الحديث الصحيح والحسن.

■ **وأما ثانيها**: فهو ألا يحصر معنى الآية في الحادثة التي كانت السبب في نزول الآية.

وهذا منزلق خطير، كثيراً ما يعمد إلى إثارته أعداء الاسلام الماكرون الذين يقولون: إنَّ الحكم الذي أنزله الله لا نعترض عليه ولا ننكره، ولكنه حكم خاص بتلك الحادثة، وليس لنا أن نعممه على الحالات الأخرى التي تشابهها.

وهذا قول باطل؛ لأنَّ القرآن هو آخر الكتب المنزلة من عند الله، وهو يتضمن الشريعة التي أنزلت لتحكم حياة الناس، وتنظم شؤونهم الدنيوية والأخروية. وقد قرّر العلماء أن العبرة بعموم النصّ لا بخصوص السبب.

والعجب من أولئك المغالطين الذين يحصرون معنى الآية بسبب نزولها: كيف يوفقون بين موقفهم هذا وبين الاعتقاد بأنَّ رسالة محمد ﷺ عامة للناس جميعاً قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (١).

قال السيوطي: [ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت في أسباب خاصة شائعاً ذائعاً بينهم.

قال ابن جرير: حدثني محمد بن أبي معشر. أخبرنا أبو معشر نجيح. سمعت سعيداً المقبريّ يذاكر محمد بن كعب القرظي.

فقال سعيد: إن في بعض كتب الله: إنَّ لله عباداً ألسنتهم أحلى من

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر لبسوا للناس مسوك الضأن [أي جلودها] من اللين، يجترون الدنيا بالدين. قال الله تعالى: أعليَّ يجترئون، وبي يغترون؟ وعزتي لأبعثنَّ عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران.

فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله.

فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟

قال محمد بن كعب: قول الله عز وجلّ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنْيا ويُشْهِدُ الله عَلَى ما في قَلْبِهِ وَهُوَ ألَدُّ الخِصَام وإذا تولَّى سَعى في الأرضِ لِيُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحرثَ والنّسلَ والله لا يُحبُّ الفسادَ وإذا قيل له اتقِ الله أخذتْهُ العزَّةُ بالإثْم فحسبُهُ جهنمُ وَلَبِئسَ المهاد ﴾ (١).

فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت؟

فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامةً بعد] (٢).

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح (٣).

وهكذا فهم السلف هذه المسألة هذا الفهم السليم القويم.. إن هذا الكتاب أنزل ليحكم حياة الناس إلى يوم القيامة وليس حلولاً وقتية لمسائل معينة. فليفهم هذا طلبة العلم الذي يفسرون كتاب الله وليعوه فإن هذه المسألة من أهم مسائل أصول التفسير.

نزلت آية الظهار في شأن حادثة خاصة، اشتكت فيها امرأة إلى الله، فسمع الله شكواها، وأنزل فيها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة. قال تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تجادِلُكَ في زَوْجِها وتَشْتَكي إلى الله والله يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ. الذينَ يُظاهرونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهم. ما هُنَّ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٤-٢٠٦.
(٢) الاتقان ٢٩/١-٣٠.
(٣) ابن كثير ٢٤٦/١.

أمهاتِهِمْ. إنْ أُمَّهاتُهُمْ إلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ. وإنَّهم لَيَقُولُونَ مُنْكراً مِنَ القولِ وَزُوراً. وإنَّ الله لعفوٌّ غفورٌ.

والذينَ يُظاهرونَ مِنْ نسائِهم، ثُمَّ يَعُودونَ لِمَا قالُوا فتحريرُ رقبةٍ مِنْ قَبْلِ أنْ يَتماسَّا. ذَلِكُمْ تُوعظونَ بِهِ والله بما تعملونَ خبيرٌ.

فمَنْ لَمْ يجدْ فصيامُ شهرينِ مُتَتابعيْنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَتَمَاسَّا. فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإطعامُ سَتِّينَ مِسْكيناً ذلك لِتُؤمِنُوا بالله ورسولِهِ وتلكَ حدودُ الله. وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ﴾ [١] ولنورد القصة كما وردت في كتب السنة والتفسير.

عن عائشة قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء. إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول:

يا رسول الله. أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتَّى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني. اللهم إني أشكو إليك.

قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ..﴾ قالت: وزوجها أوس بن الصامت وفي رواية عن خولة بنت ثعلبة أنها قالت:

فيَّ ـ والله ـ وفي أوس بن الصامت. أنزل الله صدر سورة المجادلة. قالت: كنتُ عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه. قالت: فدخل عليَّ يوماً فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا.. والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني. قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه،

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١-٤.

وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة. ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه».

قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيّ قرآن. فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً ثم قرأ عليّ: ﴿قَدْ سَمِعَ الله ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وللكافرينَ عذابٌ أليمٌ﴾.

قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة».

قالت فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: «فليصم شهرين متتابعين».

قالت فقلت: والله إنه لشيخ كبير ماله من صيام.

قال: «فليطعم ستين مسكيناً وَسْقاً [١] من تمر».

قالت: قلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده.

فقال رسول الله ﷺ: فإنا سنعينه بفَرَق [٢] من تمر. قالت: قلت: يا رسول الله. وأنا سأعينه بفرق آخر. قال: «قد أصبتِ وأحسنتِ فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً» [٣].

تِلْكُم قصة خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس.. خلاف وحدّة جعلت الزوج يتلفظ بكلمات كان أهل الجاهلية يستعملونها فنزلت هذه الآيات، وبيّنت العلاج، وصلح حال الأسرة واستقام أمرها.. ولكن الأحكام الواردة في هاتيك الآيات أصبحت عامّة للمسلمين جميعاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وكان من ذلك باب من أبواب الفقه الاسلامي هو باب الظهار.

هذا وإن النظر المتأمل في هذه المسألة مسألة الظهار ليشعرنا بمدى أهمية القول في الاسلام.. حتى ولو قال ذاك القول بينه وبين نفسه. إن كلام المرء من عمله.

---

(١) الوَسْق: حِمْلُ بعير. جاء في «المصباح»: [قال الأزهري: الوَسْقُ ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ].
(٢) الفَرَق: بفتحتين مكيال معين.
(٣) ابن كثير ٣١٩/٤.

وإن الانسان ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً. والكلمة الطيبة صدقة.

إن كلمة واحدة تترتب عليها عقوبات.. ويتوقف بسببها مسير الحياة الأسرية. ويطالب قائلها بالتوبة بعد التكفير.

إن المسلم لا يقول منكراً من القول، ولا يأتي الزور من الفِعَال.. إن التزام المسلم بالاسلام يصوغ حياته صياغة جديدة متكاملة، ويجعله متوازياً بين الدوافع المختلفة والقوى المتعددة والغرائز والانفعالات. إن شخصية المسلم متميزة.. تبدو واضحة المعالم.. سامية القصد.. كريمة المعاملة.. جليلة رفيعة. ولو وازنَّا بينها وبين شخصية أي إنسان آخر لبدا الفرق جلياً واضحاً.

إنَّ المسلم الملتزم لا يمكن أن يحمله الغضب على أن يتصرف التصرف الذي يندم عليه..

وخولة بنت ثعلبة بعد أن نزل فيها ما نزل من القرآن أصبحت ذات شأن: حدَّث ابن أبي حاتم عن أبي يزيد قال: لقيت امرأةٌ عمرَ يقال لها خولة بنت ثعلبة وهو يسير مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها، ودنا منها وأصغى إليها رأسه.. حتى قضت حاجتها، وانصرفت.

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين. حبست رجالات قريش على هذه العجوز.

قال: ويحك! وتدري مَنْ هذه؟

قال: لا.

قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات. هذه خولة بنت ثعلبة. والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها إلاّ أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها.

قال ابن كثير: هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر، وقد روي من غير هذا الوجه[1].

---

(١) ابن كثير ٣١٨/٤.

وهكذا يتبيَّن لنا أن سبب النزول لا يقصر حكم الآية على الحادثة المخصوصة التي كانت سبب نزولها.. بل إن ذاك السبب يوضح المعنى ويجليه. وإلاَّ يكن ذلك فكيف نصنعُ بالحالات التي تشابه سبب النزول. كأن يقول رجل من الناس لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي.

إن العبرة كما سبق أن قررنا بعموم النص لا بخصوص السبب. وفي الآية ألفاظ دالة على العموم كقوله: (والذين يظاهرون...) وقوله: (فمن لم يجد فصيام) وقوله: (فمن لم يستطع...).

القرآن بالنسبة لأسباب النزول نوعان وكتب أسباب النزول:

لا بُدَّ ونحن نتحدث عن أسباب النزول ــ من أن نقرر أنَّ القرآن الكريم ــ **نزل** بعضه ابتداء من غير سبق سبب نزول خاصّ، وهو كثير في القرآن.

ونزل بعضه مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصّة. نزل عقب واقعة أو سؤال. وعلم أسباب النزول علم من علوم القرآن، ألّفت فيه كتب خاصّة استوعبت آيات القرآن التي نزلت لأسباب معينة، وذكرت هذه الكتب تلك الأسباب بأحاديث مروية إلى الصحابة رضي الله عنهم الذين عاصروا تنزيل القرآن. وهذه الأحاديث متفاوتة الرتبة، فمنها ما صحّ سنده ومنها ما كان في سنده ضعف، ومنها ما حكم علماء الحديث بوضعه.

من هذه الكتب: كتاب علي بن المديني المتوفى ٢٣٤ جاء في «كشف الظنون»[(١)]:

[أسباب النزول، لشيخ المحدثين علي بن المديني، وهو أول من صنّف فيه] هكذا قرر الأوليـة له وأنا أميل إلى التريث في حكـم الأوليـة. والله أعلم.

ومن هذه الكتب: كتاب أسباب النزول، للشيخ عبد الرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي المتوفى سنة اثنتين وأربعمائة.

ومنها: كتاب أسباب النزول لمحمد بن أسعد القرافي.

(١) كشف الظنون ٧٦/١.

ومنها: كتاب أسباب النزول لعلي بن أحمد الواحدي المفسر المتوفّى سنة ثمان وستين وأربعمائة وهو أشهر ما صنف. وهو مطبوع منذ تسعين سنة طبع في مصر سنة ١٣١٦ هـ.

ومنها: كتاب أسباب النزول لأبي الفرج عبد الرحمن بن عليّ ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧.

ومنها: كتاب أسباب النزول لابن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢ قال حاجي خليفة: [ولم يبيّض].

ومنها: كتاب أسباب النزول لأبي جعفر محمد بن علي بن شعيب المازندراني المتوفى ٥٨٨.

ومنها: كتاب السيوطي المتوفى ٩١١ وقد ذكره في «الاتقان» فقال:

[وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع وسميته «لباب النقول في أسباب النزول»][1] وهو مطبوع أكثر من مرة، طبع على هامش «تفسير الجلالين».

وما تزال هذه الكتب ــ أو ما وصل إلينا من هذه الكتب ــ بحاجة إلى تحقيق الأحاديث الواردة فيها وتصحيح ما صح وبيان ضعف الضعيف منها.

هذا وقد ذكر العلامة طاشكبري زاده في كتابه «مفتاح السعادة»[2] فائدة مهمة وهي قوله: [وقيل: قول الصحابي (نزلت الآية في كذا) يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية].

وواضح أن النوع الثاني من قبيل التفسير وليس من أسباب النزول. فليحذر طلبة العلم من الخلط بين الأمرين وتوهم غير المقصود.

إذ لو سئل عالم ماذا يكون نصيب بنات رجل متوفى لم يترك من الأولاد غير هؤلاء البنات الثلاث؟ وكثيراً ما يكون الجواب: نزل في هذا قرآن. ويتلو المجيب

---

(١) الاتقان في علوم القرآن ٢٨/١.

(٢) مفتاح السعادة ٣٨٦/٢.

قوله تعالى: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾.

وحديثنا الآن حول ما كان سبباً مباشراً في نزول الآية. وذكر طاشكبري زاده[1]: [ويشترط في سبب النزول أن يكون نزولها أيام وقوع الحادثة. وإلا كان ذلك من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كقصة الفيل، وقصة قوم نوح وأمثالها].

أما إذا ورد سؤال عن خبر أمة ماضية فنزل في ذلك آيات من القرآن كان ذاك السؤال سبباً في نزولها كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القرنيْنِ﴾.

قال ابن كثير:

[وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض. وعن فتية ما يدرى ما صنعوا. وعن الروح فنزلت سورة الكهف][2].

إن من متممات دراسة النصّ دراسة أدبية ومن وسائل استيعاب معانيه استيعاباً تاماً معرفة مناسبة النص والجوّ الذي قيل فيه. ومن هنا كان ذكر مناسبة النصّ إن عرفت أمراً مهماً جداً في معرفة مدلول النصّ. وإدراك أبعاده وآفاقه وفهم مراميه وأهدافه.

وللجملة دلالة، لكن هذه الدلالة تأخذ ألواناً وأشكالاً تختلف باختلاف الظرف الذي قيلت فيه، وربما كان الفرق كبيراً بين دلالتها مقطوعة عن المناسبة، ودلالتها موصولة بالمناسبة.

ومن الأمثلة التي يذكرها العلماء في فائدة معرفة أسباب النزول قوله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغربُ فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وجهُ الله إنَّ الله واسعٌ عليمٌ﴾[3].

فلو فهمت على ظاهرها مقطوعة عن سبب نزولها لاقتضت أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً وحضراً وهو خلاف الاجماع، ولا يعلم معناها إلا بمعرفة

(١) مفتاح السعادة ٣٨٦/٢.
(٢) تفسير ابن كثير ١٠٠/٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ١١٥.

أن نزولها في نافلة السفر أو فيمن صلّى بالاجتهاد ثم بان له خطأ اجتهاده[1] على اختلاف الروايات في ذلك قال ابن كثير: [قال ابن جرير وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله تعالى أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره وفي حال المسايفة وشدة الخوف... عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول الآية ﴿فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله﴾ ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبي سليمان به. وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية...][2].

قال علماء أصول الفقه:

[معرفة أسباب النزول لازمة لمن رام علم القرآن. والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أنَّ الذي به يعرف إعجاز القرآن إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب، من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع. إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك. كالاستفهام، فهو لفظ واحد، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك. وكالأمر، يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها.

ولا دليل على معناها المراد إلا الأمور الخارجية، وعمادها مقتضيات الأحوال. وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول.

وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه. ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل من هذا النمط.

الوجه الثاني: أنَّ الجهل بأسباب التنزيل موقعٌ في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الاجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وجود النزاع.

يوضح ذلك ما روي أن عمر رضي الله عنه سأل ابن عبَّاس: كيف تختلف

---

(١) مفتاح السعادة ٣٨٥/٢ والمدخل لدراسة القرآن ١٣٨ ومن قبلهما الاتقان ٣٢/١.

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٨/١.

هذه الأمة ونبيُّها واحد؟ فقال: يا أمير المؤمنين. إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقـرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم رأي اختلفوا فإذا اختلفوا اقتتلوا[١].

ورُوي أن بكيراً سأل نافعاً: كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟

فقال: يراهم شرار خلق الله. إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين.

فهذا معنى الرأي الذي نبّه عليه ابن عباس، وهو الناشىء عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن].

ثم قال: [ففي ذلك كله ما يدل على أنَّ الغفلة عن أسباب التنزيل تؤدي إلى الخروج عن المقصود من الآيات، فهو ــ أي علم أسباب النزول ــ من العلوم التي يكون العالم بها عالماً بالقرآن][٢].

إذن فمعرفة أسباب النزول لازمة لمن يريد أن يتذوق حلاوة الاعجاز، ويقف على أسراره، ذلك لأنّ الحكم على مطابقة الكلام لمقتضى الواقع يستوجب حتماً معرفة ذاك الواقع وإدراك أبعاده لينظر مدى التوفيق في خطاب القوم الذين وجه الكلام إليهم.

ويتبع تذوق الكلام والتأثر به التطبيق لما جاء فيه والعمل بمضمونه. وكلما كان تأثر السامعين بالكلام الجميل واتباعهم له كبيراً كان هذا دليلاً على بلاغة ذاك الكلام ومطابقته لما يقتضيه ذاك الواقع. وتلك حقيقة البلاغة فقد قالوا: البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ولننظر في أمر مشهور نعرفه في حياة العرب قبل الاسلام وبعده: ألا وهو شرب الخمر.

إنَّ شرب الخمر كان من الأمور الشائعة عند العرب في الجاهلية حتى إن أحدهم ليعد من مفاخره شرب الخمر، يفتخر بذلك على رؤوس الأشهاد ليكسب

---

(١) أقول: هذا الأثر بحاجة إلى تحقيق، وعلى أية حال فدلالته على أهمية أسباب النزول واضحة.

(٢) أصول الفقه للخضري ٢٣١-٢٣٢.

تقديرهم واحترامهم على نحو ما نرى في شعر عنترة القائل[١]:

وإذا شربت فإنني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صموت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

وكان طرفة بن العبد يعد شرب الخمر من المثل التي يحيا لها، ولولا هذه المثل لما بالى أن يموت كما يقول[٢]:

ولولا ثلاث هن من عيشه الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودي
فنهنَّ سبقي العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد

إن معرفة واقع العرب أيام نزول الرسالة، ومعرفة كيفية معالجة هذا الواقع، وغالباً ما كانت المعالجة سالكة سبيل التدرج وتعدد جهات التأثير، إن معرفة ذلك كله ليبيّن لنا مدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومدى النجاح الرائع الذي حققه هذا القرآن في القضاء على هذه العادة الذميمة التي تشكو منها أصقاع كثيرة من بلدان العالم اليوم، وتعلن عن عجزها عن قطع دابر هذا الشر المستطير الذي يتهدد صحة أفراد الأمة ومالهم وقدراتهم الذهنية. ذكر الدكتور محمد علي البار[٣] أن الكونجرس الأمريكي في الولايات المتحدة أقر بالاجماع تقريباً قانون منع الخمر في أول سنة ١٩١٩ م لينفذ بدءاً من سنة ١٩٢٠ ولكن حكومة الولايات المتحدة اضطرت أن تبيحه في أكتوبر ١٩٣٣ لأنها لم تنهج في معالجة هذه المشكلة الطريق الرباني.

إن هذا الكتاب الكريم المعجز، بلغ ذروة البيان والتأثير، فكان من قيام المجتمع على أساسه ازدهار حضارة إنسانية تصون الصحة، وتوفر المال، وتحفظ القدرات الذهنية بل ترتقي بها في سلم النفع والاصلاح والإبداع.

وإدراك هذا الاعجاز والبيان يتوقف على معرفة الوسط الذي نزل فيه، واللغة التي كانت أداة التعبير، والأثر الذي تركه في حملته ورجاله.

---

(١) ديوان عنترة ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) ديوان طرفة ص ٤٧.

(٣) الخمر بين الطب والفقه ص ٢١٢ ــ ص ٢١٣.

وهذا يتحقق في معرفة أسباب نزول القرآن التي نقلت إلينا بسند صحيح.

ولقد اشتغل العلماء بهذا العلم في وقت مبكر، فهذا سيدنا عبد الله بن مسعود وهو من رواد العلم من الصحابة يقول كما أخرج البخاري: والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه» [١].

ومن الأمور العلمية المتصلة بموضوعنا ما قرره علماء المصطلح من أن قول الصحابي في سبب النزول له حكم المرفوع [٢]. والمرفوع ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

من العلماء الذي تحدثوا في أهمية معرفة أسباب النزول للمفسر وبينوا صلته الوثيقة في علم أصول التفسير شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فلقد بيّن ضرورة معرفة سبب النزول بالنسبة لمن يتصدّى لتفسير كتاب الله تعالى، ثم قرر ــ رحمه الله ــ أن أكثر العلماء يذهبون إلى أن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب. وضرب أمثلة على ذلك مما ذكرناه آنفاً آية اللعان وآية الظهار، وأورد أيضاً آية الكلالة وأنها نزلت في جابر بن عبد الله.

ثم أورد آية المائدة التي نزلت في يهود بني قريظة والنضير وهي قوله تعالى:

﴿ وأنِ احكُمْ بينَهُمْ بما أنزلَ الله ولا تَتَّبع أهْوَاءهُمْ واحذَرهُمْ أنْ يَفْتِنوكَ عَنْ بَعضِ ما أنزلَ الله إليكَ.. ﴾ [٣].

وهذه الآية نزلت في قوم معينين حذر الله رسوله منهم، إذ حاولوا أن يحرفوا الدعوة عن مسارها الأصيل، وأن يمكروا برسول الله ﷺ. فقد روى ابن كثير [٤] عن ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس أنه قال: [قال كعب بن أسد، وابن

(١) لمحات في علوم القرآن لمحمد الصباغ ١٠١.
(٢) الحديث النبوي لمحمد الصباغ ٢٧٧.
(٣) سورة المائدة: الآية ٤٩.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٦٧.

صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم وأنّا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإنَّ بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك. فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل فيهم:

﴿ وَأنزَلنا إلَيْكَ الكتابَ بالحق مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ ومُهيمناً عَلَيْهِ فاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أنزَلَ الله وَلا تَتَّبِعْ أهواءهُمْ عَمّا جاءكَ مِنَ الحقِّ. لِكُلٍ جَعَلنا مِنكُمْ شِرْعَةً ومِنهَاجاً. وَلَوْ شَاء الله لَجَعلكُمْ أمَّةً واحدة ولَكِنْ ليبلُوَكُمْ فِيما آتَاكُمْ. فاسْتَبِقُوا الخَيراتِ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئكُم بِما كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَأنِ احْكُم بَيْنَهُم بما أنْزَلَ الله ولا تَتَّبِعْ أهواءهُمْ وَاحذَرْهُمْ أَنْ يَفتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أنزَلَ الله إلَيْكَ فَإن تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنّما يُرِيدُ الله أن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وإنَّ كَثِيراً من النَّاسِ لَفَاسِقُون أفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ الله حُكماً لِقوم يُوقِنون ﴾ (١).

قال المفكر الاسلامي الأديب الذواقة سيد قطب رحمه الله (٢):

[الأمر موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ فيما كان فيه من أمر أهل الكتاب الذين يجيئون إليه متحاكمين، ولكنه ليس خاصاً بهذا السبب، بل هو عام.. وإلى آخر الزمان.. طالما أنه ليس هناك رسول جديد، ولا رسالة جديدة، لتعديل شيء ما في هذا المرجع الأخير!

لقد كمل هذا الدين، وتمت به نعمة الله على المسلمين. ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى، وقد علم الله حين رضيه للناس أنه يسع الناس جميعاً وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً أنه يحقق الخير للناس جميعاً. وأنه يسع حياة الناس جميعاً إلى يوم الدين. وأي تعديل

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨-٥٠.
(٢) في ظلال القرآن ٩٠٢/٢.

في هذا المنهج ــ ودعك من العدول عنه ــ هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة يخرج صاحبه من الدين. ولو قال باللسان ألف مرة: إنه من المسلمين.

وقد علم الله أنَّ معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع أهواء المحكومين المتحاكمين.. وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كلِّه بلا عدول عن شيء فيه في بعض الملابسات والظروف. فحذر الله نبيه ﷺ في هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه.. وأولى هذه الهواجس الرغبة الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة، والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد، ومسايرة بعض رغباتهم عندما تصطدم ببعض أحكام الشريعة، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول الله ﷺ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام بعينها منها حكم الرجم وأن هذا التحذير قد نزل بخصوص هذا العرض.. ولكن الأمر ــ كما هو ظاهر ــ أعمّ من حالة بعينها وعرض بعينه. فهو أمر يعرض في مناسبات شتى، ويتعرض له أصحاب هذه الشريعة في كل حين.. وقد شاء الله سبحانه أن يحسم في هذا الأمر، وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف، وتأليفاً للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء فقال لنبيه: إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكنه جعل لكل منهم طريقاً ومنهاجاً، وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة، وما آتاهم في الحياة كلها من عطايا، وأن كلاً منهم يسلك طريقه، ثم يرجعون كلهم إلى الله، فينبئهم بالحقيقة، ويحاسبهم على ما اتخذوا من منهج وطريق،.. وأنه إذن لا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج.. فهم لا يتجمعون... بذلك أغلق الله سبحانه مداخل الشيطان كلها، وبخاصة ما يبدو منها خيراً وتأليفاً للقلوب وتجميعاً للصفوف بالتساهل في شيء من شريعة الله في مقابل إرضاء الجميع...

ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة ويزيدها وضوحاً. فالنص الأول: (فاحكم

بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) قد يعني النهي عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم فالآن يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه: ﴿وأن احكُمْ بينَهُمْ بما أنزلَ الله ولا تَتَّبِعْ أهواءهُمْ واحذرهُمْ أنْ يفتِنوكَ عن بَعضِ ما أنزلَ الله إليك﴾ (١) فالتحذير هنا أشدُّ وأدق وهو تصوير للأمر على حقيقته.. فهي فتنة يجب أن تحذر.. والأمر في هذا لا يعدو أن يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً أو أن يكون اتباعاً للهوى وفتنة يحذر الله منها] انتهى كلام سيد قطب.

إن هناك سبباً نزلت في شأنه هذه الآيات، ولكنها بعمومها قررت مبدءاً لا يحيد عنه إلا هالك وهو أنَّ الإسلام كل لا يتجزأ فمن أخذه كله إلا جانباً فقد كفر به.

وهكذا فإن الدعوات القائلة اليوم: لنأخذ من الاسلام نظامه الروحي ونظامه في الزواج والطلاق والميراث.. ولنأخذ من غيره الأنظمة الاقتصادية والجنائية وغيرها دعوات جاهلية ضالة.

إن من قَبِلَ هذا الكلام يكون قد وقع في الفتنة التي حذر الله رسوله منها.

إنَّ مما يتصل بأصول التفسير فَهْمَ عبارات السلف على وجهها، حتى لا نحمل على الأجداد ما لم يقولوا، ونقع في الغلط في تفسير كتاب الله جلَّ جلاله. من هذه العبارات قولهم: [نزلت في الحادثة كذا وكذا الآية الفلانية..].

إنَّ من الأهمية بمكان أن نحدد مفهوم هذه العبارة التي نجدها في كلام الصحابة والتابعين والمفسرين والعلماء والخطباء على مرّ العصور.

قد يكون مراد القائل حقيقة أنَّ الحادثة المذكورة كانت سبب نزول الآية. هذا واردٌ، وقد تحدثنا عنه فيما مضى. ولكنه ليس متعيناً دائماً بصورة حتمية... إذ نرى أحياناً هذه العبارة ولا يكون مراد قائلها أنَّ هاتيك الحادثة وقعت قبل نزول الآية وانها هي التي كانت السبب في نزولها بل يكون مراده أن هذه الآية تعالج تلك الحادثة وتأتي بالحكم الفصل فيها، وأنَّ الحادثة داخلة في مضمونها.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٩.

وهذا الفهم لهذه العبارة يفسر لنا طائفة من الروايات المتعددة في أسباب النزول.

ومعلوم أن التوفيق بين الروايات لا يسعى إليه إلا بعد التأكد من صحتها، أما إذا كان بعضها ضعيفاً فإن طرح الضعيف هو المنهج السليم الذي يسلكه المحققون من العلماء.

ويوضح الموضوعَ ضربُ المثل:

يسأل سائل عن قول رجل كافر يعترض على الاسلام الذي حرَّم الربا فيقول:

(لماذا تقولون بحرمة الربا؟، وهل هو إلا مماثل للبيع الذي تقولون بحله، تشتري المتاع بمائة ريال وتبيعه بمائة وخمسة، والربا كذلك: تقرض امرءاً مائة ريال وتستردها مائة وخمسة).

فتقول في جوابه: نزل في هذا الرجل وسؤاله قرآن، ردَّ باطله وأزال شبهته، ثم تتلو قول الله تعالى: ﴿ الذينَ يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقومُ الذي يتخبطه الشيطان من المسّ، ذلك بأنهم قالوا: إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا ﴾[1].

تقول في جوابه: نزلت في هذا الرجل وسؤاله هذه الآية وتقرؤها، ومعلوم أنَّ الآية لم تنزل في هذا الموضوع الخاص بالسائل والمسؤول بعينه.. بل هي نزلت على رسول الله محمد ﷺ قبل أربعة عشر قرناً في أمر يشابه هذا الموضوع.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: [وقولهم: (نزلت هذه الآية في كذا) يراد به تارة أنّه سبب لنزول، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عَنَى بهذه الآية كذا][2] ويجري هذا القول مجرى التفسير.

قال بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: [وما يذكره المفسرون من أسباب متعددة لنزول الآية قد يكون من هذا الباب؛ لا سيا وقد عرف من عادة الصحابة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٨.

والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنَّ هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أنَّ هذا كان السبب في نزولها. وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند؛ كما في قول ابن عمر في قوله تعالى: ﴿نساؤكمْ حَرث لَكُمْ﴾[1] وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند وكذلك مسلم وغيره، وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال والتأويل، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع][2].

وهذا مثل آخر:

لو أننا نظرنا في كثير من الآيات وتدبرناها على ضوء واقعنا الحاليّ المؤلم لوجدنا كأنها تتنزل اليوم. وهذا يتصل بإعجاز القرآن وخلوده وحيويته وأنه ــ كما قيل في وصفه ــ لا يَخْلَقُ على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. إننا لنرى المسلمين اليوم مهاجمين من قبل أعداء الاسلام من شيوعيين ورأسماليين ومستعمرين: شرقيين وغربيين، ومن يهود ونصارى، وغيرهم. ونرى مع ذلك كله غفلة تجعل بعض المسلمين المغفلين أو المغرضين، يوالون أعداءهم، يوادّونهم، ويقلدونهم حذو القذة بالقذة، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلوه... ويرددون أقوالهم ولو كانت مغلوطة.. وأولئك الأعداء قد بدت البغضاء أحياناً من تصريحاتهم وأقوالهم وصحفهم وإذاعاتهم.. ولكنَّ ما تخفيه صدورهم أكبر.. إنهم يمكرون ويتآمرون ويخططون ويكيدون.. وليس على المؤمنين إلا أن يواجهوا أولئك القوم باليقظة والوعي والصبر والتقوى والاستقامة على الحق.. إنهم عندئذ يأمنون كيدهم ويدفعون عن أنفسهم شرهم.

لو قال قائل: نزل في واقع المسلمين اليوم قوله تعالى[3]:

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تتخذوا بطَانةً مِنْ دُونِكمْ لا يألُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ. قَدْ بَدَتِ البَغضاء مِنْ أفواهِهِمْ وما تُخفِي صُدُورهُمْ أكبَرُ قَدْ بيَّنَّا لكُمُ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٣.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١/٣١-٣٢.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٨-١٢٠.

الآياتِ إن كُنتُمْ تَعقِلون. هَا أَنْتُمْ أولاء تحبُّونَهُمْ ولا يُحبُّونَكُمْ وتُؤمنُونَ بالكتاب كُلِّه وَإذا لَقُوكُمْ قَالُوا آمنَّا وإذا خَلَوا عَضُّوا عَلَيكُمُ الأناملَ مِنَ الغَيظِ. قُل مُوتُوا بغَيظِكُمْ إنَّ الله عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُورِ. إنْ تَمْسَسكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤهُمْ وإنْ تُصِبكُمْ سَيئةٌ يَفْرَحُوا بها وإنْ تَصبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيدُهُمْ شَيئاً إنَّ الله بما يعملُونَ مُحِيط ﴾.

لو قال قائل نزلت في واقعنا هذه الآيات لكان مراده أنَّ هذه الآيات تنطبق علينا كل الانطباق ولكان ذلك من قبيل تفسير القرآن وتطبيق ذلك على الحياة المعاصرة. قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

[وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب كانت تنطق ابتداء على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين في المدينة، وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للاسلام والمسلمين، وللشر المبيت، وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم، في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعاً في أعداء الله هؤلاء، وما يزال يفضي إليهم بالمودة، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ويتخذ منهم بطانة وأصحاباً وأصدقاء، لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار.. فجاء هذا التنوير، وهذا التحذير، يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر، ويوعيها لكيد أعدائها الطبيعيين الذين لا يخلصون لها أبداً، ولا تغسل أحقادَهُمْ مودة من المسلمين وصحبة. ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة فهو حقيقة دائمة، تواجه واقعاً دائماً.. كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود [1]..] [2].

أقول: وفيما يجري في قضية فلسطين اليوم دليل جديد.. وصدق الله العظيم..

الشعب الرئيسية الثلاث في القرآن [3]:

لا يخفى أن الدين في معظمه يعمل على ترقية النفوس، وتربية العقول،

(١) انظر تتمة الكلام فانه رائع.

(٢) في ظلال القرآن طبعة قديمة ٤/٣٩ والطبعة الجديدة ١/٤٥٢.

(٣) انظر كتاب «التكميل في أصول التأويل» للفراهي ص ٣-٤ مع التصرف.

وإصلاح الأعمال الظاهرة. أي إن معظمه عقائد وأخلاق وشرائع، والقرآن الكريم قد تكفل بكل ذلك بأحسن ما يكون وهذه الشعب فيه متصل بعضها ببعض، مترابط بعضها ببعض، معتمد بعضها على بعض، فلا تكاد تقف على حكم من أحكام الفقه إلا وتراه معتمداً على العقيدة، منبهاً إلى الخلق الزكي والمعاملة الحسنة. وانظر إن شئت إلى بعض أحكام الأسرة كما وردت في سورة البقرة، كيف تذكر الآيات بأنَّ الله سميع عليم، غفور رحيم، عزيز حكيم، وكيف توصي الآيات باقامة حدود الله، وكيف تربط ذلك بالايمان بالله واليوم الآخر، وكيف تغري بالتزام حدود الله وأنه سبحانه يبينها لقوم يعلمون، وكيف تهدد وتتوعد من يتعداها بأنه يكون من الظالمين. يقول الله تعالى: ﴿ للذينَ يؤلونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤوا فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ وإنْ عَزَموا الطلاقَ فإنَّ الله سَميعٌ عَلِيمٌ. والمُطلقَاتُ يتربصْنَ بأنْفسِهِنَّ ثلاثَةَ قروء ولا يحلُّ لَهُنَّ أنْ يكتُمنَ ما خَلقَ الله في أرحامِهِنَّ إنْ كُنَّ يُؤمنَّ بالله واليومِ الآخرِ وبُعُولَتِهِنَّ أحقُّ بِرَدِّهِنَّ في ذلكَ إنْ أرادُوا إصلاحاً ولهنَّ مثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروفِ وللرجالِ عليهُنَّ درجةٌ والله عزيزٌ حَكِيمٌ. الطلاقُ مرّتانِ فإمساكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ ولا يحلُّ لكُمْ أنْ تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئاً إلا أنْ يخافا ألاَّ يُقِيما حدودَ الله فإنْ خفتم ألا يُقيما حدودَ الله فلا جناحَ عليهما فيما افتَدَتْ بِهِ تِلكَ حُدُودُ الله فلا تعتدُوها ومنْ يتعدَّ حدودَ الله فأولئكَ هُمْ الظالمون. فإن طلقها فلا تَحِلُّ لَهُ منْ بَعْدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيره فإنْ طلقها فلا جُناحَ عليهما أنْ يتراجَعا إنْ ظنّا أنْ يُقيما حدود الله وتلكَ حدُودُ الله يُبيّنها لقومٍ يَعلمُون. وإذا طلقتُم النساء فبلغن أَجَلَهُنَّ فأمسكُوهُنَّ بِمَعْروفٍ أو سَرِّحُوهُنَّ بمعروفٍ ولا تُمسكُوهنَّ ضِراراً لتعتدوا ومنْ يفْعَل ذلكَ فَقَدْ ظلمَ نَفسَهُ ولا تتخذوا آياتِ الله هُزواً واذكروا نِعمةَ الله عليكُم وما أنزلَ عليكُمْ مِنَ الكتابِ والحكمةِ يَعِظُكُمْ بِهِ واتقوا الله واعلموا أنَّ الله بكُلِ شيء عليم ﴾(١).

إننا لنلمح هاتيك الشعب الثلاث في هذه الآيات العقيدة والأخلاق والأحكام مترابطة أتم الترابط وبهذه الشعب الثلاث تحصل التزكية وهي الغاية

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٦-٢٣١.

والمطلوب قال تعالى: ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ في الأميينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عليهم آياتِهِ ويُزَكِّيهم وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمَةَ وإنْ كانُوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ﴾[1]. إنَّ من سلمت عقيدته وحسن خلقه واستقامت أمور حياته على أحكام شريعة الله كان تقياً نقياً، سعيداً في الدنيا والآخرة.

ولهذه الشعب علوم نشأت تقرر حقائقها، وتؤصل أصولها، وتبيّن مفرداتها وأحكامها.

فعلم الأخلاق والمواعظ هو العلم الذي بيّن الأخلاق وأهمّيتها وما يتصل بها.

وعلم التوحيد هو العلم الذي ضمّ العقائد بعضها إلى بعض ورتّب مباحثها وفصّل قضاياها وأورد أدلتها.

وعلم الفقه هو العلم الذي يبحث في الأحكام التي تشمل علاقات الانسان الخاصة والعامة وتُهَيْمِنُ على تصرفاته مع الآخرين.

وعندما كانت قواعد الاستنباط والتأويل مقصورة على علم الفقه لكونها موجودة في كتب علم أصول الفقه حرمت مباحث ذينك العلمين العظيمين علم التوحيد وعلم الأخلاق من الافادة من تلك القواعد.

وسنلمُّ ببيان الانحرافات التي وقع فيها علم الكلام الذي كان مجاله العقائد، والانحرافات والمخاطر التي وقع فيها التصوف الذي كان مجاله الأخلاق. وربما كان من أهم أسباب هذه الانحرافات غياب القواعد المحررة التي تضبط الاستنباط من كتاب الله عز وجل والأصول التي تعين المفسر على الوصول إلى الحقيقة.

ذكرنا أنَّ معظم آيات الكتاب الكريم يمكن أن تُصنَّف في ثلاث شعب: شعبة العقيدة، وشعبة الأخلاق، وشعبة الأحكام. وأن هذه الشعب قامت لخدمتها، وتقعيد قواعدها، ولمِّ أطرافها وموضوعاتها، علوم ثلاثة هي: علم التوحيد، وعلم الأخلاق، وعلم الفقه.

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

وذكرنا أنّ الفقه ضبطت طرائق الاستنباط فيه والاستدلال لأحكامه بقواعد محكمة، تعين الباحث على الوصول إلى الحقيقة، وتعصمه من الزلل والغلط. وهذه القواعد عرفت بعلم أصول الفقه. أما العلمان الآخران (التوحيد والأخلاق) فلم نعلم قيام علم أصول يضبط طرائق الاستدلال والاستنباط فيهما، ومن هنا كانت الانحرافات في كل من علم الكلام والتصوف. ويبدو أن علم أصول التفسير كان يمكن أن يساعد على الحدّ من الغلط في الاستنباط والاستنتاج.

هناك كما هو معروف انحرافات امتلأ بها علم الكلام، وهذا هو الذي جعل أئمة الهدى، وأنصار الحق، ودعاة السنة، ينفرون من علم الكلام، ويذمون المشتغلين به، ويتمنون لو فرضت عقوبات رادعة على من يذيعه ويعلمه، من هؤلاء الأئمة الامام الشافعي والامام أحمد بن حنبل وغيرهما.

هناك انحرافات تعرضت لها العقيدة الاسلامية، ونشأ عن تلك الانحرافات فرق ضالة، واتجاهات هدامة. وأنا أعلم أن لنشوء هذه الفرق أسباباً عدة، ولا يمكن أن يكون نشوؤها عائداً إلى سبب واحد.. بل تعاونت عوامل مختلفة انتهت بالمسلمين إلى هذا التفرق وكان ذلك مصداق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ــ أو اثنتين وسبعين فرقة ــ والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وفي رواية للترمذي من حديث عبد الله بن عمر أنه قال: «كلهم في النار إلا ملةً واحدة» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1].

ونحن في بحثنا في أصول التفسير نشير إلى سبب من هذه الأسباب ألا وهو سيطرة الهوى على من يستدل بآيات الكتاب وإخضاع القرآن لميوله واتجاهاته لا

(١) انظر الحديث في «الباعث على الخلاص» بتحقيقنا ص ١٣٢ وانظر «الحوادث والبدع» للطرطوشي ٣٠-٣٦ و«اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية ٣١ وما بعدها.

إلى ضوابط محكمة يُرْجَعُ إليها عند الأخذ من الكتاب الكريم.. وهناك بطبيعة الحال أسباب أخرى من أمثال كيد الأعداء لتفريق صف المسلمين واندساس الزنادقة في صف المسلمين لينشروا فيهم الزيغ والضلال وغير ذلك.

إن المعتزلة والجهمية والمرجئة والخوارج والباطنية والفرق الأخرى تعتمد في تقرير عقائدها على آيات القرآن... ولكن هذا الاعتماد مشوب بكثير من المغالطات والمخالفات لقواعد اللغة ودلالة السياق.. ولو كانت هناك ضوابط في الاستنباط لما كانت كل هذه الانحرافات مقبولة من أتباعهم.

انظروا إلى أمثلة من هذا الانحراف في الفهم الذي نجده مثلاً عند القرامطة:

فهم عندما يفسرون الآية الواردة في شأن الميراث وهي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ في أولادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَينِ فإن كُنَّ نِساء فَوقَ اثنتَينِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وإن كَانَتْ واحِدة فَلَها النِّصفُ... ﴾[1].

إنهم يتجاهلون دلالة السياق ومفردات اللغة واستعمالات العرب، فيفسرون الذَّكَر بأنه الإمام، ويفسرون الأنثى بالحجّة، والإمام والحجّة رتبتان في مذهبهم[2]. أيُّ عبث بالكتاب الكريم أكبر من هذا العبث؟

ويفسرون الآية الواردة في شأن يوم القيامة وهي قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلا تَأوِيلَهُ. يَوْمَ يأتِي تَأويلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءت رُسُلُ رَبِّنا بِالحقِّ فَهَل لَّنا مِنْ شُفَعَاء فَيشْفَعُوا لَنا أو نُرَدُّ فَنعْملَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْملُ. قَدْ خَسِروا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُون﴾[3].

إنهم يتجاهلون مفردات اللغة، ودلالة السياق واستعمالات العرب فيفسرون ذاك اليوم بأنه يومُ ظهور محمد بن إسماعيل[2].

ويفسرون الآية الواردة في وصف عذاب أهل النار وهي قوله تعالى:

---

(١) سورة النساء: الآية ١١.
(٢) انظر رسالة القرامطة لابن الجوزي بتحقيقنا ص ٦٤.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٣.

﴿ إنَّ الذينَ كَفَرُوا بآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّمَا نَضِجَت جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُم جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا العَذابَ إنَّ الله كانَ عزيزاً حكيماً ﴾ (١).

إنهم يتجاهلون دلالة السياق الصريحة الواضحة ويفسرونها بأنها تدل على عقيدة التناسخ الباطلة فقد قالوا ــ كما ينقل عنهم ابن الجوزي ــ: [وأما النفوس المنكوسة المغموسة في عالم الطبيعة المعرضة عن طلب رشدها من الأئمة المعصومين فإنها أبداً في النار على معنى أنها تتناسخ في الأبدان الجسمانية، وكلما فارقت جسداً تلقاها آخر] (٢). هل يتصور أحدٌ أن يكون انحراف وبعد عن الصواب أكثر من هذا الانحراف؟ لقد ألف أحد العلماء رسالة يبين فيها أن كل أصحاب المذاهب الهدامة كانوا يستدلون على باطلهم وعقائدهم الزائفة بآيات من القرآن.. ثم أورد استدلالاتهم واحداً واحداً.. ويرى الناظر فيها التمحل، وليّ عنق الآية، والاعتماد على المغالطة، وإغفال سياق الآيات وأسباب النزول.

إن هذا كله ليبين لنا أهمية قيام علم أصول التفسير بمهمته الجليلة وهي صيانة كتاب الله عن هذا العبث.

لقد حظيت شعبة الأحكام بعلم يضبط الاستنتاج والاستنباط وهو علم أصول الفقه، وقد عرفه أسلافنا منذ القرن الثاني الهجري إذ وضعه ــ كما هو معروف ــ الإمام الشافعي رحمه الله، وشعبة الأحكام واحدة من شعب توجد في كتاب الله.. ومن تلك الشعب شعبة الأخلاق التي قام بخدمتها علم الأخلاق.

وقد تلقف هذا العلم رجالٌ لم يقيدوا أنفسهم بضوابط تنظم تفكيرهم وتعصم استنتاجهم من الانحراف والغلط، وكان معظمهم من رجال التصوف.

والتصوف بأفكاره وإطاره ومصطلحاته أمر دخيل على الاسلام. وروافدُه وجذوره أضحت معروفة لدى الدارسين إذ هي مزيج من أصول هندية ويهودية ونصرانية وإسلامية، وليس المجال مجال التفصيل في نقد اتجاه التصوف ولا في ذكر الانحرافات التي ضمها سواء من الناحية النظرية كالقول بالحلول أو بوحدة الوجود

(١) سورة النساء: الآية ٥٦.

(٢) انظر رسالة القرامطة لابن الجوزي بتحقيقنا ص ٦١.

أو من الناحية السلوكية كالإخلاد إلى الذل والرضا بالمهانة والاستكانة أمام الكفار من الغزاة والمستعمرين، فذلك له مجال آخر، وقد ألفت فيه كتب في القديم وفي الحديث.

وكان منهج الباحثين في علم الأخلاق الذي كاد يصبح وقفاً على التصوف أنهم يضعون بعض الآراء والأفكار أمام أعينهم ويلتزمون بها ثم ينطلقون يتلمسون لهذه العقائد والآراء أدلة لها من القرآن.. وهنا يكون الغلط والانحراف.. لأنهم غالباً يعمدون إلى تحميل النصوص القرآنية ما لا تحمل، ويزعمون أنها تدل على ما يريدون تقريره من الآراء والأفكار، وقد يلجؤون إلى الإشارة، أو إلى قطع الكلمة والجملة عن سياقها وسباقها.

وهذا المنهج ــ من الناحية الموضوعية ــ منهج مردود غير مقبول. لأننا بذلك نجعل القرآن تابعاً لا متبوعاً، والله عز وجل أنزله ليكون حكماً ومرجعاً وأصلاً متبوعاً. وقد نبّه إلى هذا الخطأ المنهجي الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فقد كان [يقرر أنَّ المنهج السليم في التفسير أن نعتبر القرآن مصدراً لعقائدنا ومذاهبنا لا أن تكون عقائدنا ومذاهبنا متحكمة في القرآن] (١). نعم إنه لغلط كبير أن نضع النتيجة ثم نبحث لها عن المقدمات.

أو أن نضع العقيدة أو الحكم أو الرأي ثم نبحث لها عن الأدلة.

إن الأمر عندئذ يصبح خضوعاً للهوى، واستجابة لداعي التعصب المذهبي. ويبقى الانسان متابعاً لخطأ غيره من البشر.

إن آراء البشر مهما كان أفرادهم قابلة للخطأ أو الصواب، أما كلام الله فهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فكيف يرضى مسلم راغب في النجاة بين يدي الله أن يقدم آراء الناس على كلام الله... إنَّ علينا أن نتفحص عقائدنا وآراءنا وأفكارنا بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله، فما شهد له الكتاب والسنة بالصواب أخذنا به سواء وافق أهواءنا أم لم يوافقها.

---

(١) لمحات في علوم القرآن ٣١٧ ط ٢.

وذلك بعد مراعاة ما تقتضيه دلالة اللغة والسياق وما يشرحه ويبيّنه الحديث الصحيح.

ولو أردنا أن نذكر أمثلة على الانحراف الذي نلقاه عند المتصوفة في فهم القرآن لوجدنا الكثير.. ولكننا نجتزىء بذكر بعض الأمثلة لتوضيح الفكرة.

إن التفسير الاشاري الذي يفرّغُ الآيات من معانيها، ويجعل كلام الله رمزاً لا يقف عليه إلا أفراد معيّنون ممّن يتجهون هذا الاتجاه.

فمن ذلك ما جاء في كتاب «إحياء علوم الدين» [1] في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدمَ قدْ أنزلنا عَلَيكُمْ لِبَاساً يُواري سَوآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقوى ذَلِكَ خَيرٌ ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ لعلَّهُمْ يذَّكَّرُون ﴾ [2].

قالوا في تفسيرها: [يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ــ يعني العلم ــ وريشاً ــ يعني اليقين ــ ولباس التقوى ــ يعني الحياء] وهذا غير ما تدل عليه الآية.

ومن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ واعبُدُوا الله ولا تُشركُوا بِهِ شَيئاً وبالوالدَين إحساناً وبِذي القُربَى واليتامَى والمَساكِينِ والجارِ ذي القربَى والجارِ الجُنُبِ والصاحِبِ بالجَنْبِ وابنِ السَّبيل ومَا مَلكَتْ أيمانُكُمْ إنَّ الله لا يُحِبُّ مَن كانَ مُختالاً فَخُوراً ﴾ [3] قالوا: [الجار ذي القربى هو القلب. والجار الجنب هو الطبيعة. والصاحب بالجنب هو العقل المقتدي بالشريعة. وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله] [4].

ومن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البرِ والبَحرِ بِما كَسَبَتْ أيدي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ [5] قالوا: [مثّل الله

---

(١) احياء علوم الدين ١٢/١.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٦.
(٣) سورة النساء: الآية ٣٦.
(٤) التفسير والمفسرون ٣٠/٣.
(٥) سورة الروم: الآية ٤١.

الجوارح بالبر، ومثل القلب بالبحر وهم أعم نفعاً وأكثر خطراً].

ومن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أحييناها وأَخْرَجْنَا مِنها حَبّاً فَمِنْهُ يأكُلُون﴾ (١) قالوا: [القلوب الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ والاعتبار والموعظة، وأخرجنا منها حباً معرفة صافية تضيء أنوارها على الظاهر والباطن] (٢):

قال حسين الذهبي:

[هذا وأمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التي تحمل عليها لا غير لكان هو بعينه مذهب الباطنية وذلك لأن المعاني التي حملوا عليها الألفاظ في الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ... وليس في مساق الآيات ما يدل على هذه المعاني المذكورة، ومعلوم أن القرآن عربي، ومخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه وتراكيبه، فهذه الآيات المذكورة آنفاً لا يفهم منها العربي أكثر من المعاني المتبادرة إلى فهمه والتي تنساق إلى ذهنه ابتداء فلا يفهم من الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ولا من البر والبحر ولا من الأرض والحب إلا ما يفهمه العربي من هذه الألفاظ، وما وراء ذلك فليس عليه دليل.

وأيضاً لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه ولو كان معروفاً لنقل لأنهم أدرى بمعاني القرآن باتفاق الأمة وغير معقول أن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها ولا هم أعرف بالشريعة منهم، ولا أدرى بلغة القرآن من قومه الذين نزل بلسانهم وعلى لغتهم].

إن هذا كله يؤكد لنا أهمية علم أصول التفسير.

موقفنا من الأمور التي لم يبيّنها القرآن:

نستطيع أن نصنف أقوال العلماء في تفسير كتاب الله العظيم في زمرتين:

---

(١) سورة يس: الآية ٣٣.

(٢) التفسير والمفسرون ٣١/٣.

□ زمرة يكون فيها مجال للاستنباط والاجتهاد وقياس الأمر على نظيره وإعمال الفكر فيها.

□ وزمرة لا يمكن أن تعرف إلا عن طريق النقل عن المعصوم.. وهذه الزمرة هي الأمور الغيبية، كالإخبار عن أحوال أهل الجنة، وأهوال النار الرهيبة، ومصاعب يوم القيامة والحساب... أو كالإخبار عن الأمم المتقدمة والحوادث السابقة.

إن هذه الزمرة لا يمكن أن تعلم إلا عن طريق النقل. والموقف السليم فيها الوقوف عند حدود ما وَرَد، وألا تكون مجاوزة لهذا الوارد بالبحث والاجتهاد، ذلك لأن البحث في هذه الأمور التي طريق معرفتها النقل فقط بحث في غير طائل إن لم يكن قد ورد فيها شيء بسند صحيح، والاجتهاد فيها عبث وخلط وخبط، وظلم للعقل والمعرفة على حد سواء وقول على الله بغير علم.

إن على المفسر أن ينقب ويفتش: هل ورد بالأسانيد الصحيحة ما يوضح هذه الأمور ويعرفها.. فإن كان ورد شيء أخذ به واعتمده، وفسَّر به كلام الله العظيم.. وإلا أعرض عن متابعة البحث فيها، ونظر في جوانب أخرى في كتاب الله تعود على المسلمين بالنفع في دينهم ودنياهم في هذه الحياة وفي الآخرة.

وقد يفيد في تقرير هذه الحقيقة المهمة من حقائق أصول التفسير ضرب الأمثال، فذلك يوضح ويبيّن:

■ إنَّ لأصحاب الكهف كلباً كان يرافقهم. وقد ورد ذكره في القرآن كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أيقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بالوَصيدِ. لَو اطّلَعتَ عَلَيهِمْ لَوَلَّيتَ مِنهُمْ فِرَاراً ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ (١) فما اسم هذا الكلب؟ وما لونه؟ إنَّ ذلك مما لا يمكن معرفته إلا عن طريق النقل الصحيح.

■ **مثل آخر:** في سورة الكهف قصة الخضر مع موسى، عليهما السلام، وفي

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٨.

هذه القصة أنَّ ذاك الرجل الصالح الذي رافقه موسى ليتعلم منه، قتل غلاماً لقيه في الطريق كما قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إذا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ. قَالَ: أَقتلْتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئتَ شَيئاً نُكراً﴾[1]. فما اسم هذا الغلام المقتول؟ إنَّ ذلك مما لا يمكن معرفته إلا عن طريق النقل الصحيح.

■ **ومثل ثالث:** في سورة هود قصة نوح مع قومه جاءت مفصلة أروع تفصيل وفيها ذكر للسفينة التي صنعها نوح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وأوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون. واصنَعْ الفُلْكَ بأَعْيُنِنَا وَوَحْينا وَلا تُخَاطِبني في الَّذِينَ ظَلَمُوا إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنعُ الفُلكَ وكُلَّمَا مَرَّ عَلَيهِ مَلأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ: إنْ تَسْخَروا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُون﴾[2].

وورد ذكر السفينة أيضاً في سورة القمر؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّه أَنِّي مَغلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنا أبوابَ السَّماء بماء مُنهَمِر. وَفَجَّرْنا الأرضَ عُيوناً فَالتَقَى الماء على أمرٍ قَدْ قُدِرَ. وحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ ألواحٍ وَدُسُر. تَجري بأعيُنِنَا جَزاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ. ولَقَدْ تَرَكْنَاها آيةً فَهَل مِن مُدَّكِرٍ﴾[3] فما مقدار سفينة نوح هذه؟ وما طولها وما عرضها؟ وكم طبقة كان فيها؟ وما كان خشبها؟

إنّ الإجابة على هذه الأسئلة تقتضي الاعتماد على روايات منقولة بأسانيد صحيحة عن المعصوم. وليس هناك من هذه الروايات الموثوقة شيء.

هذا وما الفائدة التي يمكن أن نقف عليها من معرفة اسم كلب أصحاب الكهف ولونه؟ واسم الغلام الذي قتله الخضر؟ ومقدار سفينة نوح ونوع خشبها؟

إن ذلك مما لا فائدة في معرفته، ولا عبرة في الوقوف عليه. قال شيخ الاسلام ابن تيمية[4]:

---

(١) سورة القمر: الآية ١٠-١٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٧٤.

(٣) سورة هود: الآية ٣٦-٣٧-٣٨.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ص ٥٦.

[عامته ــ أي عامة هذا النوع ــ مما لا فائدة فيه، والكلام فيه من فضول الكلام، وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله تعالى نصب على الحق فيه دليلاً].

نعم! ليس هناك أمر يحتاج المسلمون إلى معرفته إلا وقد ورد تفصيله ببيان شاف في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كالعقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والموعظة والاعتبار وما إلى ذلك مما لا تقوم حياة المسلم إلا به. ومما يؤسف له أن عدداً من المؤلفين في حين من الدهر غابرٍ اشتغلوا في هذه الأمور وخاضوا فيها، وشغلوا العامة فيها كما نرى ذلك في سواد الناس في عدد من بلاد المسلمين. وما زلت أذكر أنني زرت بلدة من بلاد الشام، وحضرت فيها مجلس نفر من العامة المتدينين كانت أحاديثهم دائرة في هذه القضايا لا تخرج عنها، فقد سأل سائل منهم عن اسم كلب أهل الكهف، وبدأ يقيس علم العلماء بمعرفة هذه اللطائف والدقائق.

إن الاشتغال بهذه الأمور، واشغال الناس بها ينتهي إلى الصدّ عن حقائق القرآن سواء كان ذلك عن شعور أم عن غير شعور.. إن كتاب الله أنزل ليحكم حياة الناس ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدة فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بالحقِّ لِيَحْكُمَ بَينَ النَّاسِ فِيمَا اختَلَفُوا فِيهِ ﴾(١).

إنّ كتاب الله أُنزل ليحكم به أولو الأمر في المسلمين ﴿ وَمَن لَم يَحْكُمْ بِما أنزَلَ الله فأولَـئك هُمُ الكَافِرُون ﴾(٢).

إنّ كتاب الله أُنزل ليبيّن للناس الخلق الرفيع الذي يميز المسلم من غيره ﴿ إنَّ الله يأمُرُ بالعَدْلِ والإحسان وإيتاء ذي القُربى وَيَنْهَى عَنِ الفَحشاء والمُنْكَرِ والبَغْي يعظكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٣.
(٢) سورة المائدة: الآية ٤٤.
(٣) سورة النحل: الآية ٩٠.

إنّ كتاب الله أنزل ليهدي الناس للتي هي أقوم ﴿ إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (١).

فعلى الذي يريد أن يتصدى للتفسير أن يقف عند حدود ما بيّن الله، فما أغفل ذكره في الكتاب ولم يرد بيانه في سنة صحيحة فلا يفصّل القول فيه، ولا يعمد إلى روايات مختلقة مكذوبة يشغل بها عباد الله عن الحقائق والأوامر والنواهي.

إنَّ مما يهتم به علم أصول التفسير النظر في تحديد الموقف من بيان ما أجمل الله، ذلك لأن الذي يهجم على شرح ما ورد في هذا الكتاب الكريم دون حجة وبرهان يفتري على الله الكذب. إنها مسؤولية عظمى تلك التي يتحملها من يتصدى للتفسير.. فلْيَسَعنا ما وسع الصحابة رضوان الله عليهم في عدم الاشتغال بما لا فائدة تعود على المرء من البحث فيه.

نعم هناك أمور غيبية جاء عن رسول الله ﷺ الخبر الصحيح في بيان ما جاء مجملاً في القرآن، من ذلك اسم صاحب موسى الوارد في قوله تعالى: ﴿ فوجَدا عبداً مِنْ عِبَادنا آتيناهُ رحمةً مِنْ عنْدِنا وَعلّمناهُ مِنْ لَدُنّا عِلماً ﴾ (٢).

فقد جاء فيما رواه البخاري في صحيحه (٣) عنه ﷺ أنه الخضر. فنقف عند حدود ذلك ولا نجاوزه إلى متاهات الأخبار الواهية. وبذلك نكون قد قمنا بواجبنا نحو هذا الكتاب الكريم.

---

(١) سورة الاسراء: الآية ٩.

(٢) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٣) انظر فتح الباري ١/١٢٨.

الإسرائيليّات

إننا لنجد في أكثر كتب التفسير أخباراً مروية عن بني اسرائيل، وهذه الأخبار عرفت بالاسرائيليات. فما الموقف السليم من هذه الأخبار؟ وما رأينا في صنيع هؤلاء المفسرين؟

إن أثر هذه الإسرائيليات سيء جداً، فقد شوّهت كثيراً من معاني القرآن، وأفسدت التصور الاسلامي للحياة والكون، وشغلت الناس بأمور بعيدة عن روح القرآن، وكان في ذلك صرف لهم عن حقائق القرآن وإقامة حياتهم عليه.

ولنبدأ ببسط معالم الموضوع. الإسرائيليات جمع إسرائيلية، ويعنون بها القصة المنقولة عن بني إسرائيل. وكانت بداية تعرف المسلمين على هذه القصص أن هناك عدداً من التابعين كانوا من أهل الكتاب قبل أن يدخلوا في الاسلام وكانوا من العلماء بدينهم.. فلما أسلموا كانوا كثيراً ما يسألون عما ورد في كتبهم اليهودية والنصرانية مما يتصل ببعض القصص في القرآن. وغالباً ما كانت هذه الإسرائيليات قصصاً، وللقصة جاذبية خاصة، يميل المرء بفطرته إلى سماعها ويستمتع بالعيش في ظلالها ورواياتها، وتعلو قيمة القصة عندما تكون متصلة بنبي من أنبياء الله الذين يجب الايمان بهم ومحبتهم.

إذن مصادر الاسرائيليات كتب بني إسرائيل. وإننا لنعلم علم اليقين أن هذه الكتب قد أصابها التحريف والتبديل.. فلقد أخبرنا ربنا جلّ وعز أن هناك قوماً من أهل الكتاب يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله، بل هو صنعة أيديهم، يفعلون ذلك ليحصلوا على منافع مادية هزيلة. يقول الله تعالى: ﴿ فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فَوَيْل لَهُمْ مِمَا كَتَبَتْ أيدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ ممّا يَكْسِبُون ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٩.

إنهم يقولون على الله ما لا يعلمون كما قال تعالى: ﴿ وقَالوا لَنْ تَمَسَّنَا النارُ إلا أيّاماً معدُودَة. قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهداً فَلَنْ يُخلِفَ اللهُ عَهدهُ أمْ تَقُولُونَ عَلى الله ما لا تَعلَمُون ﴾ (١).

هكذا كان أمرهم يكتبون الكتاب بأيديهم ومن بنات أفكارهم، وينسبونه إلى الله قائلين: هذا من عند الله، فالويل لهم بذلك وينتظرهم سوء العذاب يوم القيامة. ولم يقتصر الأمر على الكتابة بل كانوا كذلك يقولون على الله ما لا يعلمون. ولنقرأ وصف فريق منهم كما جاء ذلك في القرآن. قال تعالى:

﴿ وَمِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤدِّهِ إليكَ. ومِنهُمْ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بدِينَارٍ لا يُؤدِّهِ إليْكَ إلا ما دُمتَ عَلَيْهِ قائماً. ذَلكَ بأنَّهُمْ قَالُوا: ليسَ عَلَينا في الأميّينَ سَبِيلٌ ويقُولُونَ على الله الكَذِبَ وهُمْ يَعلَمُون. بَلَى مَنْ أوفَى بعَهدِهِ واتَّقَى فَإنَّ الله يُحبُّ المتَّقِينَ. إنَّ الذينَ يَشترُونَ بعهدِ الله وَأيْمانِهِمْ ثَمناً قليلاً أولئك لا خَلاقَ لهمْ في الآخرةِ ولا يُكَلِّمُهُمُ الله ولا ينظرُ إليهِمْ يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهِمْ ولهمُ عَذَابٌ أليمٌ. وإنَّ مِنهمْ لفريقاً يلوُونَ ألسنَتَهُمْ بالكتاب لِتحسَبُوهُ مِنَ الكتَابِ وما هُوَ مِنَ الكِتَابِ ويقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله ومَا هُوَ مِنْ عِنْدِ الله ويقولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُون ﴾ (٢).

فكيف يمكن لنا أن نثق بمصادر هذا وَصْفُها وهذا حالها.

ولقد جاء الواقع التاريخيُّ بعد عصر النبيّ بآماد ليبيّن هذه الحقيقة أوفى بيان.. فنحن نقرأ أن القساوسة والبطاركة من رجال الكنيسة في أوربا كانوا يقفون من بعض الحقائق العلمية التي توصّل إليها العلماء موقف المعارض، بحجة أنها تعارض النصوص الدينية التي اخترعوها واختلقوها وافتروها ونسبوها إلى الله والدين. وقد حكمت هذه الجهات الكنسية بإلحاد عدد من العلماء وحاكمتهم، وحكمت على عدد منهم بالموت لهرطقته وزندقته، وما قال إلا ما توصل إليه بعد

(١) سورة البقرة: الآية ٨٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٥-٧٨.

البحث والتجربة.. إنها خرافات وأساطير من وَضْعِهِمْ نسبوها إلى الدين وبدؤوا يحاكمون الناس إليها.

إنّ هذا كله ليؤكد لنا أنَّ هاتيك القصص المنقولة عن أولئك القوم لا يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها، لأنَّ هناك احتمالاً كبيراً أن تكون مما وضعه الوضاعون وافتراه الكذابون المفترون. ولذلك ورد في الحديث الصحيح ـــ كما جاء في صحيح البخاري ـــ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل... الآية» يريد قوله في سورة البقرة ﴿ قُولُوا آمَنَّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ موسى وعيسى وما أُوتيَ النبيُّونَ من ربِّهم لا نفرِّق بينَ أحدٍ منهمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمون ﴾ (١).

وكما زاد ذاك الفريق في كتاب الله الذي أنزله عليهم كتموا بعضه واخفوه كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أُتي النبي ﷺ برجل وامرأة من اليهود قد زنيا. فقال لليهود: ما تصنعون بهما؟ قالوا: نسخم وجوههما ونخزيهما. قال: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فجاؤوا فقالوا لرجل ممن يرضون: يا أعور اقرأ. فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه. قال: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيه آية الرجم تلوح. فقال: يا محمد إن عليهما الرجم. ولكنا نتكاتمه بيننا. فأمر بهما فرجما. فرأيته يجانىء عليها الحجارة.

وإننا لنلمس مدى الانصاف والموضوعية في قول النبي ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم لاحتمال أن يكون الذي يقولونه من أصل ما أنزل عليهم.

قال ابن الملك في «مبارق الأزهار»: [إنما نهى ﷺ عن تصديقهم وتكذيبهم لأنهم حَرّفوا كتابهم وما قالوه إن كان من جملة ما غيروه فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل، وإن لم يكن كذلك يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

إن إيراد الاسرائيليات في تفسير كتاب الله خطأ منهجي، لأن في ذلك اعتماداً على مصادر غير موثوقة. ومخالفة لأمر النبي ﷺ في عدم تصديقهم.

أنواعها:

الإسرائيليات التي وصلت إلينا عن طريق علماء بني إسرائيل الذين دخلوا في الاسلام أنواع متعددة وقد دخلت ــ مع الأسف الشديد ــ في مجال التفسير، فعمد عدد من المفسرين إلى إيرادها في كتبهم.. وسيتبيّن لنا أنّ فِعْلَهم هذا خطأ كبير.

ويجب على من يتصدّى للتفسير أو من يقرأ في كتب التفسير أن يكون واعياً للموقف السليم الذي يجب أن يقفه المسلم من الإسرائيليات. ويمكن تلخيص هذا الموقف كما يأتي:

١ ــ تُردُّ كل الاسرائيليات التي تعارض القرآن، أو صحيح السنة، أو تعارض أصلاً إسلامياً مقرراً.

□ فالقرآن يقرر أنَّ المسيح ــ عليه السلام ــ لم يقتل ولم يصلب، ولكن شبّه للقوم. يقول تعالى عن اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ ميثاقَهُمْ، وكُفْرِهِمْ بآيات الله، وقَتْلِهِمُ الأنبياء بغيرِ حَق، وقَوْلِهِمْ: قلوبُنَا غُلْف بلْ طَبَعَ الله عليها فلا يؤمنونَ إلاَّ قليلاً، وبكفرِهِمْ، وقولِهِمْ على مريمَ بُهْتَاناً عظِيماً، وقولِهم: إنَّا قتلْنَا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ الله، وما قتلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ. وإنَّ الذينَ اختلفُوا فيه لفي شكٍ منه. ما لَهُمْ بِهِ من علمٍ إلا اتّباعَ الظنِّ. وما قتلوهُ يقيناً بَلْ رفعَهُ الله إليهِ وكانَ الله عزيزاً حكيماً ﴾[1].

فكل خبر يرد عن القوم يعارض هذا النص الصريح مردود. ذلك لأنَّ القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد حفظه الله من الزيادة والنقصان، وحماه من التبديل والتحريف، وصانه من التغيير والتزييف.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٥-١٥٨.

أما كتبهم الدينية فهي مملوءة بالافتراء والكذب وفيها نقص وحذف، وفيها تحريف للكلم عن مواضعه كما بيّن ذلك القرآن.

فعلى المسلم إذا سمع قصة من هاتيك القصص الاسرائيلية أن يعرضها على كتاب الله، فما عارضه نبذه نَبْذَ النواة ولم يعبأ به بحال من الأحوال.

□ وكذلك الإسرائيليات التي تعارض ما ورد عن رسول الله ﷺ بسند صحيح، فهي مردودة لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وهو معصوم فيما يبلغ عن ربه، فإذا صحَّ الحديث إليه صلوات الله وسلامه عليه كان حجة يعتمد عليها مفسر كتاب الله في ردّ الأكاذيب والخرافات التي لفقها الأحبار والرهبان من بني إسرائيل. وكيف لا يكون كذلك وهو ﷺ مكلف بأن يبيّن للناس ما نزل إليهم ﴿ وأنزلْنَا إليكَ الذِّكرَ لتبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ﴾ [1].

□ وكذلك تُرَدُّ الإسرائيليات التي تعارض أصلاً إسلامياً مقرراً، فمن هذه الأصول الاسلامية عصمة الأنبياء، وتَرَفُّعهم عن عمل السفهاء، وبُعدهم عن الوقوع في الفواحش والمحرمات، والأذى والعدوان... وقد أساء بنو إسرائيل إلى عدد من أنبياء الله إساءات متنوعة بالغة، فكذبوهم وقتلوهم بغير حق، فألصقوا بهم الخنا والنقص، والغدر والمكر، كما تنضح بذلك توراتهم المحرفة، وأناجيلهم المكذوبة. قال ابن الجوزي في «كتاب القصاص والمذكرين»: [إن القصص لأخبار المتقدمين تندر صحته، خصوصاً ما ينقل عن بني إسرائيل. وفي شرعنا غُنْية. وقد جاء عمر بن الخطاب بكلمات من التوراة إلى رسول الله ﷺ فقال له: «أمطها عنك يا عمر» خصوصاً إذ قد علم ما في الإسرائيليات من المحال، كما يذكرون أنَّ داود ـــ عليه السلام ـــ بعث أوريا حتى قتل وتزوج امرأته] [2] انتهى كلام ابن الجوزي.

أقول: وحديث عمر والتوراة جاء في «مسند أحمد» [3] عن جابر بن عبد الله

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٢) القصاص والمذكرون ١٥٨.
(٣) «مسند أحمد» ٣/٣٨٧.

أنَّ عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب فقال: «أمتهوكون فيها يا بن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى ﷺ كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني»(١). وفي سنده مجالد وهو ابن سعيد وهو لين. وجاء في «المختار»: [التهوّك: التحير. وفي الحديث «أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنصارى» قال الحسن: معناه: متحيرون].

وقد أورد ابن حجر في «الفتح»(٢) طرقاً عدة لهذا الحديث لم أجد فيها كلمة: «أمطها عنك يا عمر» ثم قال ابن حجر بعدها: [وهذه جميع طرق هذا الحديث، وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به لكن مجموعها يقتضي أنَّ لها أصلاً].

وأما إشارة ابن الجوزي إلى قصة داود وأوريا فإنه يريد ما تذكره كتب التفسير عن تفسير قوله تعالى: ﴿واذكرْ عبدَنَا داودَ ذَا الأَيْـدِ إنَّهُ أوَّابٌ. إنَّا سخَّرْنَا الجبالَ مَعَهُ يُسبِّحْنَ بالعشيِّ والاشراقِ والطيرَ محشورة كل لَهُ أوَّاب. وشَدَدْنا مُلْكَهُ وآتيناهُ الحكمة وفَصْلَ الخطاب. وَهَلْ أتاكَ نبأ الخصمِ إذْ تَسَوَّرُوا المحراب. إذْ دَخَلُوا عَلَى دَاودَ فَفَزِعَ مِنْهُم. قالُوا: لا تَخَفْ، خصمان بَغَى بعضُنَا عَلى بَعْض فاحكمْ بينَنَا بالحقِّ ولا تُشْطِط واهدنا إلى سواء الصراط، إنَّ هذا أخي لَهُ تسع وتسعونَ نعجةً وَلِيَ نعجةٌ واحدة، فقالَ: أكفِلْنِيها، وَعَزَّنِي في الخطاب. قالَ: لَقَدْ ظَلَمَكَ بسؤالِ نعجتِكَ إلى نعاجِه وإنَّ كثيراً مِنَ الخُلَطاء لَيَبْغي بعضُهم على بعض إلاَّ الذينَ آمنُوا وَعَملُوا الصالحاتِ وقليل ما هُمْ. وظنَّ داودُ أنَّما فَتَنَّاهُ فاستغفرَ رَبَّه

(١) بغض النظر عن درجة هذا الحديث فإنه ليعجبني كلام سيد قطب حوله إذ قال: [.. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يُقْصَرُ ذلك الجيل على كتاب الله وحده في فترة تكوينه، وإنما كان ذلك عن «تصميم» مرسوم ونهج مقصود. يدل على هذا القصد غضب رسول الله وقد رأى في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة... واذن فقد كان هناك قصد من رسول الله ﷺ أن يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل في فترة التكوين الأولى على كتاب الله وحده لتخلص نفوسهم له وحده ويستقيم عودهم على منهجه وحده. ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستقي من نبع آخر. كان رسول الله ﷺ يريد صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الالهي الذي يتضمنه القرآن]. معالم في الطريق ص ١٥-١٦.

(٢) فتح الباري ١٣/٥٢٥.

وَخرَّ راكعاً وأنابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلكَ. وإنَّ لَهُ عندنا لزُلفى وحُسْنَ مآب. يا داودُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خليفةً في الأرضِ فاحكُمْ بينَ الناسِ بالحقّ ولا تتَّبع الهوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سبيل الله. إنَّ الذين يَضِلُّونَ عَنْ سبيلِ الله لَهُمْ عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الحسابِ﴾[1].

والاسرائيلية التي تتصل بالآية طويلة ملخصها: [أن الملكين جاءا في صورة خصمين وقع لهما ما ذكر على سبيل الفرض لتنبيه داود على ما وقع منه: وكان له تسع وتسعون امرأة، وطلب امرأة أوريا ليس له غيرها، وتوسل إلى ذلك ببعث أوريا زوجها إلى الحرب حتى قتل، وعندئذ تزوجها][2].

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»[3]: [فأما ما روي من أنه نظر إلى المرأة فهويها، وقدّم زوجها للقتل فإنه وجه لا يجوز على الأنبياء، لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها].

وقد أنكر هذه القصة الباطلة القاضي عياض في «الشفاء»[4] والرازي[5] والخازن[6] في تفسيريهما. وقال البيضاوي: [وما قيل إنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً، وأمره أن يتقدم حتى قتل فتزوجها فهو هراء وافتراء][7].

قررنا أنَّ على من يقرأ في كتب التفسير أن يردّ القصة في الاسرائيليات إذا كانت متعارضة مع كتاب الله عز وجل، أو ما صحّ عن رسول الله ﷺ، أو كانت تعارض أصلاً من الأصول الاسلامية المقررة، وضربنا مثلاً على النوع الأخير ما ترويه بعض كتب التفسير عند تأويل قوله تعالى في قصة داود عليه السلام: ﴿إنَّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً وليَ نعجة واحدة فقالَ: اكْفِلْنيها وعزَّني في

(١) سورة ص: الآية ٢١-٢٦.
(٢) تفسير الجلالين بتصرف.
(٣) زاد المسير ٧/١١٦-١١٧.
(٤) الشفاء ٢/١٤٤ في الفصل الذي ردَّ فيه على من أجاز عليهم الصغائر.
(٥) تفسير الرازي ٢٦/١٨٩.
(٦) تفسير الخازن ٤/٣٥.
(٧) تفسير البيضاوي ٤/٨٨.

الخطاب. قالَ: لَقَدْ ظلَمَكَ بسؤالِ نعجتِكَ إلى نعاجِهِ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضُهم على بعض إلاَّ الذي آمنوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هُمْ، وظَنَّ داودُ أنما فتنَّاهُ فاستغفرَ ربَّه وخرَّ راكعاً وَأَناب. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلك وإنَّ لَهُ عندنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآب﴾ (١).

وقد فسروا النعجة بالزوجة، وزعموا أن الملكين جاءا لينبّها داود إلى ظلم وقع فيه عندما رأى زوجة أوريا الجميلة، فمال إليها وهويها، وأرسل زوجها إلى القتال، وكلفه بمهمات انتحارية حتى قتل، وعندئذ تزوجها، مع أن داود كان له تسع وتسعون زوجة!!!

ولقد قررنا بطلان هذه الأسطورة الزائفة، التي تتعارض مع عصمة الأنبياء، وترفعهم عن الفواحش والعدوان، والخسة والإيذاء، والدناءة والإتيان بما يخلّ بالمروءة...

فهذا الفعل الذي ينسبونه زوراً إلى داود عليه السلام لو صدر من إنسان عاديّ ليس نبياً لكان فعله بمنتهى الدناءة والخسة والعدوان. فكيف يتصور وقوع هذا من نبي كريم من أنبياء الله قال الله في حقه: ﴿وإنَّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ والتفسير الصحيح للآيات أن داود عليه السلام كان يحكم بين الناس، ومن كان هذا شأنه كان عليه قبل أن يصدر الحكم أن يسمع من الخصمين، وأن ينظر في أدلتها وما يقدمان من بينات ولكن داود ــ عليه السلام ــ سارع إلى الحكم فقال قبل أن يسمع من الآخر:﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾..

وقوله تعالى: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ أي عبدنا ذا القوة في العبادة والدين فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم كثيراً من الليل.. إنه رجّاع إلى مرضاة الله. وقوله تعالى: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾ الخصم أي ملكين في صورة إنسانين. والمحراب هو مسجد داود، وتسوروا المحراب: أي علوا سور مصلاَّة ونزلوا إليه حيث منعوا الدخول عليه من الباب لشغله بالعبادة.

---

(١) سورة ص: الآية ٢٣-٢٥.

وقوله: ﴿ولا تشطط﴾ أي لا تجر في حكمك. وقوله: ﴿أكفلنيها﴾ أي تنازل لي عنها واجعلني كافلها واجعلها لي وفي ملكي. وقوله: ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي غلبني وقهرني في المحاجة وشدد علي في القول وأغلظ، والنعجة هي النعجة المعروفة.

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله(١):

[والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل، ومن ثمَّ اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب منه بياناً، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم ﴿قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء﴾ أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض ﴿ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾ ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان؛ فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبيِّ المَلكُ، الذي ولّاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبيّن الحق قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة.. ولكنّ القاضي عليه ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد. قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغيّر وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء ﴿وظن داود أنما فتنّاه﴾ وهنا أدركته طبيعته.. إنه أوّاب.. ﴿فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب﴾. ﴿فغفرنا له ذلك. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً تتنزه عنه طبيعة النبوة، ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها. حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً. وهي لا تصلح للنظر من الأساس. ولا تتفق مع قول الله تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٠١٨.

ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس:

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق. ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إنَّ الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد. بما نسوا يوم الحساب﴾. فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى. واتباع الهوى — فيما يختص بنبي — هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التريث والتثبت والتبيّن.. مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال... ومن رعاية الله لعبده داود أنه نبّهه عند أول لفتة، وردّه عند أول اندفاعة، وحذره النهاية البعيدة، وهو لم يخط إليها خطوة. وذلك فضل الله على المختارين من عباده. فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة، فيقيلها الله، ويأخذ بيدهم ويعلّمهم ويوفقهم إلى الانابة ويغفر لهم ويغدق عليهم بعد الابتلاء].

وهكذا ينبغي أن يكون موقفنا من كل اسرائيلية تتعارض مع أصل اسلامي مقر.. إنَّ علينا أن نردّها سواء قرأناها في كتاب تاريخ أو تفسير، أو سمعناها من قاصّ في وعظه. وللقصاص الذين قَلَّ علمهم وآثروا الحياة الدنيا ومتاعها على ما عند الله، لهؤلاء القوم دور في نشر هذه الاسرائيليات وإذاعتها في العامة. ولا يقل ضررهم في هذا الصدد عن ضررهم في نشر الأحاديث الموضوعة التالفة (١).

ومن تتمة القول في النوع الأول من الإسرائيليات: وهو ما يعارض صريح القرآن أو صحيح السنة أو الأصول الاسلامية المقررة أن نقرر أن أكثر ما تذكره كتب التفسير من الاسرائيليات هو من هذا النوع. قال الشيخ محمد أبو زهرة:

[وإنّ المستقرىء لكتب التفسير المشتملة على الإسرائيليات يرى أن أكثر ما دُسّ فيها من هذا القبيل] (٢).

٢ — وهناك نوع آخر من الإسرائيليات يوافق القرآن.. وهذا هو النوع الثاني. وهذا النوع لا حاجة لنا به؛ لأنَّ لنا غنية عنه بما جاء في القرآن الكريم.. ولا يفيدنا فائدة جديدة. وكل ما نستطيع تقريره أن الاسرائيليات التي من هذا القبيل

---

(١) تحدثت عن ضررهم في الحديث، في مقدماتي للكتب التي أصدرتها عن القصاص.

(٢) المعجزة الكبرى ص ٥٩٥.

صحيحة لم يدخلها التغيير ولا التدبيل، فلو سئلنا عن رأينا فيها لأجبنا أنها صحيحة لشهادة القرآن لها. ولكنَّ إثباتنا لصحتها لا يعني أن نستشهد بها في تفسيرنا للقرآن الكريم؛ فكتابنا أصحُّ، وقد حفظه الله من التبديل والتحريف، والتغيير والتزييف، فما حاجتنا إلى اللجوء إلى كتب بدّل أكثرها؟ بل قد يكون في نقل الصحيح منها عن أهل الكتاب وإثباتها في التفسير قد يكون في ذلك تزكية لذاك المصدر وتوثيق له وتغرير بالعامة ليعتمدوا على إسرائيليات غيرها لم تثبت صحتها.

هذا والحادثة التاريخية قد تذكر في الإسرائيلية كما وقعت، ولكنها تخلو من التوجيه والاعتبار اللذين يقترنان بأحداث القصة في القرآن، ذلك لأنَّ القصص في القرآن ــ كما هو معروف ــ للعبرة والموعظة قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عبرة لأولي الألباب﴾ (١) وقال: ﴿فاقصُصِ القصصَ لعلّهم يتفكّرُون﴾ (٢) وقال: ﴿ وكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ من أنباء الرسلِ ما نثبّتُ بِهِ فُؤادَكَ ﴾ (٣).

إذن فإيراد الاسرائيلية الموافقة للقرآن كما وردت في كتب بني إسرائيل يجردها قطعاً من تلك المواعظ الكريمة، والتوجيهات السامية، وقد تُعرض بروح بعيدة عن الجوّ الاسلامي، والمنطلقات الاسلامية... ولكن مهما يكن من أمر فإن روايتها إذا رويت أخف من سابقتها، وإن كان الاستغناء عنها أفضل وأسلم.

٣ ــ والنوع الثالث من الإسرائيليات؛ هو ما يخالف العقل، ويحكم العقل ببطلانه.. وهذا النوع مردود أيضاً. وقد أشار إليه الحافظ ابن كثير رحمه الله، ومن المفيد أن نورد كلامه بحروفه، فقد أحسن وأجاد، وجاء بالمثل على هذا النوع، فلقد أنكر ما ذكره بعضهم في تفسير قوله تعالى﴿ ق. والقرآنِ المجيدِ﴾ إذ قال هؤلاء: إن (قَ) جبل محيط بجميع الأرض. قال رحمه الله: [روي عن بعض السلف أنهم قالوا: (قَ) جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف، وكأنَّ هذا ــ والله أعلم ــ من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

(٣) سورة هود: الآية ١٢٠.

رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يُصدّق ولا يكذب. وعندي أنَّ هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبّسون به على الناس أمر دينهم، كما افتُرِيَ في هذه الأمة ــ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ــ أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قِدَم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟!! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأمّا فيما تحيله العقول، ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل. والله أعلم] (١).

أقول: والحديث الذي أشار إليه ابن كثير وهو حديث «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» حديث صحيح أخرجه البخاري والدارمي والترمذي عن عبد الله بن عمرو. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود عن أبي هريرة، ورواه أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري، ورواه آخرون (٢).

ثم قال ابن كثير: [وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ولله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمه الله أورد ههنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس] (١) وأورد أثر ابن عباس عن أسطورة الجبل المحيط بالدنيا ثم حكم على الحديث بالضعف للانقطاع الذي فيه.

وهكذا فإن كل ما يحكم العقل باستحالته وبطلانه مما يرويه الناس من الاسرائيليات ينبغي رده ولا يجوز قبوله حتى ولو لم يعارض نصاً صريحاً في الكتاب والسنة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/٣٧٢.

(٢) انظر تخريج الحديث في كتابنا «لمحات في علوم القرآن» ٢٦٦ ط ٢.

هذا وإنك لترى أعداء الإسلام ينبشون هذه الخرافات والأباطيل يعرضونها على أنها من الدين ليشوهوا صورته في نفوس المسلمين وليشككوهم في دينهم الحق.. يقول تعالى عن أعداء الله: ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يكونُوا لكُمْ أعداءً ويَبْسُطُوا إليكُمْ أَيْدِيَهُمْ وأَلْسِنَتَهُمْ بالسوءِ، وَوَدُّوا لَوْ تكفُرونَ ﴾ [1] ويقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أوتُوا نصيباً من الكتابِ يشترونَ الضلالةَ ويُريدونَ أنْ تَضِلُّوا السبيلَ. والله أعلمُ بأعدائكُمْ وكَفَى بالله وليّاً وكَفَى بالله نَصيراً ﴾ [2] ويقول في المنافقين من أعداء الله: ﴿ فَما لكمْ في المنافقينَ فئتينِ، والله أركسَهُمْ بما كَسَبُوا. أتُريدونَ أنْ تَهْدُوا مَنْ أضلَّ الله. ومن يُضللِ الله فَلَنْ تَجِدَ له سبيلاً ودُّوا لَوْ تكفرونَ كما كَفَرُوا فتكونونَ سواء، فلا تتخذُوا منهم أولياء حتَّى يُهاجروا في سبيلِ الله ﴾ [3] ويقول تعالى: ﴿ ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعدِ إيمانِكُمْ كفَّاراً ﴾ [4] ويقول: ﴿ وَدَّت طَّائفة مِنْ أهلِ الكتابِ لو يُضِلُّونَكُمْ، وما يُضلُّونَ إلا أنفسَهم وما يشعرون ﴾ [5].

ولكن الله تبارك وتعالى حمى هذا الدين، وحفظ كتابه من كل زيادة ونقصان.

فعلى المسلم الواعي أن يتيقظ لكيد هؤلاء الكائدين ومكرهم ودسهم.

وعلى من يفسر كتاب الله أن يكون على حذر من هاتيك الإسرائيليات، وأن ينقي تفسيره منها ويصونه عن مخاطرها وأذاها.

ذكرنا أن الاسرائيليات أنواع:

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٢.
(٢) سورة النساء: الآية ٤٤-٤٥.
(٣) سورة النساء: الآية ٨٨-٨٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٩.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٦٩.

١ ـ الإسرائيليات التي تعارض القرآن أو صحيح السنة أو الأصول الاسلامية المقررة وذكرنا أنها مردودة.

٢ ـ والإسرائيليات التي توافق القرآن، وذكرنا أنَّ لنا غنية عنها بما جاء في كتابنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأشرنا إلى أنه قد يكون هناك محذور من إيرادها، وهو تزكية مصدرها، والإبقاء على الروح التي تحيط بها، وتجريدها من العبرة التي سيقت القصة في القرآن لتقريرها.

٣ ـ والإسرائيليات التي تخالف العقل ومثّلنا لها وبيّنا أنها مردودة.

٤ ـ ونودُّ الآن أن نتحدث عن نوع من الإسرائيليات سُمح لنا أن نرويها ونقصّها، وذلك في قوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» ونهينا عن تكذيب ما نسمع من بني إسرائيل وعن تصديقه.

إنّ هناك إسرائيليات لا تعارض القرآن ولا توافقه، ومن المحتمل أن تكون صادقة ومن المحتمل أيضاً أن تكون كاذبة؛ إذ لا مقياس عندنا نرجع إليه في الحكم عليها ما دامت لا توافق النصوص الثابتة التي بين أيدينا ولا تعارضها، فالهجوم على تصديقها أو تكذيبها قول بغير علم وجرأة على الحق لا تصدر ممن يستقيم على طريق الرشاد.

إن موقفنا من هذه الروايات التي من هذا القبيل ينبغي أن يكون [موقف الحذر والأناة والحياد: لا نكذبها خشية أن تكون صحيحة، ولا نصدقها خوفاً من أن تكون مكذوبة وهذا مصداق ما جاء عن رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» و﴿قُولُوا آمنَّا بالله وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيّونَ من ربِّهمْ لا نُفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾]. وجاء في رواية ذكرها ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»[1]: «... ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا... الآية».

(١) مجموع الفتاوى ١٩/٦٣.

والحديث المذكور يبيح لنا أن نروي عن بني إسرائيل هذا النوع من الاسرائيليات المسكوت عنه إن نحن التزمنا عدم تصديقهم وعدم تكذيبهم. ولكنَّ هذا شيء وإيراد هذه الإسرائيليات في أثناء تفسير كتاب الله شيء آخر. ذلك لأن إيراد هذه الرواية في هذا الموضع يعني أنك تريد حمل الآية القرآنية عليها، وهذا يدل على تصديقك لها. قال الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله:

[إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعيّن فيها، أو في تفصيل ما أجمل ما فيها شيء آخر؛ لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبيّن لمعنى قول الله سبحانه، ومفصّل لما أجمل فيه.

وحاشا لله ولكتابه من ذلك. وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم أمَرَنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم. فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان. اللهم غفراً] (١).

وقال الحافظ ابن كثير:

[وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بين أيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الانقياء، والأبرار النجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي،

(١) عمدة التفسير ١/١٥.

والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر، أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه...][1].

وقال في تفسير سورة الأنبياء:

[.. وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً. وما كان من هذا الضرب منها، فقد ترخص كثير من السلف في روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الاسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة][2].

ويقول ابن عباس ــ كما روى ذلك البخاري في صحيحه ــ: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ١٦٥/٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٣٤١/٥-٣٤٢.
(٣) صحيح البخاري ١٥٨/٣ و٩٠/٩.

الكشف عن أسرار البلاغة في القرآن

إنّ مما يتصل بإتقان تفسير كتاب الله أن يدرك المتصدي للتفسير أن من مهماته الكبرى الكشف عن أسرار البلاغة وجوانب الإعجاز في هذا الكتاب الكريم، وتقرير هذا يتصل بأصول التفسير أوثق الاتصال.

إن أكثر الناس — حتى من العرب المسلمين — لا يصلون إلى تذوق الفصاحة والبلاغة بأنفسهم، لبعدهم عن المستوى اللغوي الرفيع، ولأن عربية الناس التي يتكلمونها ويقرؤونها في صحفهم ويسمعونها ضعفت وتخلفت لما عراها من العجمة والتأثر بالأساليب الركيكة، واللهجة العامية الهجينة.

وقد بدأ العلماء بالتنبه إلى هذا الأمر من زمن مبكر، من القرن الثاني والثالث الهجريين وما بعدهما، وكان لطوائف عدة من المختصين أدوار في تبيين هذا الأمر.

والحق أنَّ أثر القرآن واضح في اللغة العربية التي يتكلم بها اليوم ما يزيد على مائة وخمسين مليوناً من العرب (١)، ويعرفها قراءة وبحثاً أعداد كبيرة من المسلمين.

ويتجلى هذا الأثر في نواح عدة من النطق والأسلوب والمعاني؛ ولن نتحدث عن أثر القرآن في تقرير عدد من المعاني في اللغة العربية فذاك موضوع طويل، بل سنشير إلى أثر القرآن في اللغة في مجال النطق والأسلوب.

□ ولنضرب مثلاً على أثر القرآن في الأداء والنطق موضوع الهمز، الذي يسود اللغة الفصحى اليوم، مع أن كثيراً من القبائل العربية في الجاهلية والإسلام كانت تسهل الهمزة، ومن تلك القبائل قريش. وساد هذا التسهيل في لهجاتنا العامية في العصر الحاضر، فنحن لا نهمز الكلمات الآتية (نأكل — ورأس — وبئر) بل نقول: ناكل — وراس — وبير، ولكننا إذا أردنا أن نكتب أو أن نخطب

(١) ذكر لي الاستاذ محمود شاكر الحرستاني أن عدد العرب الآن يزيد على ١٥٥ مليون نسمة. وهو مختص بالجغرافيا.

ملتزمين الفصحى عمدنا إلى الهمز.. إن هذا من أسباب تأثرنا بالقرآن الذي نقرؤه على قراءة حفص التي تلتزم الهمز.

□ وأما أسلوب القرآن وأثره في اللغة، فلقد ظل هذا الأسلوب المثل الأعلى عند مبتغي الإجادة في النثر والنظم.... ومن أجل ذلك يعمد المشتغلون بالعربية إلى حفظ هذا الكتاب وترديد آياته في آناء الليل وأطراف النهار، ومنهم من يلتزم قراءة صفحات منه قبل أن يشرع في الكتابة أو النظم. وقد بلغني أن عدداً من غير المسلمين الذين يتطلعون إلى اكتساب الأسلوب الجزل المتين، والاقتدار على التعبير بلغة رفيعة، وديباجة مشرقة كانوا يحفظون هذا القرآن كلّه أو جلّه أو بعضه.

إنه أسلوب جديد فريد، لم تعرف العرب قبله ولا بعده أسلوباً يماثله أو يقترب منه، حتى حمل ذلك بعضهم على تقسيم الكلام إلى أقسام ثلاثة: شعر ونثر وقرآن. إنّ هذا التقسيم ــ وإنْ كان غير صحيح لأن القرآن نثر قطعاً ــ ليشعرنا بالاحساس بأنَّ هذا الكلام لا نظير له، ولم تعهد العرب له مثيلاً، وقديماً قال قريباً من هذا القولِ الوليدُ بن المغيرة الذي قال:

(ماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله محمد شيئاً من هذا. والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه) (١).

إنه أسلوب يعتمد تنوع طرائق التعبير:

□ فأنت تجد فيه التصوير الفني الرائع، ونردُّ القراء الكرام إلى كتاب الأستاذ الذواقة سيد قطب وهو كتاب «التصوير الفني في القرآن» فقد قرر أن طريقة القرآن المفضلة في التعبير هي طريقة التصوير.

□ وأنت تجد فيه التكرير الذي يزيد الكلام جمالاً وحلاوة وروعة، وقد كتب في ذلك كتاب متقدمون وآخرون محدثون، وهذا التكرار تلقاه في تكرار القصة، وتكرار الجملة. فقصة موسى وفرعون ذكرت مراراً في هذا الكتاب، ولكن لكل

(١) لمحات في علوم القرآن ص ٨٣ ط ٢.

موضع طعماً وحلاوة ومغزى يختص به.. والتعقيب بجملة وتكرارها يزيد الكلام حسناً. من نحو ﴿ إنَّ في ذلِكَ لآيةً وَما كانَ أكثرُهُمْ مُؤمنينَ وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ ﴾ في سورة الشعراء ومن نحو ﴿فَبِأيِّ الآء ربِّكُما تُكَذِّبَانِ ﴾ في سورة الرحمن ومن نحو ﴿فكَيْفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ للذكرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ في سورة القمر ومن نحو ﴿وَ يْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكذِّبينَ ﴾ في سورة المرسلات.

□ وأنت تجد فيه الموازنة بين حالين مختلفين وضدين متقابلين، حتى يستبين الأمر على جليته للسامع والقارىء. فالجنة تذكر وتوصف، ويكون إلى جانبها وصف للنار وذكر لها، إما أن يسبقها وإما أن يلحقها. وقد قيل: وبضدها تتميز الأشياء. ولنقرأ قوله تعالى في سورة النبأ:

﴿ إنَّ جَهنَّمَ كانتْ مِرْصَاداً. للطاغينَ مآباً. لابثينَ فيها أحْقَاباً. لاَ يَذُوقونَ فيها بَرْداً وَلاَ شَراباً. إلاَّ حميماً وغسَّاقاً. جَزَاء وِفَاقاً. إنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً. وَكذَّبُوا بآياتِنَا كِذَّاباً. وَكُلَّ شَيْءٍ أحصَيْنَاهُ كِتاباً. فَذُوقُوا فَلَنْ نَزيدَكُم إلاَّ عِذاباً.

إنَّ للمتقينَ مفازاً. حدائقَ وَأعْنَاباً. وَكَوَاعِبَ أتْراباً. وَكَأساً دِهَاقاً. لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً. جَزَاء مِنْ رَبِّكَ عَطَاء حِساباً. رَبِّ السمواتِ والأرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمنِ لا يَمْلِكونَ مِنْهُ خِطَاباً. يَوْمَ يَقُومُ الروحُ والملائكةُ صَفّاً لا يتكلمونَ إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرحمنُ وقالَ صَوَاباً ﴾ [1].

وكذلك الظالمون والمؤمنون ولنقرأ ما جاء فيها في سورة الكهف.

﴿ وَقُلِ الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاء فَلْيُؤمِنْ وَمَنْ شَاء فَلْيَكْفُرْ. إنَّا أعْتَدْنا للظالمينَ نَاراً أحاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وإنْ يَستغيثُوا يُغاثوا بماء كالمُهْلِ يَشْوي الوجوَه بئسَ الشرابُ وساءت مرتفقا.

إنّ الذينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ إنَّا لا نضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً. أولئكَ لَهُمْ جنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهُم الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أساوِرَ مِنْ ذَهبٍ

(١) سورة النبأ: الآية ٢١-٣٨.

وَيَلْبَسُونَ ثياباً خُضْراً من سُنْدُسٍ وَإِسْتبرقٍ متكئينَ فيها على الأرائكِ نِعْمَ الثوابُ وَحَسُنَتْ مُرتَفَقا ﴾ (١).

الكناية والتعريض:

□ ومن التنوع في طرائق التعبير أنك تجد في هذا الكتاب المعجز الخالد التصريح حيناً، والكناية حيناً، والتعريض حيناً آخر... وفي هذا التنوع جمال في الأسلوب، وطرد شبح الملل، وشدّ السامع إلى تدبر آياته. ومن الكنايات الجميلة قوله تعالى: ﴿ أوَ مَنْ يُنَشَّأ في الحليةِ وَهُوَ في الخصامِ غَيْرُ مُبينٍ ﴾ (٢) يريد الأنثى التي تُنَشَّأ في الحلية وهي لحيائها لا تبين في الخصومة. جاء ذلك في أثناء إنكاره سبحانه على الكفار الذين افتروا على الله الكذب، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن بنات لله، وهم يأنفون من البنت وينسبون لها النقص، وذكر أنه إذا بُشِّر أحدهم بما جعلوه لله من البنات [يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بُشِّرَ به، ويتوارى من القوم من خجله بذلك... فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل؟] (٣) ليس في هذا توقير لله.. بل هو الكفر والظلم كما قال تعالى: ﴿ ألكُم الذكرُ وَلَهُ الأنثى. تلكَ إذاً قسمةٌ ضِيزَى ﴾ (٤). وهذه الكناية جاءت في قوله تعالى:

﴿ وَجَعلُوا لَهُ مِنْ عَبادِهِ جُزْءاً إنَّ الانسانَ لكفورٌ مبينٌ. أم اتخذَ ممَّا يخلُقُ بناتٍ وَأَصْفاكُمْ بالبنينَ. وإذا بُشِّرَ أحدُهم بما ضَرَبَ للرحمنِ مَثَلاً ظلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظيمٌ. أوَ مَنْ يُنَشَّأ في الحليةِ وَهُوَ في الخصامِ غيرُ مُبينٍ. وَجَعلُوا الملائكةَ الذينَ هُمْ عبادُ الرحمنِ إناثاً. أشَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكتَبُ شهادتهُم ويُسْألونَ. وَقَالُوا: لَوْ شَاء الرحمنُ ما عَبَدْنَاهُمْ ما لَهُمْ بذلك مِنْ علمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩-٣١.

(٢) سورة الزخرف: الآية ١٨.

(٣) هذه العبارات من ابن كثير ٤/١٢٥. ومن الطبعة الثانية ٧/٢٠٩.

(٤) سورة النجم: الآية ٢١-٢٢.

(٥) سورة الزخرف: الآية ١٥-٢٠.

وتقدير الكلام في الآية المذكورة (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين): أي أو يجعلون لله [١] من ينشأ في الحلية أي البنات. وهذا إنكار من الله لزعمهم الباطل وكفرهم الصريح.

قال الزركشي: [وأما التعريض فقيل: إنه الدلالة على المعنى من طريق المفهوم، وسُمِّي تعريضاً؛ لأنَّ المعنى باعتباره يفهم من عُرْض اللفظ، أي من جانبه، ويُسمَّى التلويح؛ لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده، كقوله تعالى: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسألُوهُم إنْ كَانُوا يَنْطقُونَ ﴾ [٢]، لأنَّ غرضه بقوله: ﴿فاسألوهم﴾ على سبيل الاستهزاء وإقامة الحجة عليهم بما عرَّض لهم به، من عجز كبير الأصنام عن الفعل، مستدلاً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سئلوا، ولم يرد بقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة] [٣].

يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالمينَ. إذْ قَالَ لأ بيهِ وقومِهِ: ما هذهِ التماثيلُ التي أنْتُمْ لها عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آباءنا لَها عابدينَ. قَالَ: لَقَدْ كُنْتُم أنتُمْ وآباؤكُمْ في ضَلالٍ مبينٍ. قالُوا: أجئتَنا بالحقِّ أمْ أنتَ مِنَ اللاعبينَ. قالَ: بلْ رَبُّكُمْ ربُّ السمواتِ والأرض الذي فَطَرهُنَّ وَأنَا على ذَلِكُمْ مِنَ الشاهدينَ. وَتَاللهِ لأكيدَنَّ أصْنَامَكُمْ بَعْدَ أنْ تُوَلُّوا مُدبِرينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلاَّ كبيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إليه يَرْجِعُونَ.

قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بآلِهَتِنَا إنَّهُ لَمِنَ الظالمينَ. قَالُوا: سَمِعْنَا فتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيمُ. قَالُوا: فَأْتُوا بِهِ عَلَى أعْيُنِ الناسِ لَعَلَّهم يَشْهَدُونَ. قَالُوا: أأنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بآلِهَتِنَا يا إبراهيمُ. قَالَ: بَلْ فَعَلهُ كَبيرُهُمْ هَذا فَاسْألُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطقُونَ. فَرَجَعُوا إلَى أنْفُسِهِمْ فَقَالُوا: إنَّكُمْ أنْتُمُ الظالمونَ. ثُمَّ نُكِسُوا على رُؤوسِهِمْ: لَقَدْ عَلِمْتَ ما

(١) انظر «تفسير الجلالين».

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٣.

(٣) البرهان ٣١١/٢.

هَؤلاء يَنْطِقُونَ. قَالَ: أَفَتَعْبُدونَ مِنْ دون الله مَا لاَ يَنْفعُكُم شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ. أُفٌ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله أفلاَ تَعْقِلُونَ. قَالُوا: حَرِّقُوهُ وانصُروا آلهتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فَاعلين. قُلْنَا يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً على إبراهيمَ. وأرادُوا بِهِ كَيْداً فجعلناهُمُ الأَخْسَرينَ ﴾ (١). وهذه القصة فيها جوانب للموعظة والدراسة والتحليل، ولن نتعرض لشيء من ذلك ولكننا نريد أن نبيّن التعريض الجميل في قول إبراهيم: ﴿ بَلْ فَعلَهُ كبيرُهُم هَذا فاسألُوهُمْ إنْ كانُوا ينطِقُون ﴾ قال ابن كثير: [وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد] (٢).

وقال سيد قطب: [... فأما إبراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم، وهو فردٌ وحده، وهم كثير، ذلك أنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل، فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلي الدون: ﴿ قالَ بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هذَا. فاسألُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾.

والتهكّم واضح في هذا الجواب الساخر... إنما أراد أن يقول لهم: إن هذه التماثيل لا تدري من حطّمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكاً، فهي جماد لا إدراك لها أصلاً. وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل. فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطمتها أم إن هذا التمثال هو الذي حطمها. فاسألوهم إن كانوا ينطقون.

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزّهم هزاً، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون] (٣).

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله: قوله: (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله: (إني سقيم)...» ثم ذكر قصة تعرّضه في مصر إلى ذاك الملك الجبار الذي

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٥١-٧٠.
(٢) ابن كثير ٣/١٨٣.
(٣) الظلال ٤/٢٣٨٦-٢٣٨٧.

أراد أن يعتدي على سارة زوجه فحماها الله منه إلى آخر الحديث. والحديث يذكر أن ذلك الكذب كان في ذات الله، وتسميته كذباً مراعاة للمعنى اللغوي، إذ الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه[1]، ولكن ذلك كان في ذات الله من جهة وكان من المعاريض من جهة أخرى. والتعريض ليس كذباً في الحقيقة[2].

إن تعدد طرائق التعبير وتنوعها أمر له أهميته في إضفاء الروعة والجمال والامتاع على أسلوب الكلام وهذا مما ينبغي أن يتنبه له المفسر ويعطيه حقه من الرعاية.

(١) القرطبي ٣٠١/١١.

(٢) هذا ولأبي السعود في تفسيره توفيق لا يخلو من تكلف فانظره في تفسيره ٧١٢/٣. وقد يكون غاب عن بال الأستاذ سيد رحمه الله هذا الحديث الصحيح عندما قال: (فلا داعي لتسمية هذه كذبة من ابراهيم). والذي سماها كذلك سيدنا رسول الله فيما صح عنه. سامحه الله وإيانا وغفر لنا وله.

دور القرآن في حفظ العربيّة وإثرائها

ليس من شك في أن هذا القرآن أعظم كتاب عرفه البشر، فيه الهداية من الضلال، وفيه السعادة لمن يعمل به في الدنيا والآخرة، وفيه الحق الذي لا تقوم الحياة الفاضلة إلا به... وفيه العزة لمن آمن به وتبنّاه وصدر عنه في تصوره وتصرفه.

﴿ألم. ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدَىً للمتقين﴾ (١) ﴿يا أهلَ الكتابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنا يبيِّنُ لكم كثيراً ممّا كُنْتُم تُخْفُونَ مِنَ الكتابِ وَيعْفُو عن كثيرٍ. قَدْ جَاءكُمْ منَ الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ. يهدي بهِ الله منَ اتَّبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهمْ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ بإذنِهِ وَيَهْديهم إلى صراط مستقيم﴾ (٢) وهو كتاب مبارك تتنزل الرحمة على متبعيه ﴿وهذا كتابٌ أنزلناهُ مبارك فاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلكم تُرْحَمُونَ﴾ (٣). وفي هذا الكتاب بيان كل ما تتوقف عليه سعادة الفرد والأمة وهو الهدى والرحمة ﴿وَنَزَّلْنا عليكَ الكتابَ تِبْيَاناً لِكلِّ شَيْءٍ وَهُدىً ورحمةً وبُشْرَى للمسلمينَ﴾ (٤).

إنه انفس ما في الوجود، فلله الحمد والمنة أنْ شرّفنا بهذا الدين وهذا الكتاب.

هذا وإنَّ إدراك نفاسة الأثر أو الشيء الذي يعمل فيه المرء يعينه على تعميق نظرته، والمبالغة في الجد ومتابعة الدأب في البحث، ويكون سبباً إلى الوصول إلى نتائج مفيدة عظيمة.

ومن هنا كان على المفسر الذي يتصدى لشرح أعظم كتاب وأبلغ نص،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٥-١٦.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٥.
(٤) سورة النحل: الآية ٨٩.

وأروع أثر، كان عليه أن يدرك نفاسته وسموه وآفاق عظمته وروعته.

□ إن هذا القرآن صنع أمة الإسلام صنعاً فريداً حتى حَمَلَتْ هذه الحقيقة التي لا شكَّ فيها أحد مفكري الإسلام على تسمية جيل الصحابة بالجيل القرآني الفريد[1].

□ إن هذا القرآن ضَمِنَ للغة الشريعة التي نزل بها، الخلود إلى يوم الدين.. وبذلك اتصفت هذه اللغة بالثبات والمحافظة.. وبذلك أيضاً أصبحت هذه اللغة العربية مقدسة لارتباطها الوثيق بكتاب الله. وأثر القرآن في اللغة والأدب موضوع واسع يستحق أن تفرد فيه مؤلفات، ولن تفيه حَقَّهُ كلمةٌ في دقائق معدودات.

لقد تأثر شعراء العربية وكتّابها على مدى العصور بأسلوب هذا الكتاب العظيم، وبمعانيه الخالدة، وتنافسوا في الاقتباس منه، والتقرب من مستواه الرفيع.. وإذا استطاع أحدهم أن يطبع أسلوبه بِسِمَةٍ من سمات الأسلوب القرآني، أو يزين معانيه بقبس من نوره رأى لنفسه التفوق، وفاخر الآخرين.

جرى على هذا فحول الشعراء والكتّاب من أمثال حسان بن ثابت، ومعن بن أوس، وأبي تمام، والبحتري، والجاحظ، وابن قتيبة، وابن العميد.. وغيرهم... وكذلك كان شأنهم حتى عصرنا الحاضر.

ولقد رفع القرآن من شأن النثر.. فكانت الكتابة الفنية.

وخلّد القرآن صور البيان الرفيع، والأساليب الجزلة البديعة التي ازدانت بها آياته الكريمة.. وكان القرآن سبباً في نشوء فنون أدبية عدّة اشتقت من هذا الكتاب الخالد.. كما كان القرآن سبباً في قيام علومنا كلها ونشأتها، من **علوم عربية** كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والنقد ومفردات اللغة. **ومن علوم شرعية** كالفقه والتوحيد والأصول والتفسير. **ومن علوم إنسانية** كالتاريخ والاجتماع وتقويم البلدان.

---

(١) انظر «معالم في الطريق» لسيد قطب ص ١٣.

ومن آثار القرآن في لغتنا أننا نجد اليوم رقعة مترامية الأطراف يتكلم أبناؤها بلغة واحدة، فمن البحر الأطلسي إلى منطقة إيران والأناضول كل هذه البلاد الواقعة في هذه المنطقة يتكلم أبناؤها باللغة العربية، وأكثر هاتيك البلاد لم تكن تعرف هذه اللغة، بل كان لها لغات محليّة.. تنازلت عنها حتى ذابت تلك اللغات وانقرضت، وأصبحت العربية فيها لغة الحياة واللغة الرسمية. بل لقد جاء حين من الدهر كانت اللغة العربية لغة عالمية أولى، تسود الدنيا المعمورة كلها كما تسود اليوم اللغة الانكليزية.

وكذلك كان شأن هذه اللغة مع العلوم.. فقد كانت لغة العلم في شعبه المتعددة من علوم انسانية وتجريبية.. حتى كان طالب العلم في تلك الأزمان مضطراً لتعلم العربية إذا أراد أن ينهل من معين العلم ويتفوق في تخصصه.

وهكذا كانت آثار القرآن في اللغة العربية أكثر من أن تحصى، ومن أبرز هذه الآثار أنّه وحّد أبناءها عندما جعلهم يتكلمون لغة واحدة التقت فيها اللهجات وتوحدت، فزاد ذلك في مفرداتها زيادة كبيرة، وأبقى على المأنوس الحلو من الكلمات، وهجر الحوشي الغريب، وحسّن أساليب الكلام فيها.

إن على المفسر أن يعرف نفاسة هذا الكتاب الذي يقوم بتفسيره، ويتهيب الخوض في لججه قبل استكمال أدواته، وليعلم أن كل ما ينفقه من مال ووقت وجهد رخيص يهون أمام الهدف الكبير الذي يسعى إليه ويضاعف جهده ويستكمل ثقافته حتى يكون أهلاً لهذه المهمة العظمى التي يتطلع إليها.

إنَّ حاجة البشر تتعاظم إلى هذا الكتاب الكريم.. فمن ابتغى الهدى بغيره ما زال في ضلال مبين.. وإذا اشتدت على الناس المحن والخطوب، واستحكمت في حياتهم الأزمات، لم يجدوا منقذاً إلا هذا الكتاب المعجز. وها هي ذي النظم الأرضية تعلن إفلاسها وتصرح بعجزها عن حل مشكلات الانسان، وعلماء المسلمين مطالبون أن يقدموا مشاعل الهداية التي يحويها القرآن إلى أبناء ملّتهم ثم إلى جموع البشر الحائرة التائهة.. حق صريح لا يداخله باطل ﴿ وإنَّهُ لكتابٌ عزيزٌ لا

يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ﴾[1] وهداية خالصة لا يخالطها ضلال: ﴿قُلْ هُوَ للذين آمنُوا هُدىً وشفاءٌ والذين لا يؤمنونَ في آذانِهم وَقْرٌ وَهُوَ عليهم عَمًى. أولَئك يُنادَوْنَ من مكانٍ بعيدٍ﴾[2].

(١) سورة فصلت: الآية ٤١-٤٢.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

القصّة في القرآن

إنَّ على المفسر أن يُلمَّ بأغراض إيراد القصة في القرآن، وأسلوب عرضها؛ لأن إلمامه بهاتيك الأغراض وذاك الأسلوب، يمكّنه من فهم النص أولاً فهماً سليماً وَشَرْحِهِ شرحاً بيّناً.

وللقصة تأثير على القارىء والسامع كبير، مهما كان مستوى كل منهما الثقافي وعمره وأحواله، وهي تؤدِّي مهمات عدة لا يمكن أن يتوصل إليها عن طريق عبارات الوعظ البحت والإرشاد الصريح.

والقَصَصُ الذي جاء في القرآن هو أحسن القصص، كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بما أَوْحَيْنَا إليكَ هذا القرآن وإنْ كنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلينَ ﴾ [٣].

والقصص في القرآن كثير، يشكل منه حيزاً غير قليل، وهو موجود في السور الطويلة كالبقرة وآل عمران والأعراف وغيرها، وفي السور القصيرة كالنازعات والبروج والشمس وغيرها، يقصُّ القرآن علينا أخبار الأمم السابقة. قال تعالى: ﴿ لقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عبرة لأولي الألبابِ ﴾ [١] وقال تباركت أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ مِنَ الأنباء ما فيهِ مُزْدَجرٌ ﴾ [٢].

إنَّ المرء ليجد ـ أحياناً ـ في القصة ذاته، أو مواقف تعرَّض لها في يوم من الأيام أحياناً أخرى، أو مشاعر خامرت نفسه وأحاسيسه، فَيُلْفي لها متعة وسروراً، ويحسّ بالتجاوب مع أحداثها يملأ عليه أقطار فكره وقلبه، ويفيدُ منها التوجيه السديد سائغاً مقبولاً، وتنغمس روحه في بحور من الراحة واللذة والسعادة.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣.
(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.
(٣) سورة القمر: الآية ٤.

وقد يكون في القصة ما يوحي له بحلّ إشكال وقف أمامه زمناً طويلاً عاجزاً لا يدري ما يصنع؟ وقد يكون في القصة ما يعزيه عن واقع مؤلم يحياه، ويسليه عن كوارث ألمت به.

وقد يكون فيها ما يرضي طموحه، ويحقق أمام ناظريه مثلاً علياً وقيماً كريمة فقدها في دنياه الحاضرة.

وقد يكون فيها ما يلهمه الصبر، ويشد عضده لمتابعة المضي على الطريق لأنَّ العاقبة للمتقين إنْ عاجلاً وإنْ آجلاً.

وقد يكون فيها العبرة يدركها أولو الأبصار وأولو الألباب والذين يخشون ربهم كما قال ربنا جلَّ وعزّ ﴿إنَّ في ذلك لعبرة لأ ولي الأ بصارِ﴾ [٣] وقال: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرة لأ ولي الألبابِ﴾ وقال: ﴿إنَّ في ذلكَ لعبرة لِمَنْ يَخْشَى﴾ [٤].

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: [امتنَّ الله على رسوله ﷺ بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصَصِ بما أوْحينا إليكَ هذا القرآنَ وإنْ كنتَ مِنْ قَبْلِهِ لِمَنْ الغافلينَ﴾ فعلمنا من قوله (أحسن القصص) أن سياق القِصص القرآنية لم يكن مساق الأحماض، وتجديدَ النشاط، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر، لأنَّ غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا] [١].

وقال الأستاذ سيد قطب:

[القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه ــ كما هو الشأن في القصة الفنية الحرَّة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرّد ــ إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل.

والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء؛ والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها. شأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، وشأن

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣.

(٢) سورة النازعات: الآية ٢٦

(٣) التحرير والتنوير: ٥٧.

الأدلة التي يسوقها على البعث وقدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصّلها والأمثال التي يضربها.... إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات.

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينية...[1]. ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني، ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء، لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير. وقد لاحظنا من قبل أن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، فيما يعرضه من الصور والمشاهد. بل لاحظنا أنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية.

وإدراك الجمال الفني الرفيع يشي بحسن الاستعداد لتلقي التأثير الديني حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، مستوى التعبير عن العقيدة، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال التي تبلغ في العقيدة حد الكمال][2].

ولا بُدَّ للمفسر من أن يدرك أسلوب القرآن المتفرد في عرض القصص.. إنه يختلف عما نجده في كتب التاريخ.. إنه يورد من القصة جانباً لأن له تعلقاً بالغرض الذي يرمي إلى تحقيقه [من أجل ذلك لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون الأمر في كتاب تاريخ.. بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها][3] ولم يورد القرآن القصة من بدايتها ويتنقل بالقارىء حتى نهايتها ليقرر أحداثاً تاريخية محددة، مرتبطة بالزمان والمكان.. لا.. بل كان القرآن يورد هذه القصة على طريقته الفريدة المتميزة.. لأداء الغرض الديني الذي من أهم جوانبه جانب الاعتبار والاتعاظ.

إنَّ على المفسر أن يكون لديه تصور واضح لمعالجة القصة في القرآن، فذلك

(١) حذفت بعض الكلام.
(٢) التصوير الفني في القرآن ١١٩-١٢٠.
(٣) التنوير والتحرير: ٥٧.

يعينه على أداء مهمته على الوجه الأفضل الذي يقرّب كتاب الله إلى الناس ليجدوا فيه الهدى والرشاد، والفلاح والسداد.

ذكر العلماء فوائد عدة من إيراد القصص في القرآن الكريم، ولا بُدَّ للمفسر من أن يقف عليها، حتى يكون أقدر على تفسيرها عندما يعرض لشرحها في كتاب الله.

١ ــ ومن أهم هذه الفوائد إقامة الدليل على صدق نبوة محمد بن عبد الله ﷺ، الذي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وسيرته واضحة مكشوفة، لم يخف على أحد منها شيء ــ وهذه خاصة لا نكاد نجدها لسواه ــ فهو ﷺ لم يخرج من مكة إلا لغرض التجارة ولمدة محدودة، مرة عندما كان صبياً صغيراً، ومرة أخرى عندما كان شاباً كبيراً. ولم يتعلم في مدرسة، ولا أتيح له أن يعاشر علماء أهل الكتاب، فأنّى له أن يعرف أخبار الأمم الماضية، وكيف تأتّى له أنْ يذكر من تلك الأخبار أموراً دقيقة، وأشياء تفصيلية لا يمكن أن يصل إليها إلاّ من أمضى عمره في التحصيل والدراسة المستوعبة والتنقيب.. بل إنَّ أهل الكتاب لا يعرفون من قصص الأنبياء السابقين إلا قدراً قليلاً.. يعرفه الراسخون منهم في العلم.. وهذا الذي عرفوه كان محرّفاً مشوّهاً بعيداً عن الحقيقة في كثير من الأحيان. وكان القصص القرآني يصحح تلك الأمور المحرّفة، ويواجه القوم بالحقائق التي تخالف ما عرفوه يقررها بجزم. إنَّ ذلك يدل على صدق نبوة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم دون شك.

قال تعالى: ﴿تلكَ مِنْ أنباء الغيبِ نوحيها إليكَ ما كنتَ تعلَمُهَا أنْتَ ولا قَوْمُكَ مِنْ قبلِ هذا فاصبرْ إنَّ العاقبةَ للمتقين﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كذلكَ نَقُصُّ عليكَ من أنباء ما قَدْ سَبَقَ. وَقَدْ آتيناك من لدنَّا ذكراً﴾[2] وبعض ما أخبر الله عنه من قصص الأقوام الغابرة يتصل بقرى ما تزال

---

(١) سورة هود: الآية ٤٩.

(٢) سورة طه: الآية ٩٩.

قائمة وقد هلك أهلها وبعضه يتصل بقرى زالت واندرست هي وأهلها ﴿ذلكَ مِنْ أنباء القُرى نقصُّه عليكَ منها قائمٌ وحصيدٌ﴾[١].

إن معرفة ذلك بالنسبة إلى سيدنا رسول الله ﷺ لا تتأتى إلا عن طريق الوحي.

هذا وقد كان نزولُ القرآن بالقصص ودراسةُ ذلك ومعرفتُه من قبل المؤمنين، سبباً يجعل أتباع الاسلام من العلماء بهذا الجانب الذي كان وقفاً على الأحبار والرهبان، وأزالت تلك المعرفة ــ إلى الأبد ــ زعم المغرضين من أهل الكتاب أنّ غيرهم ممن ليس على دينهم جاهل. بل لقد أصبح حملة القرآن ودعاة الإسلام يبيّنون أن كثيراً مما يتداوله أهل الكتاب غلط محض، وافتراء مكذوب، وذلك كما ذكر ربُّنا تقدّست أسماؤه في شأن عيسى عليه السلام. فقد قال تعالى مخبراً عن بهتان اليهود: ﴿وبِكفرِهِمْ وقولِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتَاناً عظيماً، وقَوْلِهِمْ إنَّا قَتَلْنَا المسِيح عيسى بنَ مريمَ رسولَ الله. وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلكنْ شُبِّهَ لَهُمْ. وإنَّ الذينَ اختلفُوا فيهِ لَفِي شَكٍّ منه. ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتّباعَ الظنِّ وما قتلوهُ يقيناً بلْ رَفَعهُ الله إليهِ وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[٢].

وقد ظنَّ قومٌ أنَّ إخبار القرآن عن الأمم السابقة هو موضع الإعجاز، والحق أنه ــ كما قررنا ــ من الأدلة القاطعة على صدق نبوة الرسول ﷺ ولكنه ليس موضع الإعجاز الذي رافقه التحدي[٣].

٢ ــ والمغزى الثاني الذي نقف عليه من إيراد قصص الأمم السابقة مع أنبيائها هو تقرير وحدة رسالات الله في العقيدة التي كانت تدعو في هذه الرسالات جميعاً إلى التوحيد وإسلام النفس لله وحده في الطاعة والعبادة. فالرسل كلهم رددوا هذه الكلمة (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

---

(١) سورة هود: الآية ١٠٠.
(٢) سورة النساء: الآية ١٥٧-١٥٨.
(٣) انظر «لمحات في علوم القرآن» ص ٨٦ ط ٢.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أرسلْنا نوحاً إلى قومِهِ فقالَ: يا قوم اعبدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وإلى عاد أخاهُمْ هُوداً قالَ: يا قَوْمِ اعبدُوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيرُهُ أفَلا تتقون ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وإلى ثمودَ أخَاهم صَالحاً قالَ: يا قَوْمِ اعبدُوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيرُه قَدْ جاءتكم بيّنةٌ من ربكم ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وإلى مدينَ أخاهم شُعيباً قاَ: يا قوم اعبدُوا الله ما لَكُمْ إلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتكم بيّنة من ربكم ﴾[4].

وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى الأمم كلها على نحو ما نقرأ في كتاب الله.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أمةٍ رسولاً أنِ اعبدُوا الله واجتنبُوا الطاغوتَ ﴾[5].

إن صلة الإسلام برسل الله وثيقة.. الأنبياء إخوة لعلاّت كما ورد في الحديث المتفق عليه[6]:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة. والأنبياء إخوة لعلاّت، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» وفي رواية: الأنبياء أولاد علاّت.

إنَّ المسلم حينما يقرأ كتاب الله بتعمق ووعي يشعر أنه عميق الصلة بدعوة الخير والتوحيد منذ أعماق التاريخ.. فكل دعاة الحق وَكُلّ أنصار الله هم سلفنا، تربطنا بهم دعوة الإسلام. وبذلك تكون تجاربنا من أغنى التجارب وأوفاها يقول

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٩.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٦٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٣.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٨٥.
(٥) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٦) انظر البخاري ١٣٤/٤ ومسلم ٦٩/٧.

تعالى: ﴿شَرَعَ لكم من الدينِ ما وصَّى به نوحاً والذي أوْحَيْنا إليكَ، وما وصَّيْنا بِهِ إبراهيمَ وموسى وعيسى ان أقيموا الدينَ ولا تتفرقُوا فيه﴾[1].

إنّ الاسلام بالنسبة إلى الديانات السابقة يكملها ويمثل الكمال فيها. قال رسول الله ﷺ: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها، وأكملها، وأجملها، وترك فيها موضع لَبِنَة لم يضعها. فجعل الناس يطوفون بالبنيان، ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة. فأنا في النبيّين موضع تلك اللَّبِنَة» رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي[2]. إنَّ معرفة جوانب من حياة الرسل والأنبياء الذي يمثلون خيار البشرية شيء ثمين يسمو بالانسان إلى المستوى الكريم.. ويذكر الدعاة إلى الله بواجبهم في الدعوة والتبليغ.

٣ ــ ومن الأمور التي تساعد المفسر على فهم كتاب الله وشرحه، وعلى إدراك الترابط المتين بين آياته، أن يستوعب ما في القصص القرآني من التنبيه والإرشاد، والتذكير والموعظة، والكشف عن سنن الله في الأمم، في رقيّها وتخلفها، وارتفاعها وانحدارها، وقوتها وضعفها، وعمران ديارها وخرابها.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكر ربنا تبارك وتعالى من قصةِ ثمودَ وتكذيبهم نبيَّهم صالحاً، ومكرهم به وبأهله ثم قال عزَّ من قائل: ﴿فانظُرْ كَيْفَ كانَ عاقبةُ مَكْرِهِمْ أنَّا دمّرناهُمْ وقومَهُمْ أجمعين فتلكَ بيوتُهم خاويةً بما ظلمُوا: إنَّ في ذلك لآيَةً لقومٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].

إنَّ الأمم التي كذبت رسلها وعذبتهم، وعصت أوامر ربها وخالفت تعاليمه، إنَّ هذه الأمم لقيت جزاءها الأوفى ولعذاب الآخرة أشد، فبعضها أغرق، وبعضها أخذته الصيحة، وبعضها خسفت به الأرض. يقول تعالى: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بذنبِهِ. فمنهم مَنْ أرسلْنا عليهِ حاصباً، ومنهم مَنْ أخذتْهُ الصيحةُ، ومنهمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرضَ، ومنهم مَنْ أغرقْنا. وما كانَ الله لِيَظلمَهم ولكنْ كانوا أنفسَهُمْ

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.
(٢) انظر البخاري ١٤٨/٤ ومسلم ٦٤/٧ والفتح ٥٥٨/٦ وانظر صحيح الجامع رقم الحديث ٥٨٥٧.
(٣) سورة النحل: الآية ٥١-٥٢.

يظلمون ﴾[1]. جاءت هذه الآية بعد قصة نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وعاد وثمود وموسى. ويلفت القرآن أنظار المؤمنين إلى الاعتبار بآثار الآمم البائدة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وعاداً وثمودَ وقد تبيَّن لكم من مساكنِهِمْ، وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصدَّهُمْ عَنِ السبيلِ وكانُوا مستبصرينَ ﴾[2]. وهكذا يستقر في قلب المؤمن الواعي أنّ الدمار ينتظر كل أمة تنحرف عن طريق الحق وتتنكب سبيل الهدى. وإننا لنرى بأعيننا مصداق ذلك فيما يمرّ بنا وبعالمنا من أحداث. حدثني صديق قال: كنتُ أمرُّ ببلد أكثر سكانه من المسلمين، وكانت أحواله الخلقية والدينية متردية، فالفواحش ظاهرة، والمحرمات معلنة، وشرع الله محارب منحًّى، والخلق منحور، والفضيلة موؤدة... قال: كنت أقول لنفسي كيف لا يخسف بهذا البلد.. ولم يمض زمن طويل حتى قامت بين أبنائه الفتن والحروب، فأهلكت الحرث والنسل، وخربت العامر، ودمرت الاقتصاد، وتجرع أهله مرارة الفاقة والحرمان والبعد عن الأمن. وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ وضربَ الله مثلاً قريةً كانتْ آمنةً مطمئنَّةً يأتيها رزقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مكانٍ، فكفرتْ بأنعُمِ الله، فأذاقَها الله لباسَ الجوعِ والخَوْفِ بما كانوا يصنعونَ ﴾[3].

٤ ـ وهناك فائدة يقف عليها المتأمل في قصص القرآن الذي يشكل حيّزاً غير قليل من كتاب الله. وهي أن هذا القصص يهزّ النفس هزاً عميقاً، ويبرز المعاني الدقيقة الخفية، ويجسد مواضع الاتعاظ والاعتبار على نحو حيّ متحرك يتمثل في حوادث وأحداث، ذلك لأن ما يقع تحت الحسّ أعمق أثراً وأبلغ تأثيراً من الكلمة المجردة والنصيحة المثالية، ويتضح هذا المعنى أكثر عندما يكون المخاطب موغلاً في الجهل والتخلف. ولنقرأ هاتين الآيتين من كتاب الله:

يقول تعالى: ﴿ وَأَنْذِرِ الناسَ يَوْمَ يأتيهمُ العذابُ فيقولُ الذينَ ظلموا: ربَّنا أَخِّرْنَا إلى أجلٍ قريبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ونتّبعِ الرسُلَ. أَوَلَمْ تكونُوا أقسمتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٠.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٣٨.
(٣) سورة النحل: الآية ١١٢.

مِنْ زوالٍ. وسكنتُمْ في مساكنِ الذين ظلمُوا أنفسَهم وتبيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضربْنَا لَكُمُ الأمثالَ ﴾[١].

إن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم تعرفون سيرتهم، إذ هي بيّنة واضحة من آثارهم.. وقد تبيّن لكم كيف فعلنا بهم.. وأنتم تسكنون الآن في مساكنهم.. أفليس في هذا نذير ورادع لكم أن تسلكوا مسلكهم أو أن تفعلوا مثل فعلهم؟

وكثيراً ما نجد الموازنة عاملاً يبرز تجسيد المعاني حية مؤثرة.. الموازنة بين حال هؤلاء الكفار في الدنيا وبيّن مصيرهم الأسود البائس في الآخرة.. على نحو ما نجد في حديث القرآن عن قوم عيسى عليه السلام. يقول تعالى: ﴿ فاختلفَ الأحزابُ من بينهِم. فويلٌ للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيمٍ. أَسْمِعْ بهِمْ وأبْصِرْ يَوْمَ يأتونَنا. لكنِ الظالمونَ اليومَ في ضلالٍ مبينٍ. وأنذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرةِ إذْ قُضِيَ الأمرُ، وَهُمْ في غفلةٍ وَهُمْ لا يؤمنونَ. إنَّا نحنُ نَرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعُون ﴾[٢].

إن هؤلاء الذين اختلفوا من بعد ما جاءهم الحق أحزاب، وإنَّ الكافرين منهم لينتظرهم مصير أسود، فويل لهم من مشهد اليوم العظيم والموقف العصيب ﴿ يَوْمَ ترونها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أرْضعَتْ وتضعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلها وتَرى النَّاسَ سُكارى وَمَا هُمْ بِسُكارَى ولكنّ عذابَ الله شديدٌ ﴾[٣]. إنهم في ذاك اليوم يسمعون جيداً، ويبصرون جيداً، أسمع بهم وأبصر يوم القيامة.. إنّهم يسمعون ولكن في الوقت الذي لا يفيدهم فيه السماع ويبصرون ولكن في الوقت الذي لا ينفعهم فيه البصر... إنهم لن يروا إلا العذاب وهذا ما يبكيهم ويؤلمهم، ولن يسمعوا إلا ما يخزيهم ويرديهم ويثير ندمهم وحسرتهم.. أما في الدنيا فلقد كانوا صمّاً عمياً يتردّون في ضلالهم ﴿ ولهم أعينٌ لا يُبْصِرونَ بها ولهم آذانٌ لا يَسْمَعُون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولَـئك هم الغافلون ﴾[٤] وزاد هذا المعنى وضوحاً عندما

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤٤-٤٥.
(٢) سورة مريم: الآية ٣٧-٤٠.
(٣) سورة الحج: الآية ٢.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

دعت الآياتُ يومَ القيامة بيوم الحسرة.. يتحسّر فيه الانسان ويقول: ﴿ يا ليتني قدّمْتُ لحياتي ﴾ [١] ﴿يا ليتني اتخذتُ مَعَ الرسولِ سبيلاً ﴾ [٢] ﴿ولو ترَى إذْ وُقِفُوا على ربهم قال: أليْسَ هذا بالحق؟ قالوا: بلى وربِّنا. قالَ: فذوقُوا العذابَ بما كنتم تكفرونَ. قدْ خَسِرَ الذين كذَّبُوا بلقاء الله حتَّى إذا جاءتْهُمُ الساعةُ بَغْتَةً قالوا: يا حسرتَنَا على ما فرَّطْنَا فيها، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزارَهُمْ على ظهورِهم ألاَ ساء ما يَزِرُونَ ﴾ [٣].

﴿ واتَّبِعُوا أحسنَ ما أنزِلَ إليكمْ مِنْ ربِّكُمْ مِنْ قبلِ أنْ يأتيَكُمُ العذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تشعرونَ. أن تقولَ نفسٌ يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جنبِ الله وإنْ كنتُ لمن الساخرينَ. أو تقولَ حينَ ترى العذاب: لو أنَّ لي كَرَّةً فأكونَ من المحسنين. بلى قد جاءتك آياتي فكذبْتَ بها واستكبرتَ وكُنْتَ من الكافرينَ. ويَوْمَ القيامةِ تَرى الذين كَذَبُوا على الله وجوهُهُمْ مُسْوَدَّة. أليسَ في جهنمَ مثوىً للمتكبرينَ. ويُنَجِّي الله الذينَ اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السوء ولا هم يَحْزَنُونَ ﴾ [٤].

إن هذا التجسيد لهذه المعاني غرض يؤديه القصص... وإدراك هذا في القصص القرآني كله يساعد المفسر أيما مساعدة على قيامه بمهمته.

من الواجب على مفسر كتاب الله أن يدرك أغراض هذا القصص وأساليبه وسنذكر أغراض القصص.. أو أهم أغراضه معتمدين على ما قرره الكاتب الذواقة الأستاذ سيد قطب رحمه الله فقد قال:

[القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ـــ كما هو الشأن في القصة الفنية الحرّة، التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد ـــ إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل.

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٤.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٨.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٠-٣١.
(٤) سورة الزمر: الآية ٥٥-٦١.

والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء؛ والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها. وشأنها في ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصّلها، والأمثال التي يضربها.. إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات.

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينية؛ وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات معينة.... ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء، لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها. ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير][1].

ثم ذكر الأستاذ سيد أن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني.. وقال: [بل لاحظنا أنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية][1].

— من أغراض القصص إثبات نبوة محمد والاحتجاج لصدق دعواه يقول:

— [كان من أغراض القصة إثبات الوحي والرسالة. فمحمد ﷺ لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصارى؛ ثم جاءت هذه القصص في القرآن، وبعضها جاء في دقة وإسهاب، كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى. فورودها في القرآن اتخذ دليلاً على أنه وحي يوحى... والقرآن ينصّ على هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها][2] مثال ذلك قوله تعالى في سورة القصص بعد عرض قصة موسى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بجانبِ الغَرْبِيِّ إذْ قَضَيْنَا إلى موسى الأمرَ، وما كُنْتَ مِنَ الشاهدينَ، ولكنَّا أنشأنا قُروناً فتطاولَ عليهم العمرُ، وما كنتَ ثَاوِياً في أهلِ مَدْيَنَ تَتْلو عليهم آياتِنا، ولكنَّا كُنَّا مُرْسِلين. وما كُنْتَ بجانبِ الطورِ إذْ نادَيْنا، ولكنْ رحمةً مِنْ ربِّكَ، لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أتاهُمْ مِنْ نذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لعلَّهم يتذكرونَ ﴾[3].

(١) التصوير الفني في القرآن ١١٩.
(٢) التصوير الفني في القرآن ١٢٠.
(٣) سورة القصص: الآية ٤٤-٤٦.

ـ [وكان من أغراض القصة بيان أنَّ الدين كله من عند الله، من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ أجمعين، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد ربُّ الجميع، وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في صورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة، لتؤيد هذه الحقيقة، ولما كان هذا غرضاً أساسياً في الدعوة، وفي بناء التصور الاسلامي فقد تكرر مجيء هذه القصص على هذا النحو مع اختلاف في التعبير، لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها في النفوس(١)] (٢).

ـ [وكان من أغراض القصة بيان الأصل المشترك بين دين محمد ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة. وإبراز أن هذا الاتصال أشدّ من الاتصال العام بين جميع الأديان، فتكررت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسى وعيسى:

﴿إنَّ هذا لفي الصحفِ الأولى. صُحُفِ إبراهيمَ وموسى﴾(٣) ﴿أمْ لَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ مُوسى. وإبراهيمَ الذي وَفَّى. ألَّا تزرُ وازرة وِزْرَ أُخرى﴾(٤) ﴿إنَّ أَوْلَى الناسِ بإبراهيمَ لَلذينَ اتبَعُوهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمنُوا والله وليُّ المؤمنين﴾(٥) ﴿مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمينَ مِنْ قَبْلُ﴾(٦)].

ـ [وكان من أغراض القصة بيان انَّ الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين، وذلك تثبيتاً لمحمد، وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الايمان: ﴿وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُسُلِ ما نثبِّتُ به فُؤادَكَ. وجَاءكَ في هذه الحقُّ ومَوْعِظَةٌ وَذِكْرى للمؤمنين﴾(٧) وتبعاً لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء مجتمعة مختومة

---

(١) أورد الآيات ٥١-٩٢ من سورة الأنبياء.
(٢) التصوير الفني ١٢١.
(٢) أورد الآيات ١٤-٤٠ من سورة العنكبوت.
(٣) سورة الأعلى: الآية ١٨-١٩.
(٤) سورة النجم: الآية ٣٧-٣٩.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٦٨.
(٦) سورة الحج: الآية ٧٨.
(٧) سورة هود: الآية ١٢٠.

بمصارع من كذبوهم[1]][2].

ــ [وكان من أغراض القصة تنبيهُ أبناء آدم إلى غواية الشيطان وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخير! ولما كان هذا موضوعاً خالداً، فقد تكررت قصة آدم في مواضع شتى][3].

ــ وكان من أغراض القصة [بيانُ قدرة الله على الخوارق، كقصة خلق آدم، وقصة مولد عيسى، وقصة إبراهيم والطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً وقصة (الذي مَرَّ على قريةٍ وَهِيَ خاويةٌ على عُرُوشِها) وقد أحياه الله بعد موته مائة عام.

وبيانُ عاقبةِ الطيبة والصلاح، وعاقبةِ الشر والافساد، كقصة ابنيْ آدم، وقصة صاحب الجنّتين.. وقصة سدّ مأرب. وقصة أصحاب الأخدود.

وبيانُ الفارق بين الحكمة الانسانية القريبة العاجلة، والحكمة الإلهية البعيدة الغيبة. كقصة موسى مع العبد الصالح (من عبادنا آتيناهُ رحمةً مِنْ عندنا وعلمناهُ مِنْ لَدُنَّا علماً) إلى آخر هذه الأغـراض][4].

أطلت الوقوف شيئاً ما مع القصص القرآني وأنا أكتب في أصول التفسير؛ لأن كثيراً من الخلل الذي نلمسه عند المفسرين وهم يشرحون هذه القصص يرجع إلى عدم وضوح هذه الأغراض.. فانطلقوا نحو الاسرائيليات يطلبون منها تفصيل ما أجمله القرآن، أو سدّ الثغرة الفنية التي تعمّد القرآن إقامتها لتؤديّ معاني ما كان للكلام أن يؤديها.. وكل ذلك خطأ من حيث المنهج.. وهذا غير ما تنطوي عليه بعض هذه الاسرائيليات من مخالفات لأسس الدين وأصوله.

---

(١) أورد الآيات ١٤-٤٠ من سورة العنكبوت.
(٢) التصوير الفني ١٢٥.
(٣) التصوير الفني ١٢٧.
(٤) التصوير الفني ١٢٧-١٢٨.

معرفة عادات العرب في الجاهليّة أمر لازم للمفسر

من الأمور المهمة في أصول التفسير أن نقرر أنَّ على المفسر أن يكون ملماً بعادات العرب في الجاهلية، واقفاً على حياتهم الاجتماعية، مطلعاً على أيامهم وحروبهم وتاريخهم وأديانهم.

ذلك لأننا نجد في الكتاب الكريم آيات تتعرض إلى بعض أمورهم، فإذا لم يكن المفسر واقفاً على ما ذكرنا لم يستطع أن يفهم معاني الآيات ولا أن يتذوقها، ولا أن ينفذ إلى مغازيها. ولم يدرك الأثر العظيم الذي حققه كتاب الله في تغيير حياة العرب، وإبطال الفاسد من عاداتهم، وصياغتهم صياغة جديدة، جعلتهم قادة الدنيا، وسادة العالم.

ومن هنا توجهت همم كثير من أعلام علمائنا المتقدمين إلى تسجيل تلك العادات، وبحث جوانب من حياتهم الاجتماعية، فألّفوا في عدد من هذه القضايا كتباً مستقلة وصل إلينا بعضها، وضاع كثير منها:

□ فمن هذه الكتب كتاب «الميسر والقداح» لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من رجال القرن الثالث. وقد حققه الأستاذ محب الدين الخطيب ونشره في القاهرة سنة ١٣٤٢.

□ ومن هذه الكتب كتاب «أيمان العرب في الجاهلية» لأبي إسحاق إبراهيم ابن عبد الله النجيرمي من رجال القرن الرابع. وقد حققه الأستاذ محب الدين الخطيب ونشره في القاهرة وأعاد نشره ثانية ابنه قصيّ سنة ١٣٨٢ هـ.

□ وقد ذكر ابن النديم في «الفهرست» (١) للعلامة هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ كتباً في موضوعات تتصل بحياة العرب الذين نزل فيهم

(١) الفهرست ١٤٧.

القرآن، فمن هذه الكتب: كتاب أديان العرب، وكتاب الأصنام، وكتاب القداح، وكتاب الكهان والجن، وكتاب ما كانت الجاهلية تفعله ويوافق حكم الاسلام، وكتاب أسواق العرب، وكتاب مناكح أزواج العرب...

□ وذكر ابن النديم أيضاً[1] أن للهيثم بن عدي كتباً في حياة العرب الجاهلية[2].

□ وقد نقلت الكتب الأدبية الموسعة التي جاءت فيما بعد كالأغاني وعيون الأخبار والعقد الفريد، نَقَلَتْ كثيراً ممّا جاء في هذه الكتب التفصيلية. وقام المتأخرون بجهد مشكور فالأستاذ محمود شكري الآلوسي المتوفى ١٣٤٢ (١٩٢٤) ألّف كتابه «بلوغ الأدب في أحوال العرب»[3]، والأستاذ سعيد الأفغاني ألّف كتابه «أسواق العرب»، وجمع طائفة من العلماء «أيام العرب في الجاهلية» في كتاب بهذا العنوان. وكل هذه الكتب تبسط جوانب من حياة العرب ورد ذكر لها في القرآن، فقد ورد فيه ذكر للميسر ووردت أسماء أصنام للعرب في القرآن، ونقل كتاب الله مقولات دينية للعرب، والنصب والأزلام، وإكراه الإماء على البغاء، والبحيرة والسائبة وما إلى ذلك ونودّ أن نفصل القول شيئاً ما في بعض هذه الأمور ليتضح الموضوع.

قال تباركت أسماؤه: ﴿ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وَصيلةٍ ولا حَامٍ. ولكنَّ الذين كَفَرُوا يَفْتَرُونَ على اللهِ الكذبَ. وأكثرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ. وإذا قيلَ لهم تَعالَوْا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلى الرسولِ قالُوا حَسْبُنَا ما وجَدْنَا عليه آباءنا. أوَلَوْ كَانَ آباؤهُمْ لا يَعلمونَ شيئاً ولا يَهْتَدُونَ﴾[4].

ينكر ربنا جلّ وعزّ ههنا عاداتٍ جاهلية لم يشرعها الله ولم يأذن بها. يقول (ما جعل الله من بحيرة..) أي ما شرع هذا الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه.

---

(١) الفهرست ١٥٢.

(٢) من هذه الكتب أسماء بغايا قريش.

(٣) ذكر الزركلي في ترجمته أنه ألفه إجابة لاقتراح لجنة اللغات الشرقية في استكهولم وفاز بجائزتها. وهو في ثلاثة أجزاء.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٠٣-١٠٤.

فما معنى هذه الكلمات التي كانت مدلولاتها قائمة في المجتمع الجاهلي وأبطلها الإسلام؟ هنا تبرز أهمية الموضوع الذي نتحدث فيه:

روى البخاري في «صحيحه» عن سعيد بن المسيَّب قال:

[البحيرة: التي يمنع دَرُّها للطواغيت فلا يحلبها أحدٌ من الناس. والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرُّ قُصْبَهُ في النار، كان أول من سيَّب السوائب» والوصيلة: الناقةُ البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى، ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوهُ للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء وسمّوه الحامي][(١)].

إنَّها عادات جاهلية تقوم على أمور:

- الشرك بالله، وإن الشرك لظلم عظيم.
- امتهان الانسان لإنسانيته، وتضييع لكرامته، وذلك عندما يخضع لخرافات باطلة.
- تضييع للثروة الاقتصادية، وجريان وراء العادات السيئة الموروثة.

وهذه العادات البائدة اليوم تذكرنا بعادات قائمة في عدد من بلاد المسلمين على صور أخرى مشابهة.. فما أكثر ما نرى من الخرافات تسود في قطاعات من ديارنا الإسلامية. وما أفظع ما نرى من تبديد للثروة وإهدار للمال، وتبذير يبلغ حدَّ السّفه في أمور يظن السذج من العامة أنها من الدين والدين منها براء، يفعلون ذلك مع ما نعلم من ضرورات ملحة تقوم في مجتمعاتنا تحتاج إلى المال.

أخطأ صحابيّ مرة فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر أعيّرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»[(٢)] ونحن اليوم نرى في حياتنا جاهليات متعددة، نشأت من قلّة وَعْيِنا. وهاتان الآيتان تقرران أنَّ الله سبحانه لم يشرع البحيرة والسائبة والوصيلة

---

(١) صحيح البخاري ٤٦/٦.

(٢) صحيح البخاري ١٢/١.

والحام، ولكنها خرافات أفرزتها الوثنية التي تحتقر الانسان وعقله، وتعبّده للطواغيت، وتحمل هذه الخرافات المؤمنين بها على أن يتركوا أنعاماً لهم سائبة لا يحملون عليها ولا يشربون لبنها ولا يستفيدون من وبرها ولحمها. والعجب في هؤلاء المنحرفين أنهم إذا دُعوا إلى شرع الله من الكتاب والسنة رفضوا الاستجابة والانصياع، وفضلوا ما وجدوا عليه آباءهم.. ما أشد ظلمهم لعقولهم وأنفسهم وما أسخف موقفهم!! وهكذا يتبين لنا أن معرفة أوضاع العرب في الجاهلية مما يساعد المفسر على تفسير كتاب الله تفسيراً دقيقاً.

قواعد أصوليّة

يعتمد علم أصول التفسير على عدد من القواعد وضعها الأصوليون، أي علماء أصول الفقه، الذين تعمقوا في مبحث الدلالة تعمقاً لم يبلغه غيرهم لا من علماء البلاغة ولا من المشتغلين بالنقد، فهؤلاء وأولئك عالجوا جانباً من موضوع الدلالة، لكنّهم لم يحيطوا بها إحاطة الأصوليين، ولم يغوصوا في أعماقها غوصهم.

وهذه القواعد تقومُ على مباحث متخصّصة فيها دقة، وقد تأثرت بعلم المنطق، واستيعابها وفهم أجزائها لا يخلو من عناء وصعوبة، لما تتصف به هذه المباحث من التجريد والخفاء، واختلاف وجهات النظر.

وأنا سأحاول عرض عدد من تلك القواعد، مبسّطاً الموضوع ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، معتمداً على الأمثلة، مفصلاً في شرح المثال التفصيل الذي يوضح القاعدة، ويقرر معناها في الذهن، لكيلا يُحْرَم القراء ممن لم يسبق لهم اشتغال بالعلوم الاسلامية.. لكيلا يحرموا من الإفادة من هذه الدروس ولكي يعلم الناسُ جميعاً مدى ما حظي به كتاب الله من الخدمة والعناية.... ولقد كان هذا شأني فيما مضى من هذه الدروس.. أعني بالأمثلة من كتاب الله عز وجلّ. فذكرُ الآية في الدرس، وتفسيرُها يشرح الصدر، ويطمئن القلب، وينعش الروح، ويدل على الطريق، وهو بعد ذلك يزيل الغموض والخفاء... أسأل الله أن ينفعنا بما علّمنا، وأن ينفع بنا، وأن يزيدنا علماً وعملاً صالحاً.

* * *

دلالة النص القطعية:

وأودُّ في هذا الدرس أن أتحدّث عن دلالة النصّ القطعية، فكثيراً ما نسمعهم يقولون: قطعي الدلالة، ظنّي الدلالة. وهذا الاصطلاح قد يُقرن باصطلاح آخر وهو: قطعي الثبوت، ظني الثبوت.

أما موضوع الثبوت، فالقرآن الكريم قطعي الثبوت؛ لأنه منقول بالتواتر. لا يماري في هذه الحقيقة عالمٌ ولا عاقل. لأنَّ الحكم بثبوت المنقول بالتواتر حكمٌ يمليه العقل. إنّ دلالة النصّ القطعية تتحقق عندما يكون المعنى الذي يفهم من العبارة متعيناً متحتماً بشكلٍ يقيني. فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ﴾[1]. قطعي الدلالة بوجوب إقامة الصلاة، وهذا متحتم متعين يقيناً وهو محل إجماع عند أهل العلم والنظر. وقد قالوا في تعريف (دلالة النص القطعية): [هي ما قطع فيها بموجب الحكم المنصوص عليه. فوجوده يكون كذلك في المسكوت عنه الذي يراد تعدية الحكم إليه].

وقد ذكرنا مثال المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾. والمثال الذي يضربونه للدلالة القطعية في المسكوت عنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَى ربُّكَ ألاَّ تعبُدوا إلاَّ إيَّاهُ وبالوالدين إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدكَ الكبرَ أَحَدُهما أوْ كِلاهما فَلاَ تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قولاً كَرِيماً﴾[2].

فلقد حرَّم الله على الولد أن يقول لوالديه: أف.

وأُف اسم فعل مضارع، أي لا تقل لهما أنا أتضجر من شيء يصدر منكما بل أكرمهما واخدمهما كما خدماك[3] يوم أن كان يصدر منك ما يدفع إلى الضجر والقرف. وهذه الكلمة من أهون أنواع الإيذاء فدلَّ ذلك على تحريم ما فوقه من ضروب الإيذاء كالشتم والضرب والإهانة من باب أولى.

فدلالة النص هنا على تحريم الشتم ونحوه دلالة قطعية؛ لأننا نجزم أن تحريمه مراد قطعاً ذلك لأنَّ الآية تدل على أنه لا يجوز أن يلحق من الولد لأبيه إيذاء بأي حال من الأحوال حتى ولو كان الإيذاء متمثلاً بكلمة أف. والنصُّ على الأقل يشمل الأكثر يقيناً ولا سيما وأن هناك أمرين يؤكدان هذا الفهم:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٣.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٣.
(٣) تفسير الجمل وعنوانه الفتوحات الالهية ٦٢٢/٢.

□ أما أولها فهو قوله تعالى في مطلع الآية: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ فالأمر بالاحسان يقتضي عدم إيذائهما بكلمة أو تصرف أو تقصير أو عصيان لأمرهما أو ردّ لرغبة مقدور على تنفيذها.

□ وأما ثانيها فهو أن إيذاء المسلم الأجنبي حرام وشتمه وضربه حرام، فما قولنا بالوالدين؟ إن برّ الوالدين والاحسان إليهما واجب مفروض وهو من أعظم القربات وانظروا إلى سياق الآية كيف جاء الأمر ببرهما بعد الأمر بعبادة الله وحده. بل لقد ذكر العلماء أن برّهما أفضل من صلاة النافلة ومن جهاد التطوع.

إنّ فضل الوالدين على الولد فضل عظيم، وإحسانهما إليه إحسان جسيم، فعرفان الفضل من مقتضيات المروءة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. وليس أحد من الناس أسدى إليك من المعروف والرعاية، والإهتمام والعناية ما أسداه إليك أبواك. فالذي لا خير فيه لابويه لا يُرجى منه الخير لأحد. والعاق لوالديه امرؤ خسيس لا يؤمن شره أبداً، لأنه لو كان يؤمن شره لسلم منه أبواه.

وبجتمعنا الإسلامي يعرف للوالدين مكانتهما التي لا ترقى فوقها مكانة.. كنتُ وأنا في أول طلبي للعلم وتعرفي على الحياة أقرأ هذه الأحكام فاستغرب أعظم الاستغراب وأتساءل: هل هناك من يشتم أباه أو يضربه أو يقتله والعياذ بالله تعالى؟ حتى إذا تأثر مجتمعنا بالحياة الغربية صرنا نقرأ في الصحف ونسمع من أفواه الناس قصصاً مروعة يشيب لها رأس الطفل من عدوان على الآباء والأمهات، وانتهار لهما.. إنَّ الاسلام العظيم حرّم السبب الذي قد يؤدي إلى إيذائهما فقال ﷺ (١): «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: وهل يشتم الرجل والديه (٢)؟ قال: «نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه» متفق عليه. وفي التعبير عن ذلك بأنه من الكبائر عبرة لأولي الألباب.

---

(١) الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص انظر رياض الصالحين ١٥٤-١٦٩ تحقيق عبد العزيز رباح.

(٢) وفي هذا الاستغراب من الصحابة دليل على أن هذا أمر ينكره المجتمع الاسلامي ولا يتصوره أبداً.

النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام:

من القواعد التي تنفع مفسر القرآن وتعينه على توضيح المراد من الآية، وتساعد في الكشف عن أسرار الآيات في كتاب الله عز وجل القواعد التي قررها علماء العربية المختصون من نحويين وبلاغيين.

ومعرفة هذه القواعد تنفع متدبر كتاب الله حتى ولو لم يكن من المشتغلين بالتفسير. ونود في درس اليوم أن نعرض إلى قاعدة مهمة من هذه القواعد. وهي:

أن النكرة إذا وقعت في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم. فهذه الأمور الأربعة إذا سبقت النكرة عمّت دلالتها. [**والنكرة ما لا يفهم منها معيّن.** كإنسان وقلم][1] وتقابلها المعرفة. وهي عند النحاة [ما يفهم منه معيّن. وهي سبعة أنواع: الضمير والعلم واسم الإشارة والاسم الموصول والمحلّى بأل والمضاف لواحد مما ذكر والمنادى][1] ولكل من النفي والنهي والشرط والاستفهام أدوات، وبعض هذه الأدوات حروف وبعضها أسماء وبعضها أفعال.

وأذكر القراء الكرام ببعض أدوات النفي من الحروف وهي (لم ولما ولن وما ولا ولات وإنْ). وأداة النهي المشهورة لا. وأدوات الشرط من الحروف (إن وإذما ولو ولولا ولوما وأما). وأدوات الشرط من الأسماء (إذا ـ وكلما ـ ومن ـ وما ـ ومهما ـ ومتى ـ وأيان ـ وأين ـ وأنى ـ وحيثما ـ وكيفما ـ وأي).

وأداوات الاستفهام (الهمزة ـ وهل ـ وما ـ ومن ـ ومتى ـ وأيان ـ وكيف ـ وأين ـ وأنى ـ وكم ـ وأي).

ولننظر في بعض الآيات. فمثال النفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شَيْئاً. والأمرُ يَوْمَئذ لله﴾[2] وهذا وصف موجز محكم ليوم القيامة.. ذاك اليوم العصيب الرهيب الذي لا تملك نفس فيه لنفس شيئاً. في هذه الآية كلمتان نكرتان (وهما نفس وشيء) وقعتا في سياق النفي، وكانت أداته هنا (لا).

(١) قواعد اللغة العربية لناصف وزملائه ٤٨.

(٢) سورة الانفطار: الآية ١٩.

وبذلك فكلمة (نفس) عمّت كل نفس، فكل ما يصدق عليه كلمة نفس داخل في هذا العموم، فما من نفس من الانس ولا من الجن ولا من غيرهما مما تطلق عليه هذه الكلمة تملك شيئاً لغيرها في ذاك اليوم.

إذن لا الأنبياء المرسلون، ولا الملائكة المقربون، ولا الأولياء الصالحون يملكون شيئاً يوم القيامة ولا الآباء والأبناء ولا الأقرباء يملك أحد منهم شيئاً في ذاك اليوم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أُخرى. وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ منه شيء ولو كانَ ذَا قربى﴾[1].

نعم في ذاك اليوم يفر الابن من أمه وأبيه؛ لأنه لا يملك لهما شيئاً ولأن له شأناً يشغله عنهما ﴿فَإذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أخيهِ وَأُمِّهِ وأبيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امرىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأنٌ يُغْنيه﴾[2] وكذلك فكلمة شيء في الآية تشمل كل شيء من دفع المضار، وجلب المنافع، ويشمل ذلك الشفاعة.. فلا يشفع أحد لأحد إلا من يأذن له الله ﴿مَنْ ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ﴾ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المتقينَ إلى الرحمنِ وَفْداً وَنَسُوقُ المجرمينَ إلى جهنَّمَ وِرْداً. لا يملكونَ الشفاعَةَ إلاَّ من اتَّخَذَ عِنْدَ الرحمنِ عَهْداً﴾[3] وقال تعالى عن الملائكة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلاَّ نُوحي إليهِ أنَّه لا إلهَ إلاَّ أنَا فاعبدونِ. وقالُوا اتخذَ الرحمنُ ولداً. سبحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بالقولِ وَهُمْ بأمرِهِ يَعْمَلونَ. يَعْلَمُ ما بينَ أيْديهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[4] إن العموم في كلمتي (نفس) و (شيء) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله﴾ ليصور لنا مدى الحرج الذي سيقع فيه العصاة والمقصرون، والمجرمون والكافرون في ذاك اليوم الشديد.

ومثال النهي قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً. وبالوالدينِ إحساناً

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٨.
(٢) سورة عبس: الآية ٣٣-٣٧.
(٣) سورة مريم: الآية ٨٥-٨٧.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٥-٢٨.

وبذي القُرْبى واليَتامى والمساكينِ والجار ذي القربى والجارِ الجُنُبِ والصاحبِ بِالجَنْبِ وابنِ السبيلِ وما ملكتْ أيمانكُم إنَّ الله لاَ يُحبُّ مَنْ كَانَ مُختالاً فَخُوراً﴾ [1].

والآية وصايا خالدة من الأمر بعبادة الله والنهي عن الإشراك به شيئاً، ومن الأمر بالإحسان إلى طوائف وهي: الوالدان والأقرباء واليتامى والجيران والرفيق بالسفر والمنقطع في الغربة والأرقاء. في هذه الآية وردت نكرة في سياق النهي. أما النكرة فقوله تعالى: (شيئاً) وأما النهي فقوله سبحانه: (ولا تشركوا).

والعموم المفهوم من الآية يدل على النهي عن الشرك في كل صوره وحالاته، القائمة والحادثة، فقد نهت الآية عن الإشراك بالله في النيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر والأصغر، وعن الشرك الخفي والجلي، فلا يجوز أن يجعل العبد لله نداً وشريكاً في شيء من ذلك كله.

إنَّ موضوع العقيدة موضوع أساسي، لا بد من وجود العقيدة السليمة الصحيحة أولاً ثم بعد ذلك تأتي الواجبات وتقرر المحظورات. وهذا هو الذي سلكه الإسلام العظيم في إقامة المجتمع الإسلامي، وهذا ما نلمحه في الآية التي ذكرناها آنفاً ﴿ واعبدُوا الله ولا تُشْرِكُوا به شيئاً﴾ هذا أولاً ثم ﴿ وبالوالدينِ إحساناً وبذي القربى واليتّامى والمساكينِ والجارِ ذي القربى ﴾ أي الجار القريب منك في الجوار أو النسب ﴿ والجار الجنب ﴾ أي البعيد عنك في الجوار أو النسب ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ أي الرفيق في سفر أو عمل أو صناعة وقيل: الزوجة و﴿ ابن السبيل ﴾ المنقطع في سفر.

وهكذا فإن إدراك هذه القاعدة وأمثالها يساعد على التعمق في فهم كتاب الله وتفسيره.

□ ومن [2] القواعد ما يذكره الأصوليون من أن صيغة الأمر إذا جاءت بعد حظر دلت على الإباحة، وذلك كقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ

---

(١) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٢) انظر لمحات في علوم القرآن ١٩٦ ط ٢.

للصلاةِ مِنْ يوم الجمعةِ فاسْعَوْا إلى ذكرِ الله وذَرُوا البيعَ ذلكُمْ خيرٌ لكم إنْ كنتُمْ تعلمونَ. فإذا قُضِيتِ الصلاةُ فانتَشِرُوا في الأرضِ وابتغُوا مِنْ فضلِ الله واذكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعلّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿ فانتَشِرُوا في الأرضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله ﴾ إنما هو للإباحة، لا للوجوب، لأن البيع كان قبل حظره بسبب النداء إلى صلاة الجمع مباحاً، فعاد الأمر إلى ما كان عليه.

□ ومن القواعد ما ذكره ابن القيم في كتابه «بدائع الفوائد» قال: [وتستفاد الإباحة من لفظ الاحلال، ورفع الجناح، والإذن والعفو، وإن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع وما يتعلق بها من الأفعال نحو قوله تعالى: ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾[2] ونحو قوله تعالى: ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾[3] ومن السكوت عن التحريم][4].

تفسير القرآن بالقرآن:

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية:

[فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن. فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر][5].

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٩-١٠.
(٢) سورة النحل: الآية ٨٠.
(٣) سورة النحل: الآية ١٦.
(٤) بدائع الفوائد ٤/٦.
(٥) مقدمة في أصول التفسير: ٩٣-٩٤.

وهذا التفسير ــ أي تفسير القرآن بالقرآن ــ أشرف أنواع التفسير وأجلّها، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله من الله جل وعز. ثم قال:

تفسير القرآن بالسنة:

[فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له. بل قد قال الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إنَّا أنزلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ لتحكمَ بينَ الناسِ بما أراكَ الله ولا تكُنْ للخائنينَ خصيما﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وأنزلْنَا إليك الذكرَ لتبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ولعلَّهم يتفكرون﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وما أنزلْنا عليكَ الكتابَ إلاّ لتبيِّنَ لهُم الذي اختلفُوا فيهِ وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ (٤) ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني السنة] (١).

وسيدنا رسول الله ﷺ هو أعرف الخلق بمراد الله، لأنه يوحى إليه، وعليه أنزل هذا القرآن، فإن أوحي إليه شيء في تفسير الكتاب بلّغه الناس، وإن سئل عن معنى آية أجاب بما يهديه إليه فهمه وعلمه، فإن أقرّه الله على ذلك كان بمثابة الوحي.

و[القرآن كتاب عربي مبين، نزل على الرسول الكريم ﷺ ليبلغه قومه العرب الفصحاء البلغاء فلم يستغلق فهمه بالاجمال على معظمهم، إذا استثنينا ما تشابه منه ﴿هُوَ الذي أنْزَلَ عليكَ الكتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وَأخَرُ متشابهاتٌ فأمَّا الذينَ في قُلوبِهِمْ زيغٌ فيتّبعونَ ما تشابَهَ منهُ ابتغاء الفتنةِ وابتغاء تأويله. وما يعلمُ تأويلَهُ إلا الله والراسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنَّا به كُلٌّ من عند ربِّنَا وما يذكَّرُ إلاّ أولو الألباب﴾ (١).

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.
(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٣) سورة النحل: الآية ٦٤.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٧.

فهمه العرب، وكان سبباً في دخول عدد كبير منهم في الإسلام، ولكن معاني القرآن لا تحدّ ولا يحاط بها، ولما كان الرسول ﷺ أكثر الخلق فهماً لهذا الكتاب كان من مهماته الأساسية أن يبين للناس ما نزل إليهم. قال تعالى: ﴿ وأنزلْنا إليك الذِّكرَ لتبيِّنَ للناسِ ما نُزِّل إليهم ﴾[1].

والقرآن يحوي نظرة إلى الحياة والكون والانسان جديدة على العرب بل على أبناء الدنيا كلها، ومن أجل ذلك فهم محتاجون إلى مزيد من الشرح والبيان لها حتى يقفوا عليها، ويعوها حق الوعي، لا سيما وأن في القرآن المجمل والعام والمشكل، وفيه مفردات لا يفهمها بعضهم، فقد كان بعض الصحابة يكتفي بفهم المعنى الاجمالي لآيات القرآن ويؤخذ بسحرها وجمالها، وإننا لنقرأ في أخبارهم أنّ سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لم يعرف معنى كلمة (الأبّ) في قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأبّاً ﴾ ـــ وهذا الخبر مروي أيضاً عن سيدنا أبي بكر[2] أنه هو أيضاً لم يكن يعرف معناها، والأبّ: المرعى المتهيء للرعي والجزّ ـــ.

ونقرأ أنّ ابن عباس رضي الله عنهما لم يعرف معنى كلمة (فاطر) حتى سمع أعرابياً يوردها في جملة: أخرج أبو عبيد في «الفضائل» من طريق مجاهد عن ابن عباس أنه قال:

كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها[3].

ونقرأ أن عدي بن حاتم فهم الخيط الأبيض والخيط الأسود بالمعنى المادي فقد ذكر البخاري في صحيحه أنه جاء بعقالين أحدهما أبيض والآخر أسود، وظن أنه ما لم يتبينا فللانسان الصائم أن يأكل ويشرب، فهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا واشربُوا حتَّى يتبيَّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ مِنَ الخيطِ الأسودِ مِنَ الفجرِ ﴾[4] فنبهه رسول الله ﷺ إلى الحق في الموضوع وأن المراد بها سواد الليل وبياض النهار.

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٥ وفتح الباري ١٣/٢٧٠-٢٧٢.
(٣) الاتقان ١/١١٣ والبرهان ٢/١٦٢ وتأويل مختلف الحديث ٢٠ والباعث على الخلاص ١٤٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

إذن فقد كان الصحابة يتفاوتون في فهم القرآن تبعاً لما يأتي:

١ ــ يتفاوتون تبعاً لمواهبهم.
٢ ــ يتفاوتون تبعاً لاطلاعهم على لغتهم وأدبها ولهجاتها.
٣ ــ يتفاوتون تبعاً لمعرفتهم لأسباب النزول.

وهكذا فإن كثيراً من مواضع القرآن كانت تثير بعض الأسئلة عند بعض الصحابة فيتوجهون بها إلى الرسول ﷺ في حياته، وكان يفسرها لهم. ونقلت كتب الحديث هذه الشروح والتفسيرات][1].

يقول ابن تيمية: [والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن، لا أنها تتلى كما يتلى، وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع بسطها. والغرض أنك تطلب تفسير القرآن من القرآن، فإن لم تجده فمن السنة][2] هذا وأردُّ طلبة العلم إلى ما كتبه الإمام الشافعي في هذا الموضوع في كتابه «الرسالة» فقد أفاد وأفاض وبيّن أنَّ المراد من الحكمة في قوله تعالى في أكثر من آية ﴿ ويُعلِّمهُم الكتابَ والحكمةَ ﴾ السنة يقول: (فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ) أقول: بل صرّح كتاب الله بأن الحكمة منزّلة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ الله عليكَ الكتابَ والحكمَةَ وعلَّمكَ ما لم تكنْ تَعْلَمُ وكانَ فضلُ الله عليكَ عظيماً ﴾[3].

ذكرنا في الدرس الماضي أن أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن إن وجد، وإلا فيفسر القرآن بالسنة. وذلك لأمرين اثنين:

أما أولها فهو أن كثيراً مما ورد إلينا من السنة موحى به من عند الله تبارك وتعالى، [تلقى رسول الله مضمونه من الوحي، فبيّنه بكلامه وأسلوبه، وهذا القسم

(١) لمحات في علوم القرآن بتصرف ١٩٩-٢٠٠ ط ٢.
(٢) المقدمة ٩٤.
(٣) سورة النساء: الآية ١١٣.

وإن كان ما فيه من المعاني من الله تعالى، لكنه من حيث هو كلام جدير بأن ينسب إلى الرسول ﷺ لأنه قائله، وكثير من الأحاديث النبوية من هذا القبيل. وقد صرَّح النبي ﷺ في عدد منها أنها مما أوحي إليه.

منها حديث عياض بن حمار (رضي الله عنه) قال قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغيَ أحدٌ على أحد» رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

ومنها حديث عائشة (رضي الله عنها) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم» رواه البخاري][1].

وأما ثانيها فهو أن الرسول ﷺ مؤيد بالوحي، فإذا اجتهد في أمر، أو استنبط النبي شيئاً بفهمه [لكلام الله أو بتأمله في حقائق الكون]، فإنَّ الله تعالى لا يقرُّ نبيّه ﷺ على الخطأ إن أخطأ في أمر من أمور الشريعة، [بل ينزل في ذلك قرآناً يبيّن له الحق، كما حدث في قصة أسرى بدر وفي صلاته على المنافقين وفي الإذن لهم، وفي قصة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم (رضي الله عنه)، أو يوحي إليه بالصواب، ولا يكون هذا الوحي قرآناً.

وقد قرر المحققون من العلماء أن الرسول ﷺ كان يجتهد في أمور كثيرة، وأن ذلك وقع منه في أحكام الشرع، وهذا الذي عليه عامة الأصوليين، واستدلوا على ذلك بأدلة موجودة في كتب أصول الفقه، وقد أفرد هذا الموضوع بالتأليف الشيخ عبد الجليل عيسى في كتابه «اجتهاد الرسول» وقد أورد فيه أمثلة كثيرة جداً من هذا النوع من الحديث. قال الأستاذ المعلمي اليماني في «الأنوار الكاشفة»: (.. ثم قال قوم: جميع ما بيّنه الرسول علمه بالوحي، وقال آخرون: منه ما كان باجتهادٍ أذن الله له فيه وأقرّه عليه. ذكرهما الشافعي في الرسالة)][2]. هذا ومعلوم مستفيض ما كان يتحلى به سيدنا رسول الله من حدّة الذكاء، وعمق التفكير،

---

(١) الحديث النبوي ص ١٣٦.

(٢) الحديث النبوي ص ١٣٥ ـ ص ١٣٦.

وبعد النظر، وسديد الفهم، أوتي ذلك موهبة لا نظير لها في المواهب البشرية.. أجل لقد كانت [تتمثل هذه الموهبة في فطرة صافية وذهن جوّال، وبصر نفاذ، ونفس مجتمعة فاضلة، وإحساس دقيق مرهف، وبديهة حاضرة، وليس غريباً أن يجتمع ذلك كله لرسول الله ﷺ لأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه يصنع رسله على عينه بما تقتضيه حكمته][1].

إذا كان ذلك كذلك فليس يقدم على تفسير رسول الله ﷺ للآية تفسير. ولا مجال للاجتهاد في معرض النصّ.

وعجبٌ أن يقدم بعض المفسرين على تفسير آية على وجه ما وهناك رواية ثابتة عن النبي ﷺ تخالف ما ذهب إليه. إن هذا غير جائز.. وهذا ما يقرره هذا العلم الشريف علم أصول التفسير.

ومن هنا تبدو لنا صحة ما ذكره العلماء أن من شروط المفسر أن يكون مطلعاً على السنة النبوية اطلاعاً كبيراً بحيث لا يفوته حديث ثابت عن النبي ﷺ يفسر آية، إذ كانت مهمة النبي ﷺ الأولى تبيان ما نزل إليه.

والمسألة التي لا بُدّ من ذكرها بوضوح هي مسألة ثبوت الحديث، فيجب أن يكون الحديث المفسر صحيحاً أو حسناً، أما الضعيف فلا يصلح للاستشهاد به على معنى آية من كتاب. ومن ثم وجب أن يتأكد المفسر من قوة الحديث وصلاحيته للاستشهاد وذلك بالرجوع إلى كتب الفن بعد أن يكون قد اكتسب ملكة حديثية تمكنه من الاستفادة من الرجوع إلى تلك الكتب.

وهكذا تبدو لنا أهمية السنة في التفسير. ويجدر بنا أن ننبه إلى أن أهمية السنة ليست في التفسير فحسب... بل إنها المصدر الثاني للشريعة، فالمصدران الأصليان للاسلام هما الكتاب والسنة، وعلى السنة يقوم جزء ضخم من كيان الشريعة، وليس للمسلم إلا اتباع أوامرها والوقوف عند حدودها.

---

(١) الحديث النبوي ص ٤٧.

[ونستطيع أن نتبيّن مكانتها فيما يأتي:

١ ـــ السنة مبينة للقرآن] وقد سبق أن بيّنا هذا المعنى بياناً شافياً.

[٢ ـــ السنة مفصلة لمجمل القرآن: ففي القرآن آيات تأمر بالصلاة والزكاة أمراً مجملاً قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ وأطيعُوا الرسولَ لعلَّكُمْ تُرْحمونَ﴾[1] وتأتي السنة المطهرة فتفصّل عدد الصلوات وأوقاتها وعدد ركعاتها، ومبطلاتها، وتدل على شروطها وأركانها، كما تفصّل ذكر الأموال التي فيها زكاة والتي لا زكاة فيها، وتفصّل النصاب الذي تجب فيه الزكاة ومقدارها ونسبتها... والأمثلة من السنة على تفصيل ما ورد في الكتاب كثيرة كالصوم والحج والبيع... وما إلى ذلك.

أخرج الخطيب والسمعاني وغيرهما عن عمران بن حصين (رضي الله عنه) أنه كان جالساً ومعه أصحابه. فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له عمران: ادن. فدنا. فقال: أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً، وصلاة العصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً، تقرأ في اثنتين؟ أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعاً والطواف بالصفا والمروة سبعاً؟ ثم قال: أي قوم. خذوا عنا، فإنكم والله إلاّ تفعلوا لتضلّن. وفي رواية السمعاني: أتجد في كتاب الله الصوم مفسراً؟ إن القرآن أحكم ذلك والسنة تفسر ذلك][2].

إن كثير من آيات القرآن جاء في الكتاب مجملاً، فجاءت السنة تفصّله.

[وورود آيات القرآن مجملة أمر طبيعي؛ لأن القرآن بالنسبة للمسلمين هو الدستور الذي يقرر لهم الأسس الفكرية والاجتماعية والسياسية والروحية التي يجب أن يقيموا عليها مجتمعهم، ويترك التفصيلات الجزئية للسنة. على أن القرآن الكريم في بعض الأمور الهامة يذكر التفصيلات لأهميتها في حياة الناس كالإرث واللعان والطلاق.. وما شابهها، حتى لا يدع مجالاً للفرقة في المجتمع الاسلامي ولا

(١) سورة النور: الآية ٥٦.
(٢) الحديث النبوي ص ١٨ ـــ ص ١٩.

بد من الإشارة إلى أن السنة في تفصيلها مجمل القرآن تسير في هداه، وتنطلق من مبادئه وأسسه].

ومما يؤكد أهمية السنة في تفسير القرآن أنَّ في السنة تخصيصاً لعموم محكم القرآن. ومن ذلك تخصيص الحديث «لا يرث المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ» الذي رواه البخاري ومسلم والجماعة تخصيصه الآية ﴿وَلأَبَوَيْهِ لكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ ممَّا تَرَكَ إنْ كان لَهُ وَلَدٌ. فإنْ لم يكنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ فلأُمِّهِ الثلُثُ﴾[1]. قال الخطيب البغدادي:

فكان ظاهر هذه الآية يدل على أن كل والد يرث ولده، وكل مولود يرث والده حتى جاءت السنة بأن المراد ذلك مع اتفاق الدِّين بين الوالدين والمولودين، وأما إذا اختلف الدينان فإنه مانع من التوارث[2].

والقرآن الكريم نفسه يَرُدُّ إلى السنة ويوجب على المسلمين أن يطيعوا الرسول، ويَعُدُّ طاعة الرسول طاعة لله. قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أطَاعَ اللهَ﴾[3] ويقرر القرآن أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة لكل من آمن بالله واليوم الآخر ﴿لَقَدْ كَانَ لكمْ في رسولِ الله أسوة حَسَنَةٌ لمنْ كانَ يَرْجُو الله واليومَ الآخِرَ﴾[4] وأوجب الله في القرآن النزول على حكم النبي في كل خلاف وأقسم الله تبارك وتعالى على نفي الايمان عن كل من لا يحكّمه ولا يرضى بحكمه، حتى يحكّمه ويرضى بحكمه فقال تعالى: ﴿فَلا وربِّكَ لا يُؤمنونَ حتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسِهم حَرَجاً مما قضيتَ ويُسلِّموا تسليماً﴾[5] وأخبرنا جل ذكره أن رسول الله ﷺ أوتي القرآن والحكمة (التي هي السنة) ليعلّم الناس أحكام دينهم ويزكيهم فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ الله على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فيهم رسولاً من أنْفُسِهم، يَتْلو

(١) سورة النساء: الآية ١١.
(٢) الكفاية ٤٥.
(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(٥) سورة النساء: الآية ٦٥.

عليهم آياتِهِ ويُزكّيهم وَيُعلِّمُهُم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ﴾ [1] قال الإمام الشافعي في هذه الآية: (سمعت من أرضى أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ. فلم يجز أن يقال الحكمة هنا إلا سنة رسول الله ﷺ وذلك أنها مقرونة مع الكتاب، وأن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره) [2].

وهناك نصوصٌ قرآنية أخرى عديدة تلزم المسلم بطاعة رسول الله وامتثال أمره. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أطيعُوا اللهَ والرسول فإنْ تولَّوْا فإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الكافرين ﴾ [3] وليست طاعته إلا تنفيذ أوامره.

ويقول تعالى في الثناء على المؤمنين الذين يطيعون رسول الله: ﴿ إنَّما كانَ قَوْلَ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أن يقولوا سمعْنا وأطعْنا وأولئك هُمُ المفلحونَ ﴾ [4] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وأطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم فإنْ تنازعتُمْ في شيءٍ فردُّوهُ إلى اللهِ والرسولِ إنْ كنتمْ تُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾ [5].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وما آتاكُمُ الرسولُ فخذُوهُ وما نهاكُمْ عنه فانتهُوا ﴾ [6].

[وإذا ما رجعنا إلى الأحاديث الثابتة وجدنا طائفة ضخمة منها تصرح بمكانة السنة في الشريعة فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله من يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى». ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي عن العرباض بن سارية قال: وعظنا

---

(1) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.
(2) الرسالة ٧٨ تحقيق شاكر. وانظر جامع بيان العلم ١٧/١.
(3) سورة آل عمران: الآية ٣٢.
(4) سورة النور: الآية ٥١.
(5) سورة النساء: الآية ٥٩.
(6) سورة الحشر: الآية ٧.

رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: «أوصيكم بتقوى الله. والسمع والطاعة. وإن تأمّر عليكم عبد حبشي. وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضُّوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

ومن ذلك ما أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي رافع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا أعرفن الرجل يأتيه الأمر من أمري: إما أمرت به أو نهيت عنه. فيقول: ما ندري ما هذا، عندنا كتاب الله، ليس هذا فيه».

ولقد كان السلف الصالح من الجيل التالي من أصحاب رسول الله يفقهون هذه المكانة للسنة تمام الفقه ويحققون ذلك في حياتهم ويعدون اتباع النبي ﷺ شرطاً لا بد منه ليكون المرء مسلماً.

أخرج مالك في الموطأ وابن ماجه والنسائي أن أمية بن عبد الله بن أسيد قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر في القرآن. فقال له ابن عمر: يا بن أخي إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً وإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل].

وهكذا فإن دور السنة في تفسير كتاب الله دور كبير. أما أولئك المارقون الذين يحاربون السنة بحجة اكتفائهم بالقرآن فذلكم هو المكر للإسلام والكيد له، حتى تتشوه معالمه. لقد ادّعى هؤلاء المدامون أنَّ السنة لا حاجة لها، وأنه لا مكان لها في مصادر الشريعة، ولا دور لها في تفسير القرآن.. وأن القرآن وحده كاف.

كَبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، وزعموا أنّ ما كان يصدر عن النبي ﷺ من أقوال سواء أصحّت عنه أم لم تصح تدبير مؤقت للمجتمع يومذاك.. إلى آخر هذه المزاعم الباطلة.

إنّ هذه الفئة تندرج في هاتيك الحركات الهدامة المعادية للإسلام، ولقد كانت محاربتها للسنة وسيلة لمحاربة الاسلام العظيم. فقد جعلت تشكك بالسنة، واتخذت ذلك سلاحاً من أسلحتها المتعددة للقضاء على الاسلام أو تحريفه وتشويهه ﴿ يُريدونَ أنْ يُطفِئوا نُورَ الله بأفواهِهِم وَيأبَى الله إلاَّ أنْ يُتمَّ نُورَهُ ﴾[1].

ومن العجيب أن نحتاج إلى توضيح مكانة السنة في الشريعة، وهل الشريعة في أصولها إلا هذا الكتاب المنزل وتلك الأسوة الحسنة في حياة الرسول وأقواله؟

وقد تولى الامام الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم» مناقشة هؤلاء الناس، وذكر ما دار بينه وبينهم من محاجّة وحوار بأسلوب ممتع، وبحجة ناصعة.

وقد كان لبعض الفرق المنحرفة دور في ترويج هذه الدعوة الضالة.

وتعليلُ هذا الكيد الحقير ميسور، إذ أن هذه الحركات الهدامة المعادية ما كان لها أن تنال من القرآن، ولا أن تثير حوله الشكوك؛ فلقد كان إعجازه سوراً شامخاً حال بين هؤلاء الحاقدين المَوْتورين وما يريدون.. ولذلك فقد ظنت هذه الحركات الحمقاء أنها تستطيع أن تجد بغيتها في الحديث...

١ ــ فانطلقت بعض فئاتها المسعورة تفتري وتكذب على رسول الله لتمهّد السبيل لمن يريد نسف السنة. قال ابن الجوزي: [ولما لم يمكن أحداً أن يدخل في القرآن شيئاً ليس منه أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله ﷺ وينقصون ويبدلون ويضيفون عليه ما لم يقل فأنشأ الله عز وجل علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح، وما يخلي الله عز وجل منهم عصراً من العصور] وقد فعلوا ما فعلوا متسترين بالزهد أحياناً، وبالفلسفة أحياناً، وبالانتماء إلى بعض الفرق المنحرفة أحياناً.

٢ ــ وانطلقت فئات أخرى تشكك في اعتبار السنة مصدراً من مصادر الدين لشبه باطلة كادعاء صعوبة التميز بين الموضوع وغيره، وهذه شبه لا تقف على قدميها أمام الحجة الساطعة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٢.

٣ ــ وانطلقت فئات أخرى تشكك في صدق بعض الصحابة وتطعن بهم الطعن الفاحش، وممن استهدف من الصحابة الصحابي الجليل أبو هريرة (رضي الله عنه).

وفي العصر الحاضر نجد فئة من المغرضين، والمغفلين المخدوعين تدعو بهذه الدعوة الضالة، وقد قام باحث من عدة سنوات بإعداد دراسة حول فرقة منهم في باكستان ونال على هذه الدراسة شهادة الماجستير في كلية الشريعة بمكة.

ويبدو أن تاريخ هذه القولة الآثمة تاريخ أسود ملطخ، فقد ذكر السيد محمد رشيد رضا أن من أشهر الذين بحثوا في هذا الموضوع رجل يقال له ميرزا باقر، وقد كان تنصر وصار داعية لمذهب البروتستانت ثم عني بدراسة سائر مذاهب النصرانية ومذاهب اليهود ثم عاد إلى الاسلام باجتهاد جديد ودعا إليه في انكلترا.

وقد استطاع المفكر المهتدي محمد أسد النمساوي أن يكشف خبيئة هؤلاء المدامين فقال: [ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب ميول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للاسلام على أنه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي تنتهي بهذه الطريقة إلى التهافت والاندثار] (١).

وقد ردَّ على هؤلاء المارقين عدد من العلماء في القديم والحديث منهم الشافعي رضي الله عنه ومنهم السيوطي الذي كتب رسالة عنوانها «مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة» وهي مطبوعة. ومنهم الشيخ طه البشري والسيد محمد رشيد رضا والدكتور مصطفى السباعي.

قال ابن حزم في «الأحكام»:

[ولو أنّ امرءاً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً باجماع

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ٩٥.

الأمة، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حد للأكثر في ذلك. وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال][1].

وقال الشاطبي:

[إن الاقتصار على الكتاب رأي قوم لا خلاق لهم، خارجين عن السنة، إذ عوّلوا على أن الكتاب فيه بيان كل شيء، فاطرحوا أحكام السنة، فأداهم ذلك إلى الانخلاع عن الجماعة وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله].

ولكن عظمة الاسلام التي حطمت كل العقبات، وصمدت أمام كل العاديات، ستصون برعاية الله وعنايته هذا الدين، وسيبقى على وجه الدهر منارة خالدة تبدد ظلمات الجهل والانحراف والضلال ﴿والله غالبٌ على أمرِهِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

(١) الاحكام ٢/٨٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢١.

كيفَ يستفيد المفسّر من القواعِد الفقهيّة ؟

من الأمور التي تشترط في المفسر، أن يكون مُلِمّاً بالفقه أصولاً وأحكاماً وقواعد. وهناك كتب في أصول الفقه كثيرة، وهناك كتب في أحكام الفقه. وحديثي اليوم عن القواعد الفقهية وكيفية استفادة المفسر من معرفتها والوقوف عليها.

والقاعدة الفقهية هي أصل فقهي كلي يتضمن أحكاماً تشريعية عامة من أبواب متعددة في الحوادث التي تدخل تحت موضوعها.

وقد يوضح الأمر أن نذكر بعض القواعد الفقهية التي ذكرتها مجلة الأحكام العدلية. نحو القواعد الآتية:

الأمور بمقاصدها ــ اليقين لا يزول بالشك ــ الضرر لا يكون قديماً ــ الأصل براءة الذمة ــ لا ضرر ولا ضرار ــ المشقة تجلب التيسير ــ الضرورات تبيح المحظورات.

وقد بحث العلماء من مختلف المذاهب الفقهية هذا الموضوع، وألفوا فيه كتباً خاصة (١).

وأهمية كثير من هذه القواعد أنها تأتي ثمرة نظر طويل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالآيات المتعددة التي يستخلص منها معنى واحدٌ قد نجد قاعدة فقهية موجزة، صيغت بشكلَ محكم، وكأنها تشير إلى هاتيك الآيات.

هذه القواعد المهمة الجميلة عندما يستحضرها المفسر ويذكرها قد تكون من

(١) مثل كتاب الأشباه والنظائر لابن نجيم. ومجلة الأحكام. والفروق للقرافي. وقواعد الأحكام للعز بن عبد السلام والمنشور في القواعد للزركشي والأشباه والنظائر للسيوطي. والقواعد النورانية لابن تيمية والقواعد لابن رجب.

قبيل تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة، لما ذكرنا أنها مستخلصة من آيات متعددة تضمنت المعنى الذي قررته تلك القاعدة. وقلنا: من قبيل تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة، وذلك على حسب ما تكون المصادر والأدلة التي اعتمد عليها الفقهاء في استخراج القاعدة، فقد تكون آيات من الكتاب، وقد تكون أحاديث من كلام النبي ﷺ وفعله وتقريره، وقد تكون من الكتاب والسنة. هذا وإن وقوفه على هذه القواعد ليعينه على النظرة الشاملة للقرآن كله وفي هذا الشمول تكامل في تصور المعنى وبعد عن الغلط في الفهم.

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة، ففيها إن شاء الله البيان الشافي الموضح.

القاعدة الفقهية الأولى التي ذكرتها قبل قليل وهي «الأمور بمقاصدها».

هذه القاعدة اعتمد الفقهاء في استنباطها على آيات من القرآن، وأحاديث من مدونات السنة.

أما الآيات فكثيرة جداً نذكر بعضها فيما يأتي وللأحاديث الكثيرة الواردة في هذا مجال آخر.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهاجر في سبيلِ الله يَجِدْ في الأرضِ مُرَاغماً كثيراً وسَعَةً. وَمَنْ يَخْرُجْ من بيتِهِ مُهاجراً إلى الله ورسولِهِ، ثم يدركْهُ الموتُ فَقَدْ وقَعَ أجرُهُ على الله. وكانَ الله غفوراً رحيماً ﴾[1]. فمن يخرج من بيته يريد الهجرة امتثالاً لأمر الله ورسوله، وابتغاء مرضاة الله، ولكن أجله يعاجله قبل أن يبلغ مهاجره فقد وقع أجره على الله، وحصل له الأمر المطلوب، واستحق الثواب؛ لأن الأمور بمقاصدها. وقصده كان إتمام الهجرة، وإن لم يستطع فقد كان ذلك لأمر خارج عن إرادته، فاستحق الأجر والثواب.

ويبدو أن هذا الذي تقرره الآية قد وقع كما تدل على ذلك الروايات المختلفة الواردة في أسباب النزول، وإن كانت تلك الروايات مختلفة الدرجة في القوة، ومختلفة في تعيين اسم الصحابي الذي أدركه الموت قبل أن يبلغ مهاجره[2].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٠.

(٢) انظر أسباب النزول للسيوطي ص ١٨٧ المنشور مع الجلالين ط دار العربية بيروت.

ويقول تعالى: ﴿ وما أمروا إلاَّ ليعبُدُوا الله مخلصينَ له الدينَ حُنفَاء ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتُوا الزكاةَ وذلكَ دِينُ القيِّمَةِ ﴾ (١).

فلو أدى قوم العبادة المطلوبة بصورتها المشروعة من قيام وركوع وسجود وطمأنينة وما إلى ذلك ولكنهم لم يخلصوا عملهم لله ولم يؤدوها ابتغاء مرضاة الله، وإيماناً به.. ما تحقق المطلوب منهم، ويقول تعالى: ﴿ لا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْواهم إلاَّ مَنْ أمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بَيْنَ الناسِ. وَمَنْ يَفعلْ ذلكَ ابتغاء مرضاةِ الله فَسَوْفَ نُؤتيهِ أجراً عظيماً ﴾ (٢).

فالأمر بالصدقة، والأمر بالمعروف، والاصلاح بين الناس والأمر به كل ذلك إن فعله المرء ابتغاء مرضاة الله كان له الأجر العظيم.

ويقول تعالى: ﴿ إنَّما يتذكرُ أولو الألبابِ الذينَ يُوفونَ بعهدِ الله ولا يَنْقُضُونَ الميثاق. والذين يَصلونَ ما أمرَ الله بهِ أنْ يُوصَلَ وَيخْشَوْنَ ربَّهم ويخافونَ سُوء الحسابِ. والذينَ صَبَرُوا ابتغاء وجهِ ربهم وأقامُوا الصلاةَ وأنفقُوا مِمَّا رزقْناهُمْ سِرَّاً وعلانيةً ويَدرؤونَ بالحسنةِ السيئةَ أولئك لهم عُقْبَى الدارِ. جناتُ عَدْن يَدْخلونَها وَمَنْ صَلَحَ من آبائِهم وأزواجِهم وذرياتِهم. والملائكةُ يَدْخُلونَ عليهم من كلِّ بابٍ. سلامٌ عليكم بما صبرتم فنِعْمَ عُقْبَى الدارِ ﴾ (٣).

فهذه الآيات كلها تدل على أن تقويم العمل مرتبط بالنية والمقصد. فالعبادة والانفاق والأمر بالمعروف والوفاء بعهد الله وكل عمل من الأعمال الصالحة يعد صالحاً إذا كانت نية صاحبه صالحة، ويعد عملاً سيئاً إذا كانت نية صاحبه سيئة، ولو كانت صورته طيبة. كما جاء في الحديث «انما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته...».

والحكم في المؤاخذة والجزاء على العمل يرتبط بالنية، فللمقصد دور كبير في

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٤.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٩-٢٤.

إدانة المكلف أو إعفائه. ففي الأيمان يؤاخذ الحانث في يمينه ويطالب بالكفارة كما نجد ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿لا يُؤاخذُكُم الله باللغوِ في أيمانِكم. ولكنْ يُؤاخذُكمْ بما عقَّدتم الأيمانَ فكَفارتُهُ إطعامُ عَشَرَةِ مساكينَ من أوْسطِ ما تُطعمونَ أهليكمُ أوْ كِسْوَتُهُمْ أو تحريرُ رَقَبةٍ. فمنْ لَمْ يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيَّامٍ. ذلكَ كفارةُ أيمانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ واحفظُوا أيمانَكم كذلكَ يُبَيِّنُ الله لكم آياتِهِ لعلَّكمْ تَشْكُرونَ﴾[1] ويقول: ﴿لا يُؤاخذُكُم الله باللغوِ في أيمانِكم ولكنْ يؤاخذُكمْ بما كسبتْ قلوبُكم﴾[2].

إذن فالمؤاخذة والكفارة تتصلان بقصد الحالف فإن عقَّد اليمين دل على أنه يريد الحلف وأوخذ وكلف بالكفارة في حالة الحنث، وإن كان كلامه لغواً يجري على لسانه، وهو لا يريد اليمين.. وانما هو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف نحو لا والله وبلى والله وما إلى ذلك فهذا لا إثم عليه، ولغو لا يطالب قائله إن حنث بالكفارة.

وقد ذكرت آيات كثيرة أن المسؤولية والجزاء مرتبطان بما استقر في النفس وكان في القلب، وهو سبحانه عالم بما في القلوب والنفوس. وهكذا فإن تصور هذه القاعدة (الأمور بمقاصدها) يعين المفسر على النظرة العامة لآيات الكتاب وفي ذلك تحقيق للاجادة في مهمة التفسير التي يتصدى لها.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.

صيغ العموم

من القواعد التي تذكر في أصول الفقه وهي مهمة في تفسير القرآن، ولا بُدّ من معرفتها واستيعابها حتى يستطيع المفسر أن يفهم كتاب الله ويوضح معانيه، القاعدة الآتية: [ذهب الجمهور إلى أن العموم له صيغة موضوعة له حقيقة وهي: أسماء الشرط والاستفهام والموصولات، والجموع المعرفة تعريف الجنس، والمضافة، واسم الجنس، والنكرة المنفية والمفرد المحلى بأل، ولفظ كل وجميع ونحوهما] (١).

تلك صيغ دالة على العموم، وهناك تراكيب دالة على العموم، يقف عليها الناظر في أساليب الكلام العربيّ، وقد أشارت إلى بعضها كتب البلاغة، وذكرت بعضها كتب الأصول مقررة أن العموم فهم منها بطريق القرائن.

ومهما يكن من أمر فإنّ على مفسر القرآن أن يراعي هذه القاعدة وأمثالها عندما يتصدى لتفسير كتاب الله عز وجل، وسأورد في هذه الكلمة بعض التفصيل لهذه القاعدة الجليلة.

فن الأمثلة التي تدل على إفادة أسماء الشرط العموم قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعةً حَسَنَةً يكُنْ له نصيبٌ منها. وَمَنْ يَشْفَعْ شفاعةً سيئةً يكُنْ له كِفْلٌ منها. وكانَ الله على كلِّ شيءٍ مُقيتاً﴾ (٢).

ومعنى الآية كما هو واضح: من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع ليس فيها تعدٍّ على حدود الله أو على حق مسلم يكن له نصيب من الأجر بسببها. ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع فيها تدخل لتعطيل حد من حدود الله أو عدوان على حق واحد من المسلمين يكن له نصيب من الوزر بسبب هذه الشفاعة، وكان الله مقتدراً على كل شيء فيجازي كل أحد بما عمل(٣).

---

(١) إرشاد الفحول: ١١٥.
(٢) سورة النساء: الآية ٨٥.
(٣) الجلالين بتصرف.

فهذه الأداة ـــ وهي هنا اسم الشرط مَنْ ـــ أفادت العموم في الموضعين فكل من يشفع شفاعة حسنة أو سيئة داخل في عمومها.

والآية مثل حيّ على التعاون الخيّر البنّاء بين المسلمين، فصاحب الحق الملهوف الذي لم يصل إلى حقه يجد في إخوانه المسلمين من يشفع له. ومن قام بهذا الأمر كان له نصيب من الأجر كبير. وفي الآية ترغيب في الشفاعة الحسنة وتحذير من الشفاعة السيئة.

وما أجدر المسلمين بتحقيق هذا الأمر الكريم.. أن يشفعوا للضعفاء والمظلومين حتى يصلوا إلى حقوقهم... إن كل من يملك الجاه والكلمة المسموعة مطالب أن يقول كلمة طيبة في شأن صاحب الحق الذي يحتاج إلى الشفاعة.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أنه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أقبل على جلسائه فقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيّه ما أحب»[1].

والأمر بالشفاعة ههنا فيا يوافق الشرع من الاكرام والمساعدة والبذل وما إلى ذلك. أما إذا كانت الشفاعة في حدّ أو عدواناً على حق فهي مما حذر منه الاسلام.. بل جعلها من أسباب هلاك الأمم.

عن عائشة (رضي الله عنها) أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: مَنْ يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلّمه أسامةُ فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟» ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما أهلك مَنْ كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» متفق عليه[2].

ومن الأمثلة التي تدل على إفادة أسماء الشرط العموم قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ

(١) رياض الصالحين ـــ المكتب الاسلامي رقم ٢٥١.
(٢) رياض الصالحين ـــ المكتب الاسلامي رقم ٦٥٥ و١٧٧٨.

سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يستغفرِ الله يَجِدِ الله غفوراً رحيماً. ومَنْ يكسِبْ إثماً فإنَّما يَكسِبُهُ على نفسِهِ وكانَ الله عليماً حكيماً ﴾[(١)] وقد ذكر المفسرون أن معنى قوله تعالى: ﴿ يعمل سوءاً ﴾ أي يفعل ذنباً يسوء به غيره ومعنى قوله سبحانه: ﴿ أو يظلم نفسه ﴾ أي يعمل ذنباً قاصراً عليه.

وصيغة الشرط جعلت المعنى عاماً، فكل مذنبٍ وعاصٍ ـــ مهما كان ذنبُه ـــ إن استغفر الله وجد الله غفوراً رحيماً. وهذه الآية نص في أن التوبة من الذنب تمحوه وقد جاءت بصيغة العموم فشملت كل مذنب يقبل على الله ويستغفره ويتوب إليه. إنَّ سبيل العودة إلى الاستقامة معبّد ميسور، والعاصي المصر على معصيته الموغل في الانحراف هو الذي يجني نتيجة عمله.. ﴿ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ﴾.

فلنتب إلى الله.. ولنقبل عليه مستغفرين.. ولنحذر المعاصي.. وهو سبحانه عليم حكيم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ﴿ مَنِ اهتدَى فإنَّما يهتدي لنفسِهِ ومَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها ولا تزِرُ وازرة أخرى ﴾[(٢)].

ومن الأمثلة التي تدل على إفادة أسماء الشرط العموم قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ بأحسنِ ما كانُوا يَعْمَلون ﴾[(٣)] كل من عمل صالحاً وهو مؤمن فهو موعود بأن يحيا الحياة الطيبة في الدنيا وينتظره الجزاء الحسن يوم القيامة.

الحياة الطيبة في أعماق النفس.. وفي خلجات الضمير.. الحياة الطيبة في أن يمتع بحواسه ومواهبه.. وأن يأمن غوائل الأيام.. تلك الحياة هي التي كان يحياها الصالحون المؤمنون في العصور الزاهية وحتى اليوم.. أما أولئك العصاة والملحدون فقد حرموا من هذه النعمة العظمى.

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٠-١١١.
(٢) سورة الاسراء: الآية ١٥.
(٣) سورة النحل: الآية ٩٧.

تراكيب تدلّ على العموم

قررنا أن جمهور العلماء ذهب إلى أن للعموم صيغاً وأدوات. وهناك تراكيب أيضاً تدل على العموم.

ومن ذلك حذف المفعول في بعض صوره نحو قوله تعالى:

﴿والله يَدْعو إلى دارِ السلامِ ويهدي مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم. للذينَ أحسنُوا الحُسْنَى وزيادة ولا يَرْهَقُ وجوهَهم قترٌ ولا ذلةٌ أولئكَ أصحابُ الجنةِ هُمْ فيها خالدون. والذين كَسَبُوا السيئاتِ جَزَاءُ سيئةٍ بِمِثْلِها، وتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مالَهُمْ مِنَ الله مِنْ عاصمٍ، كأنما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهم قِطَعاً من الليلِ مُظْلماً، أولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾(١).

فقوله تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ أي جميع عباده، فحذف المفعول دل على العموم مع قصد الاختصار.

إنَّ الله تبارك وتعالى يدعو جميع عباده إلى دار السلام.. إلى الجنة.. يا له من كرم.. وما أعظمها من جناية وحماقة أن يعرض العبد الضعيف عن هذه الدعوة إلى الجنة.. التي لا ينفد نعيمها، ولا يبلى جديدها، ولا تنتهي ملذاتها.. الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وتسمية الجنة بدار السلام توحي بظلال عذبة ومغزى عظيم.. إذ السلام بأتمّ معانيه هناك، فتلك الدار دار السلام النفسي والعاطفي، والاجتماعي والأسري، ﴿لا يَسْمَعُون فيها لَغْواً إلاَّ سَلاماً ولَهُمْ رزقُهُمْ فيها بُكْرة وعَشيّاً﴾(٢) ﴿لا يَسْمعُونَ

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٥-٢٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٦٢.

فيها لَغْواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾[1] ﴿لا يسمعونَ فيها لَغْواً ولا كِذَّاباً﴾[2] ولا غل فيها ولا حسد ﴿وَنَزَعْنَا ما في صُدورِهم مِنْ غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقابلين﴾[3].

ومن استجاب لهذه الدعوة وأحسن كانت له الحسنى وزيادة، ولم يرهق وجهه قتر ولا ذلة وكان خالداً في الجنة دار النعيم المقيم، ويقابل هؤلاء المحسنين أولئك الذين أعرضوا عن دعوة الله، ولم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات، بل أصروا على الاستمرار في كسب السيئات سيلاقون جزاء عادلاً، وترهقهم ذلة، ولا عاصم لهم من الله.

وهذه الدعوة من الله عامة لجميع عباده من الانس والجن من كل الأجناس والبلدان، والمستويات والأزمان، وقد دلت الآية على هذا العموم مع الاختصار باللفظ بسبب حذف المفعول به.

وقد تكرر مثل هذا الأسلوب في القرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿والله يَدْعو إلى الجنَّةِ والمغفرةِ بإذنِه﴾[4].

ومن التراكيب التي تدل على العموم الاضافة، فقد قال أهل العلم: إنَّ المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع نحو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عليكُمْ أمهاتُكُمْ وبناتُكُمْ وأخواتُكمْ وعَمَّاتُكم وخالاتكم وبناتُ الأخِ وبناتُ الأختِ، وأمهاتُكُم اللاتي أرضعْنَكُمْ، وأخواتُكمْ مِنَ الرَّضاعَةِ، وَأمَّهاتُ نِسائِكُمْ وربائبُكُم اللاَّتي في حُجُورِكُمْ مِنْ نسائكُمُ اللاتي دخلتُمْ بهنَّ، فإنْ لم تكونُوا دخلتُمْ بهنَّ فلا جُنَاحَ عليكم وحلائلُ أبنائِكُم الذينَ من أصلابِكم وأنْ تجمعُوا بَيْنَ الأُختينِ إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إنَّ الله كانَ غفُوراً رحيماً﴾[5] فقوله تعالى: ﴿حرمت عليكم

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٢٥.
(٢) سورة النبأ: الآية ٣٥.
(٣) سورة الحجر: الآية ٤٧.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢١.
(٥) سورة النساء: الآية ٢٣.

أمهاتكم﴾ فيه إضافة (أمهات) إلى الضمير، هذه الإضافة جعلت معنى الآية عاماً، فشمل التحريم كل أم انتسبت إليها وإن علت.

وكذلك قوله ﴿وبناتكم﴾ شمل التحريم كل بنت انتسبت إليك وإن نزلت، وذلك بسبب الاضافة.. وهكذا إلى آخر المذكورات في الآية الكريمة.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وتلكَ حجتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ. نرفعُ درجاتٍ مَنْ نَشاء. إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ. ووهبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ. كُلاً هدينا، ونوحاً هديْنا مِنْ قَبْلُ، ومِنْ ذُريَّته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ. وكذلكَ نجزي المحسنينَ. وزكريَّا ويحيى وعيسى وإلياسَ، كلٌّ مِنَ الصالحينَ. واسماعيلَ واليَسَعَ ويُونُسَ وَلُوطاً وكلاً فضَّلْنا على العالمين. ومِنْ آبائِهم وذريَّاتِهمْ وإخوانِهمْ، واجتبيْناهم وهديْناهُم إلى صراطٍ مستقيمٍ. ذلك هُدى الله يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاء مِنْ عِبادِهِ. وَلَوْ أشركُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلونَ. أولئكَ الذينَ آتيناهُمْ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ فإنْ يكفرْ بها هؤلاء فَقَدْ وكَّلْنا بها قَوْماً ليسوا بها بكافرينَ. أولئكَ الذينَ هَدَى الله فَبِهُداهُمُ اقتدِهْ. قُلْ لا أسألُكمْ عليهِ أجْراً إنْ هُوَ إلا ذكرى للعالمين﴾[1] فقوله سبحانه بعد أن ذكر الأنبياء ﴿أولئك الذين هدى الله فَبِهداهُمُ اقتَدِهْ﴾ فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من هدى الله الذي آتاهم، ذاك الهدى الذي هو العلوم النافعة، والأخلاق الحسنة الزاكية، والأعمال الطيبة الصالحة.

فالاضافة في قوله (فبهداهم) أفادت هذا العموم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه[2].

والمدار على ثبوت ذلك عن أولئك الأنبياء، ولا يثبت إلا بوروده في القرآن العظيم أو السنة الصحيحة. أما كتبهم التي بين أيديهم الآن فليست صحيحة لأنهم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٣-٩٠.

(٢) انظر «القواعد الحسان لتفسير القرآن» للشيخ ابن سعدي ١٥.

حرّفوها وبدلوا كثيراً مما جاء فيها وزادوا ونقصوا ﴿فويلٌ للذين يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثُمَّ يقولونَ هذا من عندِ الله ليشترُوا بهِ ثمناً قليلاً. فويلٌ لَهُمْ ممَّا كتبتْ أيديهم وويلٌ لهم ممَّا يكسِبونَ﴾[١].

وقد ورد في القرآن ذكر لبعض الأحكام الشرعية المنزلة على بعض الأنبياء فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وكتبْنَا عليهم فيها أنَّ النفسَ بالنفسِ، والعينَ بالعينِ، والأنفَ بالأنْفِ، والأذُنَ بالأذُنِ، والسِّنَّ بالسِّنِّ والجروح قصاصٌ. فمنْ تصدَّقَ بهِ فهو كفَّارَةٌ لَهُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿مِنْ أجلِ ذلكَ كتبْنا على بني إسرائيلَ أنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بغيرِ نفسٍ أوْ فَسادٍ في الأرضِ فكأنما قَتَلَ الناسَ جميعاً﴾[٣] وهكذا فإن مراعاة هذه القواعد من قبل المفسر تعينه على الفهم السليم أولاً ثم على التفسير الصحيح الواضح ثانياً.

من أدوات العموم التي إذا كانت في الكلام جعلت معناه عاماً شاملاً.. من هذه الأدوات أسماء الاستفهام، وقد يخرج الاستفهام عن معناه إلى النفي، ولكنه لا ينفكُّ عن العموم.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ومَنْ أظلمُ ممَّن منعَ مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمُهُ، وسعى في خرابِها. أولئكَ ما كانَ لَهُمْ أن يَدْخلوها إلا خائفينَ. لَهُمْ في الدنيا خزْيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾[٤].

والمعنى: ليس هناك أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، وهي عامة، فكل من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها المادي والمعنوي هو أظلم الناس. وبهذا يلتقي القولان اللذان ذكرهما المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها. القول الأول النصارى وبيت المقدس، وقد اختاره ابن جرير، والقول الثاني المشركون والمسجد الحرام، وقد اختاره ابن كثير.

(١) سورة البقرة: الآية ٧٩.
(٢) سورة المائدة: الآية ٤٥.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣٢.
(٤) سورة البقرة: الآية ١١٤.

والآية بعمومها تشمل الفريقين وتشمل كل من سيقوم بهذا العمل الاجرامي، كما تحدثنا الأنباء عن صنيع الشيوعيين ومن على شاكلتهم في بيوت الله وكيف يمنعون الناس من ذكر الله فيها، ويسعون في خرابها الماديّ والمعنوي.

والتخريب المعنويُّ قد يخفى على السذج البسطاء من الناس، ويعجبني قول ابن كثير رحمه الله الآتي: [قال تعالى: ﴿ إنّما يَعْمُرُ مساجدَ الله مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يَخْشَ إلاّ الله ﴾[1]. فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها، مصدوداً عنها، فأيُّ خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها، وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك][2].

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أظْلَمُ ممّن افترى على الله كذباً أو كذَّب بآياته إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمونَ ﴾[3].

والآية هنا تُقرّر أنه ليس هناك أظلم **ممن افترى على الله** كذباً بنسبة الشريك إليه سبحانه وبإصدار أحكام من عند أنفسهم ونسبتها إلى الله كذباً وزوراً، وبابتداع قيم ومبادىء يغتصبون فيها سلطان الله ويدعونه لأنفسهم ويزعمون أنها هي دين الله، **أو كذّب بآيات** الله التي أنزلها على محمد ﷺ ... إنَّ هذا وذاك من أظلم الظلم.. والآية التي جاءت بعد هذه الآية تدل على أن المشركين هم من هؤلاء الظالمين إذ يقول الله سبحانه: ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ ثم لم تكن فتنتُهُمْ إلاّ أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾.

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

[والمشهد شاخص، والحشر واقع، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم.. الأليم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟»].

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٥٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٢١.

وهنا يفعل الهولُ فعله.. هنا تتعرى الفطرة من الركام الذي ران عليها في الدنيا.. هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة ـ كما هو منعدم في الواقع والحقيقة ـ وجود الشركاء؛ فيشعرون أنه لم يكن شرك، ولم يكن شركاء.. لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع.. هنا يفتنون فيذهب الخبث، ويسقط الركام ـ من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزبد ـ: ثم لم تكن فتنتُهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين.. إن الحقيقة التي تجلت عنها الفتنة، أو التي تبلورت فيها الفتنة، هي تخليهم عن ماضيهم كله، وإقرارهم بربوبية الله وحده، وتعريهم من الشرك الذي زاولوه في حياتهم الدنيا.. ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق، والتعري من الباطل.. فهو إذن بلاء هذا الذي تمثله قولتهم، وليس بالنجاة.. لقد فات الأوان.. فاليوم للجزاء لا للعمل.. واليوم لتقرير ما كان، لا لاسترجاع ما كان..

لذلك يقرر الله سبحانه، معجباً رسوله ﷺ من أمر القوم، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء، حيث لا وجود لشركتهم مع الله في الحقيقة، وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه، فاعترفوا بالحق بعدما غاب عنهم الافتراء: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ فالكذب منهم كان على أنفسهم، فهم كذبوها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكاً، وافتروا على الله هذا الافتراء. وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون وغاب، في يوم الحشر والحساب!] ثم قال: [والله أعلم بمراد على كل حال.. إنما هو احتمال] (١).

وهكذا فقد كان الاستفهام في الآية دالاً على العموم. وجاء في سورة الأنعام نفسها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أظلمُ ممّنِ افترى على الله كذباً. أو قال: أوحيَ إليَّ، وَلَمْ يُوحَ إليه شيء. وَمَنْ قال: سأنزلُ مِثْلَ ما أنزلَ الله. ولو ترى إذِ الظالمونَ في غمراتِ الموتِ، والملائكةُ باسطو أيديهم: أَخْرِجُوا أنفُسَكُمْ. اليومَ تُجْزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولونَ على الله غيرَ الحقِّ وكنتُمْ عن آياتِه تستكبرونَ ﴾(٢)

(١) في ظلال القرآن طبعة الشروق ١٠٦٤/٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

والاستفهام الوارد في الآية دل على النفي، أي لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذباً.

وتنقلنا الآية من تقرير هذه الحقيقة الخالدة إلى مشهد هؤلاء الظلمة عند الموت وعذابهم يوم القيامة أشد.. هؤلاء الذين لا يوجد أظلم منهم أبداً.. لأنهم يفترون على الله الكذب، وينسبون إلى الله أحكاماً وأقوالاً هي من صنع أيديهم، ويدعون النبوة وأنه يوحى إليهم وهم كذبة.. ومثلهم الذين يستهزئون ويتطاولون ويقول أحدهم: سأنزل مثل ما أنزل الله، أو قائلين: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

هؤلاء الظالمون يتعرضون وهم في غمرات الموت إلى تعذيب وتوبيخ.. فالملائكة باسطو ايديهم إليهم بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفاً أخرجوا أنفسكم إلينا اليوم تجزون عذاب الهوان بما كنتم تفترون على الله الكذب وبما كنتم تستكبرون عن آياته.

القرآن مُنزل من عند الله

إنَّ مما يجب على المفسر أن يعرفه ويعيه أعمق الوعي أن هذا الكتاب الكريم المعجز منزل من عند الله، وأن يعرف موضوعه والغرض من نزوله، وأنه كتاب فريد في أسلوبه ومعالجته للقضايا التي يبحثها، لم يعرف البشر له نظيراً منذ برأ الله الوجود وإلى أن تقوم الساعة. إنه أسلوب لم يسبق إليه، ولم يستطع البشر أن يأتوا بمثله.

في القرآن أحكام فقهية وقصص تاريخية وأمور أخرى كثيرة، فلو أخذنا كتاب فقه ووازنَّا بين ما ورد فيه وبين ما جاء في القرآن في المسألة ذاتها لوجدنا الفرق كبيراً ولرأينا أسلوب القرآن أسلوباً متميزاً مخالفاً لما عرف الناس في هذا المجال.

انظر كيف يعرض الأحكام وكيف يفصّلها، وكيف يعلّق عليها ويربط بينها وبين العقيدة والخوف من الله ورجاء رحمته وخشية عذابه.. بلغة معجزة رفيعة البيان.

وكذلك لو أخذنا كتاب تاريخ ووازنّا بين ما ورد فيه وبين ما جاء في القرآن في القصة نفسها لوجدنا البون شاسعاً... الحقائق التاريخية في المصدرين قد نجدها متفقة ولكنَّ القرآن يفارق كتاب التاريخ البشري في بداية إيراده القصة وفي طريقة عرضها والتعليق عليها وبأسلوب سردها وفي استخلاص العبرة منها، وربط ذلك بالعقيدة الصحيحة. إنّ أسلوب القرآن أسلوب متميز لا نظير له فيما عرف البشر.

والطريقة الجدية في دراسة أي كتاب وفهمه وشرحه أن يعرف الدارس نسبة الكتاب إلى صاحبه والظروف التي رافقت صدوره، وموضوعه، ومقاصده وغايته المتوخاة، وخصائصه التي تميزه عن غيره، وأسلوبه وطريقة عرضه، وهل هناك مصطلحات وجمل خاصة به يكثر من إيرادها.. إلى غير ذلك من الأمور.

ومن أجل ذلك كانت في الجامعات مادّة تعرف الطلاب بالمصادر والمراجع على نحو مما أشرنا إليه آنفاً. وهي مادة مهمة نافعة جداً. تكوِّن الملكة العلمية وترشد عملية الفهم والاستيعاب، وتعين على الشرح والتفسير.

إنَّ معرفة هذه الأمور عن كتاب ما تسهل للمرء الوقوف على حقيقة المسائل العلمية التي يبحثها الكتاب، واستخراج ما يريد من حقائقه.

وربما كان المثال مساعداً في توضيح هذه الفكرة. لدينا في اللغة العربية معجمات عدّة نكشف فيها عن معنى الكلمة التي لا نعرف معناها على وجه الدقة. ولكن هذه المعجمات ليست سواء. هناك معجمات ترتب الكلمات فيها على أوائل الحروف، وهناك معجمات ترتب الكلمات فيها على أواخر الحروف، وهناك معجمات ترد الكلمة إلى أصل مادتها وهناك معجمات توردها على هيئتها الحاضرة. وهناك معجمات عامة وهناك معجمات خاصة بعلم أو كتاب أو فن من فنون المعرفة.

فالمصباح المنير للفيومي مثلاً معجم خاص بكتاب فقه شافعي معروف، والنهاية لابن الأثير معجم خاص بغريب الحديث النبوي، وأساس البلاغة معجم يعني بالمجاز وهكذا فمعرفة هذه الأمور وأمثالها تسهل على طالب العلم بغيته. وهكذا الكتب الأخرى.

والقرآن كتاب الله أحق بأن يعرف قارئه الخصائص التي يتصف بها، لأن الإنسان إذا وقف عليها في مطلع الأمر استطاع أن يتفادى كثيراً من المخاطر والمزالق التي يتعرض لها غيره ممن لم يعرف هاتيك الخصائص، والغلط في دراسة القرآن وتفسيره أمر كبير وخطره خطر جسيم.

وعلم أصول التفسير الذي نتحدث عن معالمه هو الذي يتولى تحديد هذه المهمة وبيان حدودها، وهو يعتمد على علوم عدة من أهمها أصول الفقه وعلوم القرآن وعلوم الحديث وقواعد العربية. ومن هنا كان على المفسر أن يكون على علم تام بهذه المباحث وغيرها.

والأمر الأول معرفة أصل هذا الكتاب ومصدره:

هذا الكتاب الكريم هو كلام الله المعجز ووحيه المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ: نطقت بهذه الحقيقة آياته ودلت الأدلة والشواهد عليها، وكلما تقدم الزمان زادت رسوخاً.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكرَ وإِنَّا لَهُ لحافظونَ ﴾ (١).

﴿ ونَزَّلْنَا عليكَ الكتابَ تِبْيَاناً لكلِّ شيء وهدًى ورحمةً وبُشْرى للمسلمينَ ﴾ (٢).

﴿ إِنَّا نحنُ نزَّلْنا عليكَ القرآنَ تنزيلاً ﴾ (٣).

﴿ وإِنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ. نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِكَ لتكونَ مِنَ المُنْذِرينَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ وإِنَّهُ لفي زُبُرِ الأولينَ. أوَ لَمْ يكنْ لهم آيةً أن يَعْلَمَهُ علماء بني إسرائيلَ ولو نزَّلْناهُ على بعضِ الأعجمين فقرأهُ عليهم ما كانُوا به يُؤمنون ﴾ (٤).

﴿ تنزيلُ الكتابِ منَ اللهِ العزيزِ الحكيم. إِنَّا أنزلْنَا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدينَ ألا للهِ الدينُ الخَالصُ ﴾ (٥).

﴿ حمَ. تنزيلٌ من الرحمنِ الرحيم. كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قُرآناً عربياً لقوم يَعْلَمونَ بَشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرُهمْ فَهُمْ لا يَسْمعون ﴾ (٦).

﴿ وإِنَّهُ لكتابٌ عزيزٌ. لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفِه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ. ما يُقَالُ لكَ إلا ما قَدْ قيلَ للرسلِ منْ قبلكَ إنَّ ربَّكَ لذو مغفرةٍ وذو عقابٍ أليمٍ. ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أأعجميٌّ وعربيٌّ. قل

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٣) سورة الانسان: الآية ٢٣.

(٤) سورة الشعراء: الآية ١٩٢-١٩٩.

(٥) سورة الزمر: الآية ١-٢.

(٦) سورة فصلت: الآية ١-٤.

هُوَ للذين آمنوا هُدَىً وشفاءٌ والذين لا يؤمنونَ في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عليهم عَمىً أولئك يُنادَوْن من مكانٍ بعيدٍ ﴾ [1].

فالله العلي الكبير خالق هذا الكون خلق الانسان وأحلّه في هذا الكوكب الأرضي، وأعطاه حرية في الإرادة والتفكير لم يتركه هملاً بل أرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب، وآخر هذه الكتب القرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد آخر الأنبياء والمرسلين.

إنّ هذه الحقيقة ينبغي أن تكون نصب عين المفسر الذي يتصدى لتفسير القرآن الكريم.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٤١-٤٤.

المودودي وأصول التفسير

من الذين كتبوا في أصول التفسير وعُنوا بتوضيح أهمية معرفة المفسر أن القرآن منزل من عند الله الأستاذ أبو الأعلى المودودي ــ المتوفى سنة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م رحمه الله تعالى رحمة واسعة ــ وذلك في رسالة قصيرة، صدرت عن دار العروبة للدعوة الاسلامية بلاهور في باكستان سنة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م تحت عنوان «مبادىء أساسية لفهم القرآن» وطبعت طبعات عدة في البلاد العربية. وهذه الرسالة ترجمها إلى العربية الأستاذ خليل الحامدي، وذكر في مقدمتها أنَّ للأستاذ المودودي تفسيراً للقرآن مكتوباً بالأوردية سمَّاه «تفهيم القرآن» وفي مطلع هذا التفسير هذا البحث الطريف الممتع.

قال الأستاذ الحامدي: [وقد تناول الأستاذ الجليل في هذا البحث المبادىء الأساسية التي لا بُدَّ لكل من يريد فهم القرآن وبلوغَ ما احتوى الكتاب الإلهي من كنوز وذخائر أن يتبنَّاها ويجعلها منطلق دراسته، ودليل رحلته في عالمه الشاسع الأطراف.

وهي المبادىء التي إذا لم يلتزم بها دارس هذا الكتاب ولم يدخلها في قائمة الحساب حين دراسته لا يستبعد أن يخرج من دراسته وهو لم يهتد بهديه الذي جاء به، ولم يتبيّن ما دعا إليه، ولم يستفد من كنوزه التي انطوى عليها كل حرف منه. وموجز القول أنه لم ينل منه ما يصلح به دنياه وآخرته، اللهم إلا نزراً يسيراً يحالفهم التوفيق الالهي، فيأخذ بيدهم إلى بر الأمان وقد أخرج الأستاذ المودودي هذه (المبادىء) بعد أن قطع من عمره فترات طويلة في الغوص في هذا البحر الذي لا نهاية له، وسهّل بذلك مهمة غيره من

دارسي القرآن الكريم عسى أن يجدوا في هذه الرسالة ما ينير لهم الطريق إلى بلوغ روح القرآن ودعوته..].

والرسالة ــ كما هو واضح ــ وضعت مقدمة لكتابه في التفسير.. والمودودي في ذلك جارى المؤلفين الآخرين الذين يوردون في مقدمات تفاسيرهم شيئاً من أصول التفسير، وقد مرَّ بنا ذكر نماذج من ذلك فيما مضى من بحوث هذا الكتاب.

ومؤلف هذه الرسالة رجلٌ منظم الفكر، أصاب من دراسة الثقافة الأوربية حظاً جيداً مع اطلاعه الكبير على العلوم الاسلامية، ثم هو ــ قبل ذلك وبعده ــ بَلا العملَ الجماعي والدعوة في صفوف الناس فهو من أقدر الناس على توضيح المسألة الغامضة وعرضها العرض المفيد المؤثر.

ويتميز الأستاذ المؤلف بخصائص جعلته من كبار أعلام الاسلام في العصر..:

١ ــ فهو من أقدر الناس على عرض الاسلام بلغة العصر وبالأسلوب المقنع.
٢ ــ وهو معتز بالاسلام اعتزازاً كبيراً.
٣ ــ وهو جامع بين النظرية والتطبيق؛ لأنه عالم عمل في الدعوة بين صفوف الناس عمالاً وفلاحين ومثقفين وأمضى حياته في الدعوة إلى الله والتخطيط لها.
٤ ــ وهو من أعظم الناس أثراً على أبناء عصرنا علمائه وشبابه، وليس من شك في أن الكاتب الاسلامي الكبير سيد قطب رحمه الله قد تأثر بفكر المودودي أعظم التأثر.

وهذه المزايا وغيرها لا يستطيع أن ينكرها منصف مطلع.. ولكنه يبقى بشراً من البشر يخطىء ويصيب.. ومعاذ الله أن يجرّنا الاعجاب به إلى ادّعاء العصمة له.. بل له آراء اجتهد فيها ولم يصب الحق، وهو مأجور إن شاء الله، وشأنه في هذا شأن علماء الاسلام الآخرين في كل العصور.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي حفظه الله: [إني لا أعرف رجلاً أثر في الجيل الاسلامي الجديد فكرياً وعلمياً مثل تأثير الراحل العظيم، لا في العمق ولا

في السعة. **وقد** كان السيد جمال الدين الأفغاني من أقوى الشخصيات الاسلامية التي نبغت في القرن الماضي وأكبرها نفوذاً في عقول الشباب المثقف، وسيطرة بل سحراً عليها، وتأثيراً في الفكر والاتجاهات والأساليب الأدبية والكتابية والخطابية حتى كان صانع جيل ومفتتح عهد. ولكن الحق يقال أن سيطرته العقلية والنفسية كانت محدودة في السخط على الأوضاع السياسية القائمة، والاستعمار الأجنبي وفي إثارة الأنفة والنخوة في الشعوب الاسلامية المحكومة في بلادها، والعملِ للجامعة الاسلامية، لم ترافقها فكرة منسقة ولا دعوة واعية إيجابية تقوم على الدراسات الاسلامية العميقة، والنقد والتحليل العلميين للحضارة الغربية المادية وقيمها وموازينها، مع شدة حنق هذا النابغة الاسلامي وتلميذه العملاق الشيخ محمد عبده على الأمم الغربية التي قادت الحملة والزحف على العالم الاسلامي، [وفي مقدمتها وعلى رأسها الشعب الانكليزي والحكومة البريطانية]، وكانت دعوة سلبية أكثر منها إيجابية. **بخلاف** الأستاذ السيد أبي الأعلى المودودي الذي قامت دعوته على أسس علمية أعمق وأمتن من أسس تقوم عليها دعوات سياسية وردودُ فعلٍ للاستعمار الأجنبي. وكانت كتاباته وبحوثه موجهة إلى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية وفلسفتها للحياة، وتحليلها تحليلاً علمياً قلّما يوجد له نظير في الزمن القريب، وقد عرض الاسلام ونظام حياته وأوضاع حضارته وحكمه، وصياغته للمجتمع والحياة، وقيادته المركب البشري، والمسيرة الانسانية في أسلوب علمي رصين، وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف، ومستوى العصر العلمي، ويملأ الفراغ الذي كان يوجد في الأدب الاسلامي من زمن طويل، ويقضي حاجة في نفس الشباب الطموح إلى مجد الاسلام والمسلمين وقيام دوله ومجتمعاته الشريفة المعتزة بنفسها ودينها ورسالتها ومقومات حياتها في الأقطار الاسلامية أولاً وفي العالم بالتالي] (١).

وهذه الرسالة في أصول التفسير تطرح قضايا مسلّمة تتصل بالقرآن، ويغلب عليها التفصيل والتجريد بآن، وهي أيضاً تعرض قضايا من علوم القرآن عرضاً

---

(١) مجلة الرائد الهندية العدد ٧ السنة ٢١ ذو القعدة ١٣٩٩ أكتوبر ١٩٧٩ الصفحة الأولى.

بعيداً عن المصطلحات وطريقة الكتب المتخصصة. والعناوين التي يجدها القارى في هذه الرسالة هي:

أسلوب الوحي وأسلوب البشر ــ أصل القرآن ــ موضوع القرآن وهدفه ــ مراحل نزول القرآن ــ القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة ــ سر التكرار في القرآن ــ كيف رتبت آيات القرآن ــ منهج الدراسة التفصيلية الشاملة ــ شروط أساسية لدارس القرآن ــ القرآن كتاب هداية للبشرية كافة ــ مبادىء عامة حول الخلاف في تفسير القرآن.

والرسالة موجزة لا تتجاوز ٦٦ صفحة من القطع الصغير.

من الأمور التي لا بُدَّ من معرفتها عن كتاب ما من الكتب معرفة مصدره، حتى يكون فهمه واستيعابُه والانتفاع منه متحققاً. إن لمعرفة المصدر دوراً أساسياً في إعطائه قيمته الحقيقية ونجاحه في أداء مهمته.. وهذا وذاك يساعد على شرحه للآخرين وبيان مقاصده.

وهذا الكلام العام ينطبق على القرآن الكريم.

ذكر القرآن الكريم أنه تنزيل من رب العالمين، نزل به جبريل على قلب محمد لينذر به قومه ثم العالمين. ومما يتصل بمعرفة المصدر معرفة حال الذين أنزل هذا الكتاب إليهم.. إنّ قصة الانسان ووجوده على الأرض وعلاقته بالله تبارك وتعالى ومراحل رحلته الطويلة في حياته على هذا الكوكب.. كل أولئك مما ينبغي أن يقف عليه من يريد أن يفهم هذا القرآن ويشرحه للناس، ذلك لأنَّ كثيراً من المفاهيم الباطلة التي وردت إلى أبناء المسلمين من الكفار أصبحت (مسلّمات!! وبديهيات!!) غير قابلة للمناقشة عند نفر من الناس، وهي تتعارض أصلاً مع الحقائق التي يقررها هذا الكتاب الكريم: القرآن. ومن أجل ذلك فالإشارة إليها هنا في أصول التفسير إشارة تأتي في محلها ولها أهميتها وقيمتها.

إنّ قصة وجود الانسان وأصله وتفرّق الناس إلى شعوب وقبائل وأجناس عالجتها نظريات عدة تسربت إلينا من حضارة الغرب الكافر، كان منها نظرية دارون وهي تصادم ما جاء في القرآن، وقد قبلها كثير من الناس باسم العلم

والتحريات التاريخية والآثار وما إلى ذلك. من أجل ذلك فلا بد لنا ونحن نتعرف عن مصدر القرآن وعن حال من نزل إليهم لا بدّ لنا من التذكير ببعض الحقائق التي يعرفها كل مسلم.

١ ــ الناس هم بنو آدم، ينحدرون من آدم وزوجه ﴿يا أيُّها النّاسُ إنّا خلقْناكُمْ مِنْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكُمْ شُعُوباً وقبائلَ لتعارفُوا إنَّ أكرمَكُمْ عِنْدَ الله أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾[١] ﴿يا أيُّها النّاسُ اتقوا ربَّكُم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرْحَامَ إنَّ الله كانَ عليكم رقيباً﴾[٢].

٢ ــ إنَّ هذا الكون الفسيح الواسع من خلق الله، وقد شاءت إرادته أن يُحلَّ آدم وزوجه وبنيهما هذا الكوكب الأرضي.. وميّز الانسان عن غيره من المخلوقات بمواهب وطاقات، وجعل له جزءاً اختيارياً رتّب عليه الثواب والعقاب، ويبدو هذا الجزء الاختياري واضحاً للعيان، ووهبه فطرة سليمة تقوده إلى الاعتراف بوجود الخالق وتوحيده وعبادته.. ولم يتركه مهملاً مضيّعاً بل أرسل له الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين من آدم إلى محمد ﷺ، وبيّن له طريق الحق وطريق الباطل وسبل الخير وسبل الشر بكتبه التي أنزلها، ووحيه الذي أوحاه إلى الأنبياء والرسل.

بيّن له أنه لا إله إلاّ هو، ودعاه إلى عبادته وحده، ورتّب على اختياره الجزاء، فإن هو امتثل أمر الله وآمن به وعبده وحده واتبع المنهج الذي أقامه كان من الفائزين ودخل الجنة، وإن هو أعرض واستكبر وكفر وأشرك به غيره وسلك سبيل الغواية كان من الهالكين وأدخل النار.

٣ ــ وصورة آدم كما يصورها القرآن صورة مشرقة لإنسان مهتد راق يتكلم كما علّمه الله ويعبد الله وحده على المنهج الرباني السليم المتمثل في طاعة الله وإسلام الأمر إليه.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

لا كما تزعم الأساطير الباطلة التي ترد إلينا باسم العلم أنّ الانسان الأول كان متوحشاً لا يتكلم ولا يعي.

ووصى آدم ذريته باتباع طريق الهدى، والتزام شرعة الحق، إلا أن الانسان فيما بعد حاد عن الصراط السويّ شيئاً فشيئاً، واتبع المناهج المنحرفة. وكان هذا التحول نتيجة طبيعية للاختيار الذي مُنحه الإنسان.. ولم تتدخل قدرة الله لتصرفه عن اختياره.. بل ترك يحقق إرادته كاملة. قال تعالى: ﴿ولو شاء ربُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرض كُلُّهم جميعاً. أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتَّى يكونُوا مؤمنينَ﴾[1].

بل إنَّ الله ليبسر لكلٍ السبيل التي اختارها قال تعالى:

﴿إنّ سعيَكم لشتَّى. فأما مَنْ أعْطَى واتَّقى. وصَدَّق بالحسنى. فسنيسِّرُهُ لليسرى وأما مَنْ بَخِلَ واستغنَى. وكذَّبَ بالحُسْنَى فسنيسِّرُهُ للعسرى﴾[2].

٤ ــ لم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها رسولاً ﴿إنَّا أرسلناكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً، وإنْ من أمةٍ إلاَّ خلا فيها نذيرٌ﴾[3].

وكان عدد الأنبياء والرسل كبيراً، منهم من قصَّ الله علينا نبأهم، ومنهم رسل لم يقصص علينا شيئاً من أخبارهم.

﴿وَلَقَدْ أرسلْنا رُسُلاً مِنْ قبلِكَ. مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عليكَ. ومنهمْ مَنْ لم نَقْصُصْ عليك. وما كانَ لرسول أن يأتيَ بآيةٍ إلاَّ بإذنِ الله. فإذا جاء أمرُ الله قُضِيَ بالحقِّ وخَسِرَ هنالكَ المُبْطِلونَ﴾[4].

وهؤلاء الرسل جميعاً كانوا يدعون إلى التوحيد وعبادة الله وحده يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بعثْنَا في كلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبدُوا الله واجتنبُوا الطاغوتَ فمنهم مَنْ هَدى

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٩.
(٢) سورة الليل: الآية ٤-١٠.
(٣) سورة فاطر: الآية ٢٤.
(٤) سورة غافر: الآية ٧٨.

الله، ومنهم مَنْ حقَّتْ عليه الضلالةُ. فَسيرُوا في الأرضِ فانظرُوا كَيْفَ كانَ عاقبةُ المكذبينَ ﴾ (١).

وكان سيدنا محمد ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، بعثه الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وأنزل عليه هذا القرآن.

٥ ــ إن هذه الحقائق المسلّمة المعروفة تمثل أصلاً من الأصول التي ينبغي أن يتصورها دائماً من يحاول فهم كتاب الله ويتصدى لتفسيره.

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٦.

موضوع القرآن وهدفه

إن معرفة موضوع القرآن وهدفه أمرٌ مهم جداً بالنسبة للمفسر، ذلك لأن هذه المعرفة تعين على الفهم السليم، وتعصم من الانحراف والزلل.

وسنحاول أن نبيّن في هذه الكلمة موضوع هذا الكتاب الكريم وهدفه.. وقبل ذلك نود أن نضرب مثلاً يوضح لنا كيف يمكن وقوع الانحراف عندما يكون المتصدي للتفسير غير مستحضر موضوع القرآن.

ألم يأتكم نبأ قوم يتلمسون علم الفلك في القرآن أو علم الكيمياء أو علوم طبقات الأرض، أو علم الطب أو ما إلى ذلك، وكتبوا في هذا ما دعوه التفسير العلمي؟ إنَّ هؤلاء لم يخوضوا في هذه الأمور إلا وهذا المعنى غير حاضر في أذهانهم.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

[ولم يجيء القرآن ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي... كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم. إنّ كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إنّ مجاله هو النفس الانسانية، والحياة الانسانية، وإن وظيفته أن ينشيء تصوراً عاماً **للوجود** وارتباطه بخالقه **ولوضع** الانسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة، يسمح للانسان أن يستخدم كل طاقاته.. ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل ـــ بالبحث العلمي ـــ في الحدود المتاحة للانسان ـــ وبالتجريب والتطبيق تصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

إنّ مادة القرآن التي يعمل فيها هي الانسان ذاته: تصوره واعتقاده، ومشاعره

ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته][1].

ثم قال رحمه الله:

[إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الإنسان ذاته، الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها.. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الانسان. والقرآن يعالج بناء هذا الانسان نفسه، بناء شخصه وضميره وعقله وتفكيره كما يعالج بناء المجتمع الانساني الذي يسمح لهذا الانسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه بعد أن يوجد الانسان السليم التصور والتفكير والشعور ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط...][1].

إنَّ هذا الذي نقرره بديهية واضحة أعظم الوضوح.

إننا قبل أن ننظر في كتاب ما للبحث عن مسألة من مسائل العلم تشغل بالنا ننظر في موضوع الكتاب فمثلاً لو أراد إنسان أن يبحث في قاعدة نحوية رجع إلى كتاب من كتب النحو، ولا نتصور أن يأخذ كتاباً في علم النفس ويبحث فيه عن تلك القاعدة النحوية.. ولو فعل ذلك لكان جاهلاً.

إنَّ الذي يريد أن يبحث في مرض السل لا يلجأ إلى دستور الولايات المتحدة الأمريكية وينقب بين مواده ليعثر على شرح مفصل لأعراض ذلك المرض وأسبابه وعلاجه والوقاية منه.. إنَّ عليه إن أراد الوقوف على بغيته أن يرجع إلى كتاب من كتب الطب.. بل عليه أن يرجع إلى نوع معين من كتب الطب.

وهكذا فإنَّ معرفة موضوع الكتاب الخطوة الأولى للوصول إلى الحقيقة المطلوبة.. وإن العارف لذلك لخليق أن يصل إلى مراده.. وإنه عندئذ لقادر على أن يشرح هذا الكتاب إن توافرت له الشروط اللازمة.

إنّ موضوع القرآن ــ كما تبيّن من الكلام الذي نقلناه عن سيد قطب ــ هو الانسان والحياة الانسانية.

---

(١) انظر «لمحات في علوم القرآن» الطبعة الثانية ٢٩٤-٢٩٥.

لقد عالج القرآن الكريم قضية الانسان، وحدّد أساس نجاحه وسعادته، وحدّد أسباب خسرانه وشقائه.

ويُفْهم من آياته البيّنات المعجزات أنَّ التصورات البشرية التي وضعها الانسان عن نفسه وعن الكون والحياة والخالق مدفوعاً بدراسته السطحية، ومتأثراً بالأهواء الظاهرة والخفية تصورات باطلة مهلكة. وكذلك فإن المواقف التي اتخذها على أساس تلك التصورات باطلة أيضاً ومهلكة.

وقرر أنّ الحق هو ما جاء في هذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وأنّ سواه الباطل.

وقرر أنه ليس هناك منهج ينجي صاحبه إلا الاسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرين ﴾[1] ﴿ فماذَا بَعْدَ الحقِّ إلا الضلالُ فأنّى تُصْرَفُونَ ﴾[2] وهذا المنهج الصحيح ينتهي بسالكه إلى العاقبة الحسنة ﴿ فاصبرْ إنَّ العاقبةَ للمتقين ﴾[3] ﴿ تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلُها للذينَ لا يُريدونَ عَلُوًّا في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتقين. مَنْ جاء بالحسنةِ فلهُ خيرٌ منها. ومن جَاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى الذينَ عَمِلُوا السيئات إلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.
(٢) سورة يونس: الآية ٣٢.
(٣) سورة هود: الآية ٤٩.
(٤) سورة القصص: الآية ٨٣-٨٤.

هدف القرآن ومراحل نزوله

□ هدف القرآن دعوة الانسان إلى هذا المنهج الصحيح الذي هو الإسلام، وتبيينٌ لهدى الله الذي أنزله الله ليَسْعَدَ البشرُ في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿آلر. كتاب أنزلناهُ إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ بإذنِ ربِّهم إلى صراط العزيز الحميد﴾(١) شأنه في ذلك شأن الكتب السابقة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أرسلْنَا موسى بآياتنا أنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ من الظلمات إلى النورِ وَذَكِّرْهُمْ بأيَّام الله. إن في ذلك لآيات لكل صبَّارٍ شكور﴾(٢).

هدف القرآن إخراج الناس من الظلمات إلى النور بذاك الهدى الذي تنادي به الفطرة والذي ضلّ عنه الانسان بسبب الهوى والشهوات وعدم المبالاة ووسوسة الشيطان أو شَوَّهَهُ بدافع من غروره ومكابرته وطمعه.

إن معرفة هدف القرآن تجعل دارسه مدركاً تسلسل الموضوعات المتعددة وتعاونها على تحقيق الهدف المطلوب. قال الأستاذ المودودي:

[وتجد مباحثه المتنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسي التئام الدرر الملونة الصغيرة والكبيرة في سِمْطِ القلادة السندسي. إنه يحدّث عن السماء كيف صنعت، وعن الانسان كيف خلق، وعن المشاهدات في آثار الكون، وعن الأمم الخالية وقصصها، إنه ينتقد أعمال مختلف الأمم، وسلوكها وعقائدها. إنه يوضح الشؤون والمسائل التي هي وراء الطبيعة. إنه يتناول أموراً كثيرة غير ما ذكرنا، لا ليدّرس الانسان علوم الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة أو أي فن من الفنون أو أدب من الآداب، بل لكي يزيل ما عليه الناس من خطأ وسوء فهم عن الحق، ويقرر في

---

(١) سورة ابراهيم: الآية ١.
(٢) سورة ابراهيم: الآية ٥.

أذهانهم الحقيقة الواقعية، ويشعرهم بما يؤدي إليه المنهج الذي يخالف الحق من مصير بئيس، وعاقبة وخيمة، ويدعوهم إلى المنهج الذي يلائم الحق، ويأخذهم إلى حسن المآب.

ولهذا السبب نفسه هو لا يحدّث عن كل هذه الأمور إلا في أسلوب يتناسب مع هدفه، وإلى حدّ يلزم له. ومن دأبه أنه يذكر هذه الأمور بقدر الحاجة ثم يعود إلى بيان هدفه وبحثه الرئيسي بغض النظر عن التفاصيل التي لا علاقة لها بالبحث. ولذلك ترى حديثه يدور حول الدعوة بدون التواء وبكل اتزان][1].

□ أما مراحل نزول القرآن فمعرفتها ذات أثر كبير في فهم ا لقرآن واستيعاب موضوعاته، وشرحها وتفسيرها.. وقد بحثها العلماء في علوم القرآن في بابين: تنجيم نزول القرآن، والمكي والمدني.

لم ينزل القرآن جملة واحدة لحكم كثيرة اقتضتها إرادة الله، وذكرت بعض هذه الحكم كتب علوم القرآن[2] وقد جاء في القرآن نفسه ما يدل على أن نزوله كان منجماً قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَوْلا نُزِّلَ عليهِ القُرآنُ جُمْلَةً واحِدَة. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرتيلاً﴾[3] قال العلاّمة عبد الرحمن بن اسماعل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة والمتوفى بدمشق سنة ٦٦٥: [فإن قيل ما السرُّ في نزوله منجماً؟ وهلاّ أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى: ﴿وَقَال الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَة﴾ يعنون: كما أنزل على من قبله من الرسل. فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ أي لنقوي به قلبك، فإنّ الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشدّ عناية بالمرسل إليه ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب

---

(١) مبادىء أساسية لفهم القرآن ٢١-٢٢.
(٢) لمحات في علوم القرآن ٥٨-٦٦ ط ٢.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

العزيز فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل][1].

وقد نزل القرآن في مدة ثلاث وعشرين سنة، وتبيّن العلماء فيها مرحلتين رئيسيتين هما مرحلة العهد المكي، ومرحلة العهد المدني ولكل منهما خصائص معينة.

ويحسن أن نذكر أن الأستاذ المودودي رحمه الله جعل العهد المكي مرحلتين الأولى وقدرها بأربع سنين أو خمس، والثانية وقدرها بثماني سنوات أو تسع قال[2]:

[المرحلة الأولى: ... إن الله تعالى اصطفى عبداً من عباده في مكة إحدى مدن جزيرة العرب لرسالته وأمره أن يبدأ بدعوته في مدينته وفي عشيرته قريش. وقد لَقَّنَهُ التعاليم التي لا بُدَّ منها للشروع في هذه المهمة.

وهذه التعاليم الابتدائية كانت في معظمها تحتوي على ثلاث نواح:

أولاً: تعليم الرسول كيف يعدّ نفسه لتحقيق هذا الأمر الجليل، وعلى أي طراز يسعى سعيه.

ثانياً: المعلومات الأولية عن الحق، والرد الاجمالي على ما كان في أذهان الناس الذين يعيشون حوله من مغالطات وأخطاء عن الحق جعلت منهجهم في الحياة في عمى وضلال.

ثالثاً: دعوة الناس إلى المنهج الصحيح، وإيضاح مبادىء الأخلاق الرئيسية التي يحتضنها الهدي الالهي، والتي في اتباعها نجاح الانسان وسعادته... استغرقت هذه المرحلة الابتدائية أربع أو خمس سنوات، وردّ الفعل الذي ظهر في هذه المرحلة من دعوة النبي ﷺ كان يتجلّى في ثلاثة أشكال:

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة ٢٨ والاتقان ١/٤١.
(٢) مبادىء أساسية ٢٣-٢٤.

١ ـ آمن جماعة من خيار الناس بهذه الدعوة الكريمة واستعدوا ليكونوا أمة مسلمة.

٢ ـ نهض العدد الكبير من الناس يناوئون هذه الدعوة إما لجهلهم أو انحرافهم وراء الأهواء والأغراض أو ولوعهم بما وجدوا عليه آباءهم.

٣ ـ بدأت هذه الدعوة الجديدة تتعدّى حدود مكة وأهلها.. وتنتشر في نطاق أوسع نسبياً].

[ثم بدأت المرحلة الثانية من الدعوة. وقد نشأ في هذه المرحلة صراع عنيف بين الحركة الاسلامية وبين الجاهلية السائدة وامتدت سلسلته قرابة ثماني أو تسع سنوات، لا في مكة فحسب أو بين قريش فحسب، بل كلٌّ من كان يريد بقاء الجاهلية الأولى في معظم أقطار جزيرة العرب شمّر عن ساقه، وكشر عن أنيابه للقضاء على هذه الحركة بما يملك من قوة.

استخدم المعارضون جميع الوسائل والمكايد لقمع هذه الدعوة، قاموا بدعاية كاذبة، وألقوا بوابل من الاتهامات والشبهات والاعتراضات، وقذفوا الوساوس المنوعة في قلوب الناس، وحاولوا صدّ الذي كانوا يجهلون أمر النبي ﷺ عن استماع ما يقوله، وانهالوا على الذين آمنوا بالله ورسوله بألوان من الظلم وأنواع من التنكيل، وقاطعوهم مقاطعة اقتصادية، ونغّصوا عليهم العيش حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة من ديارهم إلى بلاد الحبشة مرتين. وآخر الأمر هاجر جميعهم إلى المدينة المنورة. وعلى رغم هذه المعارضة الشديدة والتي كانت في ازدياد مستمر بقيت الحركة في انتشار وازدهار. ولم يكن بيت من بيوت مكة إلا وقد آمن فرد من أفراده. وكان مما يزيد المعارضين عداء وحنقاً لهذه الحركة أن أصبح أشقاؤهم وأحفادهم وأبناؤهم وأخواتهم وأزواج أخواتهم يتبعون دين الله. وليس ذلك فحسب، بل أصبحوا يسترخصون كل نفس ونفيس في سبيله، ثم نهضوا يقاتلون ذوي قرباهم.

ومن الطريف أن الذين كانوا يقطعون صلتهم بالجاهلية الأولى وينضمون إلى هذه الحركة الناشئة كانوا ممن يعتبرون خيار مجتمعهم وزبدة قومهم. وحينما كانوا

ينخرطون في سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغون في صلاحهم وصدقهم واستقامة أخلاقهم الشَأوَ البعيد، حيث لم تتمالك الدنيا إلا الاقتناع بسموّ الدعوة التي كانت تستميلهم بشدة ثم تصنع منهم ما تصنع.

وفي غضون هذا الصراع العنيف الطويل، كان الله تعالى ينزل على نبيّه بحسب المناسبات واقتضاء الحاجة آيات هياجة في جريانها كالنهر الجاري، وفي قوّتها كالفيضان الهائل، وفي تأثيرها كالنار المضطرمة. وفي هذه الآيات أخبر المؤمنون بواجباتهم الابتدائية، وبعث فيها الوعي الجماعي الحركي، وعلموا الورع والتقوى ومكارم الأخلاق وطهارة السلوك، ولقنوا مناهج تبليغ الدين القيّم وطرق إقامته، وشجعوا على مواصلة الدعوة بوعد غير مكذوب بالفوز بالجنة التي فيها نعيم مقيم... وعبئت قلوبهم بشوق دافق إلى جنة عرضها السموات والأرض وملئوا بحماسة دفعتهم إلى مواجهة أقسى محنة، والوقوف في وجه أعتى عاصفة من المعارضة. هذا في جانب المؤمنين. وفي الجانب الآخر أنذر الذين كفروا بالله وتمردوا على رسوله، وحاربوا دعوته، وأعرضوا عن الحق، بما صارت إليه الأمم التي خلت من قبلهم، وكانوا يعرفون قصصها وتاريخها. ودعوا للاعتبار بآثار المؤتفكات التي كانوا يمرون على أنقاضها مصبحين وممسين أثناء أسفارهم، وعرضت عليهم أدلة التوحيد والآخرة المستندة على الآيات التي كانوا يشاهدونها في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وكانوا يرونها ويشعرون بها في أنفسهم وفي حياتهم في كل آن.

كما بيّن لهم بطلان موقف الاشراك بالله والادعاء بالاستقلال المطلق، وجحود الآخرة، والاصرار على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم، بدلائل ناصعة تستقر في القلوب، وتنفذ إلى الأعماق البعيدة من العقول، وأزيلت آخر شبهة عالقة بأذهانهم عن صحة الدعوة] ثم أشار إلى أن هذه المرحلة نفسها كانت تحتوي على عدة مراحل.

أما المرحلة الثالثة فهي التي عرفت بالقرآن المدني يقول المودودي:

[فالأمة المسلمة تمكنت من تأسيس دولة مستقلة، وبدأ النضال المسلح من

أصحاب الجاهلية القديمة، وبدأت الدعوة تواجه الأمة اليهودية والأمة المسيحية، كما بدأت تتخلص من المنافقين الذين تسربوا إلى الكيان الداخلي للأمة الاسلامية... وقد اشتملت هذه المرحلة أيضاً على عدة مراحل جزئية واجهت الدعوة في كل مرحلة منها حاجات تختص بها، وتحقيقاً لهذه الحاجات أنزل الله على نبيه ﷺ من الآيات ما كان أسلوبها يتنوّع بتنوع الحاجة...

وجاء فيها كيف ينشأ المجتمع وتؤسس الدولة وتبنى المدينة الصالحة... وبأي طريق يتعامل مع المنافقين ومع أهل الذمة... وماذا يختار من السلوك مع الأعداء المحاربين والأقوام المعاهدين وكيف تُعِدّ هذه الجماعة المؤمنة المنظمة نفسها...

هذه.. الآيات كانت تقوم بتوجيه المسلمين وتربيتهم على ما يرام، وكانت تنبههم على مواطن ضعفهم وتحرضهم على أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وتعطيهم دروساً في الأخلاق والسلوك تناسب واقعهم... وكانت تصنع منهم جماعة تتوفر فيهم كفاءة ليخلفوا الرسول ﷺ بحق، ويتابعوا مهمته في الدعوة والاصلاح. هذا في جانب وفي الجانب الآخر كانت هذه الآيات تخاطب الذين حرموا من الايمان من أهل الكتاب والمشركين والكفار والمنافقين وتدعوهم إلى الخير وفق حالة كل منهم وحسب موقف كل منهم من الدعوة، وذلك بوسائل الاقناع وبالقول اللين... وبالتخويف من عذاب الله وباستخلاص جوانب العبرة والعظة من الأحداث والأوضاع..].

إن إدراك هذه المعاني عن مراحل نزول القرآن ليفيد المفسر أعظم فائدة إذ يدرك أن نزول القرآن كان مقترناً بالدعوة وتطورها وسيرها.. فهو عندما يشرح الآيات ينبغي أن يراعي هذا المعنى.. وعندئذ لا يمكن أن يستغلق عليه فهم آية أو معرفة روحها.

إنَّ كثيراً من المفسرين يغرقون أنفسهم في بحوث فلسفية أو نحوية أو فقهية وينسون مسألة الدعوة التي تدل عليها متابعة مراحل نزول القرآن أوضح دلالة. ومن هنا رأينا أن نشير إليها في أصول التفسير. فمعرفة هذه المراحل ومعرفة هدف القرآن أمران متكاملان، يكمل أحدهما الآخر.

الدراسة الشاملة المفصّلة للقرآن ضرورية للمفسر:

لا بد من أن تتوافر لمبتغي تفسير القرآن دراسة شاملة مفصلة، ونظرة عامة لجوانب هذا الكتاب الكريم.

وهذه القاعدة منطلق في فهم أي نص من النصوص فهماً صحيحاً. فلا يجوز أن نطيل الوقوف أمام جملة من النص ونستنبط منها أحكاماً ونغض بصرنا ونغلق فكرنا عن الجمل الأخرى.. إننا لو فعلنا ذلك لكانت المعاني التي نقررها ونصل إليها معرضة للغلط بنسبة كبيرة، ولما استطعنا أن نعي المعنى الاجمالي ولا أن نقف على حقيقة المعنى.

إنَّ على المفسر قبل أن يبدأ بعملية الشرح والتفسير أن يعرف معاني القرآن كله معرفة إجمالية متكاملة وأن تكون عنده النظرة الشاملة.

وهذا كله ــ بطبيعة الحال ــ بعد أن يستكمل الأدوات والعلوم التي ذكرناها والتي لا بد منها لتفسير القرآن..

إن عليه أن يستوعب **نظام القرآن في العقيدة، ونظام الحياة** الذي يبنيه القرآن على تلك العقيدة، وأن يعرف **المثل الانساني الأعلى** الذي يحبه القرآن، **والنموذج الانساني الأدنى** الذي يكرهه القرآن، وأن **يعرف أسباب السعادة وأسباب الشقاء** للانسان كما جاءت في القرآن، وأن يعرف النظام الروحي والنظام الخلقي والنظام الاقتصادي والأنظمة الأخرى التي دعا القرآن إلى أن تقوم في واقع المسلمين.

إنّ هذه المبادىء والحقائق يجب أن تكون واضحة أتم الوضوح في ذهن من يقدم على التفسير وقد يستحسن أن يلخصها ويشير إلى الآيات التي تدل عليها ويكتب معالمها في ورقة لتتبلور في تصوره، ثم بعد ذلك لا عليه أن يعمد إلى شرح

كتاب الله وفق المنهج السليم ويغوص في أعماق هذا البحر المملوء بالكنوز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* * *

وقد اقترح الأستاذ المودودي رحمه الله على الراغب في فهم معاني الكتاب الكريم اقتراحاً نافعاً طريفاً أرى في ذكره فائدة لمبتغي التفسير، لأنه مطلوب منه من باب أولى فقال:

[إنَّ الذي لا يريد من القرآن إلاّ معرفة إجمالية فعسى أن تكفيه دراسته مرة أو مرتين، أما الذي يريد أن يغوص في أعماقه ويدرك أسراره فلا يكفيه أن يدرسه أربع مرات أو خمساً، بل عليه أن يفزع إليه مراراً وتكراراً، ويقبل على دراسته إقبالاً لا ملل فيه ولا كلل، وأن يدرسه كل مرة من وجهة جديدة،... وأن يسجل ما يعنّ له من نقاط هامة خلال الدراسة.

والذين يرغبون في دراسته على نهج قويم كما قلنا عليهم أن يستوعبوا قراءته في ختمتين لمجرد أن يلمع أمامهم نظامه للعقيدة، ومنهجه العام الذي يفصل الدنيا عليه، كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة الأولية تحقيق النظرة الاجمالية في مشاهد القرآن العامة ويتبينوا التصورات الأصلية التي يقدمها للناس ومعالم نظام الحياة التي يبنيها على أساس هذه التصورات. وفي خلال هذه الرحلة الممتعة إذا خطر في ذهنهم سؤال فلا يستعجلوا البتَّ في شأنه، بل يقيدونه في مذكرة ويواصلون مطالعتهم ملتزمين جانب الصبر والجد، فهم سوف يعثرون غالباً على الجواب فيما يقبل من الصفحات وإذا عثروا عليه قيدوه كذلك في المذكرة أمام السؤال. وإذا لم يظفروا بالجواب خلال الدراسة الأولية يستأنفون دراسته كجولة ثانية، ويكون الصبر حليفهم، والتأنّي دثارهم] (١).

ويتابع الأستاذ المودودي كلامه فيقول: [وأقول بناء على تجاربي: لا يكون سؤال إلا وتجدون جوابه وما من معضلة إلا وتبلغون حلّها في دراستكم العميقة الثانية، اللهم إلا في الندرة النادرة التي تتقاصر عنها أفهام الرجال. هذا وبعد

(١) مبادىء أساسية ٤٩-٥٠.

تحقق النظر الاجمالي الشامل في القرآن على ما أشرنا، على الدارس أن يبدأ بدراسة تفصيلية للقرآن. وفي هذا الصدد يجب عليه أن يثبت في قرارة ذهنه كل ناحية من تعاليم القرآن التي يمر بها في أثناء الدراسة.

فيحاول مثلاً أن يعرف ما هو المثل الانساني الأعلى الذي يحبه القرآن. وما هو النموذج الانساني الذي يكرهه القرآن. وتحقيقاً لهذا المطلب يسجل في مذكرته خصال (الانسان المطلوب) في نظر القرآن في عمود. وخصال (الانسان المرفوض) في نظر القرآن في عمود مماثل، وجهاً لوجه.

كما يحاول أن يعرف موجبات نجاح الانسان وسعادته حسب مقياس القرآن، والأسباب التي يعتبرها القرآن مبعث الهلاك والدمار ومدعاة الخسران والشقاء...

وقياساً على ذلك ينبغي له أن يقيد حسبما ذكرنا جميع تعاليم القرآن الكريم في كل مسألة من مسائل الحياة من العقائد والأخلاق والحقوق والواجبات، والاجتماع والمدنية، والاقتصاد والسياسة، والتشريع ونظام الجماعة، والحرب والمهادنة.. وما إلى ذلك.

لكي يستبين على أي شكل تتكون كل شعبة من شعب الحياة، ثم على أي شكل تتكون الحياة الاسلامية بعد توحيد هذه الشعب وتكييفها في الاطار العام.

ثم إذا أراد الانسان أن يبيّن وجهة نظر القرآن في مسألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديماً وحديثاً بكل إمعان، ويحدد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح اساسية ونقاط رئيسية، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الانسان ومدى ما وصل إليه في هذه المسألة عبر التاريخ. وما هي جوانبها التي تتطلب حلولاً. وما هي النقطة التي لم يستطع التفكير الانساني تخطيها حتى اليوم. وإذا حقق ذلك فله أن يدرس القرآن واضعاً أمام عينيه الجوانب التي تتطلب الحلول في هذه المسألة. ومما جربته أن الانسان إذا درس القرآن باحثاً في مسألة من المسائل على نحو ما ذكرت، فإنه يفاجأ بالردود على أسئلته في آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل ولم يخطر بباله أنّ تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود] [1].

(١) مبادىء أساسية ٥٠-٥٢.

استكمال العلوم شرط لازم للمفسر

إنَّ من أعظم البلايا التي يصاب بها الفرد والأمة الجهل، وإليه يعود تخلف الأمة في ميادين الاقتصاد والسياسة والقوة والفكر والاجتماع، وهو سبب بعد الأمة عن الدين.

ولا خلاص للأمة مما تعانيه إلا بالعلم، ومن هنا كانت دعوة الاسلام إلى العلم الخطوة المتقدمة في علاج الأمراض المتعددة التي تشكو منها الانسانية قاطبة.

والجهل أنواع، ومن أشدّ أنواعه خطراً وأسوئها أثراً الجهل المركب الذي يكون في المرء ولا يدري أنه فيه، ولا سيا إذا كان في أمور الدين.. لأنّ هذا النوع من الجهل يحمل صاحبه على القول في دين الله بغير علم، فيحل ما حرَّم الله ويحرّم ما أحلّ. ومن المؤسف أن نقرر أن هناك ناساً من مدعي العلم ينطبق عليهم هذا الوصف، يعمدون إلى القرآن فيفسرونه بآرائهم تفسيرات منحرفة تصرف النصّ عن المعنى الذي أنزل الكتاب لتقريره.

لا بُدَّ من مواجهة هؤلاء المجترئين على كتاب الله الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويقولون على الله بغير علم. لا بُدَّ من مواجهتهم وردعهم وتحذير الناس من ضلالهم. ولا بد من الضرب على أيديهم من قِبَلِ أولي الأمر في الدولة الاسلامية كما يفعلون مع الجهلة الذين يعملون فيما لا يحسنون من شؤون الحياة الدنيوية مع أن خطر هؤلاء الجهلة وضررهم عندما يكون مجالهم الذي يخوضون فيه من مجالات الدنيا أقلّ، ومع ذلك فإن السلطات في كل الحكومات المعاصرة تعمد إلى معاقبة من يتجاوز حدّه منهم.

أرأيت لو أقدم إنسان جاهل لم يعرف من الطب شيئاً ولم يدرس في معاهد الطب ولم يحمل شهادة طبيب... لو أقدم هذا الجاهل على فتح عيادة، وشرع

يداوي الناس ويعالجهم.. ماذا تفعل معه الحكومة؟.. إنها ستعاقبه العقوبة الرادعة وتؤدبه التأديب المناسب وتغلق عيادته وتجعله في غيابة السجن وكذلك لو أقدم جاهل آخر على فتح مكتب هندسي، وطفق يخطط للناس عمارات وبيوتاً، ويوصي بالمقادير من الحديد والاسمنت، وهو جاهل لا يفقه بما ينبغي أن يكون.. كذلك فإنه سيلقى ما لقي صاحبه من الزجر والعقوبة والتأديب. وعلى الناس أن يكونوا على درجة من الوعي تساعد أولي الأمر في ملاحقة هؤلاء الجهلة الدجالين، فلا يراجعون واحداً منهم بل عليهم أن يخبروا أصحاب الشأن ليدرؤوا الخطر عن الآخرين.. إن صدود الناس عن هؤلاء الدجالين يضطرهم إلى الكف عن سلوك هذا السبيل المؤذي.

إذا كان ذلك مهماً في شؤون الحياة في مجالي الطب والهندسة وأمثالها فليس من شك في أن أمر الآخرة والدين أهمّ وأعظم وأجلّ وأخطر.

أجَلْ.. إنه لا يجوز لمن لم يستكمل أهليته العلمية أن يهجم على تفسير كتاب الله، وعلى العلماء أن يحذروا من خطره إن هو أقدم على هذا العمل، وعلى أولي الأمر أن يزجروه ويؤدبوه.. وعلى العامة والناس جميعاً أن يعرضوا عنه ويصدوا الآخرين عن سماع قوله.

وقد كتب العلماء في التحذير من هؤلاء الجهلة. من ذلك ما أورده ابن عبد البر في مواضع من كتابه «جامع بيان العلم وفضله»(١) والعراقي في كتابه «الباعث على الخلاص»(٢) والسيوطي في كتابه «تحذير الخواص»(٣) والنووي في كتابه «التبيان في آداب حملة القرآن». قال النووي:

[ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها. والأحاديث في ذلك كثيرة، والاجماع منعقد عليه. وأما تفسيره للعلماء ــ أي من قبل العلماء ــ فجائز حسن والاجماع منعقد عليه. فمن كان أهلاً للتفسير جامعاً للأدوات التي

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله ج ٢ /١٩٣ و١٩٩.
(٢) انظر الباعث على الخلاص ١٤٧-١٤٨.
(٣) انظر تحذير الخواص ٢٣٠.

يعرف بها معناه، وغلب على ظنه المراد تفسيره إن كان مما يدرك بالاجتهاد كالمعاني والأحكام الجلية والخفية والعموم والخصوص والإعراب وغير ذلك [جاز له التفسير وحسن] وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد كالأمور التي طريقها النقل وتفسير الألفاظ اللغوية فلا يجوز الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله.

وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته فحرام عليه التفسير. لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله.

ثم المفسرون برأيهم من غير دليل صحيح أقسام:

□ منهم من يحتج بأنه على تصحيح مذهبه وتقوية خاطره، مع أنه لا يغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية. وإنّما يقصد الظهور على خصمه.

□ ومنهم من يقصد الدعاء إلى خير، ويحتج بآية من غير أن تظهر له دلالة لما قاله.

□ ومنهم من يفسر ألفاظه العربية من غير وقوف على معانيها عند أهلها، وهي مما لا يؤخذ إلا بالسماع من أهل العربية وأهل التفسير، كبيان معنى اللفظ وإعرابها (١)، وما فيها (١) من الحذف والاختصار والاضمار والحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والتقديم والتأخير، والاجمال والبيان، وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر. ولا يكفي مع ذلك معرفة العربية وحدها، بل لا بُدّ معها من معرفة ما قاله أهل التفسير فيها، فقد يكونون مجتمعين على ترك الظاهر، أو على إرادة الخصوص، أو الاضمار، وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر. وكما إذا كان اللفظ مشتركاً في معان، فعلم في موضع أن المراد أحد المعاني ثم فسر كل ما جاء به. فهذا كله تفسير بالرأي وهو حرام والله أعلم] (٢).

فلنعظّم كلام الله، وليقدر المرء منا قدره ولا يتجاوز حدّه، وليتّق الله ربه فإن أجرأ الناس على تفسير كتاب الله بغير علم جريء على النار. نسأل الله أن يعيذنا من الخذلان ومن أن يزيغ قلوبنا بعد أن هدانا.

---

(١) الضمير يعود على الألفاظ.

(٢) التبيان ١٠٩-١١٠.

من الملاحظ أنَّ الناس في كل أمر من الأمور الدنيوية يرجعون فيه إلى المختصين... أما في شؤون الدين فإنهم جميعاً يخوضون، ولا ترى منهم من يتوقف إلا من رحم ربك، وقليل ما هم. وقد أشار إلى قريب من ذلك الآمدي بالنسبة إلى العلم بالشعر في كتابه الجميل «الموازنة بين الطائيين» وذكر أن المرء يكون في السوق فإذا أعجبه من ثوب الوشي (حُسْنُ طرزه، وكثرة صوره، وبديع نقوشه، واختلاط ألوانه؛ لم يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره، وكثرة مائه، وجودة رقعته، وصحة نساجته، وخلاص إبريسمه، فكيف لم يفعل مثل ذلك بالشعر لما راقه حُسْن وزنه وقوافيه...)[1] ثم يقول:

(لعلك أكرمك الله اغتررت بأن شارفت شيئاً من تقسيمات المنطق، وجملاً من الكلام والجدال، أو علمت أبواباً من الحلال والحرام، أو حفظت صوراً من اللغة أو اطلعت على بعض مقاييس العربية، وأنك لما أخذت بطرف نوع من هذه الأنواع معاناة ومزاولة ومتَّصِل عناية، فتوحدت فيه ومهرت، ظننت أنَّ كل ما لم تلابسه من العلوم، ولم تزاوله، يجري ذلك المجرى، وأنك متى تعرضت له وأمررت قريحتك عليه، نَفَذَت فيه، وكشفت لك عن معانيه، وهيهات!! لقد ظننت باطلاً، ورُمْتَ عسيراً. لأنَّ العلم ــ أي نوع كان ــ لا يدركه طالبه إلا بالانقطاع إليه، والإكباب عليه، والجدّ فيه، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه.

ثم قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويتسهل عليه، ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر لأن كل امرىء إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله، وما في طاقته تعلّمه. فينبغي ــ أصلحك الله ــ أن تقف حيث وُقِف بك، وتقنع بما قسم لك، ولا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك)[2].

وهذا كلام نفيس نجد مصداقه في كثير من المتعالمين في الدين من الذين يحملون شهادات عالية في علوم تطبيقية كالطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وما إلى ذلك.

---

(١) الموازنة للآمدي ط ٣ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ٣٧٣.

(٢) الموازنة للآمدي ط ٣ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ٣٧٧-٣٧٨.

أو في علوم نظرية كاللغة الانكليزية أو الفرنسية أو التاريخ أو الجغرافيا وما إلى ذلك. ويحسب بعضهم أن هذه الشهادة تخوله الخوض في الموضوعات الدينية. وهذا أمر باطل. إن هذا الدكتور عالم في فنه بل في جانب تخصص فيه من هذا الفن، ولكنه فيما سوى ذلك مما لم يتعلمه ولم يدرسه عاميّ لا يعرف عنه إلا ما يعرف العامّة. والعاميّ لا يخوض في مسائل العلم.

وأودُّ ههنا أن أقرر حقيقة بيّنة وهي أن العلوم الدينية علوم واسعة.. إنها بحر محيط.. فلا يجوز لمن لم يتعلم تلك العلوم ولم يتخصص فيها أن يهجم على القول فيها بغير علم.

هذا وقد بحث العلماء في حالة واقعية ربما تحصل، وحكموا على صاحبها أنه آثم. وهذه الحالة حالة إنسان جاهل يتعرض إلى ذكر حكم فقهي، أو يفسر آية من القرآن، أو يروي حديثاً نبوياً، ويصادف أن يصيب الحق في ذلك. فما الحكم فيه؟ لقد قرروا أنه آثم. قال الحافظ العراقي: [وإن اتفق أنه نقل حديثاً صحيحاً كان آثماً في ذلك، لأنه ينقل ما لا علم له به، وإن صادف الواقع كان آثماً بإقدامه على ما يعلم. وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه «منَ قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» وقال في حديث ابن عباس الذي رواه الترمذي «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية له: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» وقال: هذا حديث حسن صحيح][(1)]. وقال الحافظ العراقي أيضاً: [ولو نظر أحدهم في بعض التفاسير المصنّفة لا يحلُّ له النقل منها؛ لأن كتب التفسير فيها الأقوال المنكرة والصحيحة، ومن لا يميز صحيحها من منكرها لا يحلّ له الاعتماد على الكتب. وأيضاً فكثير من المفسرين ضعفاء النقل كمقاتل بن سليمان والكلبي والضحاك بن مزاحم. وكذا كثير من التفاسير المنقولة عن ابن عباس لا تصح عنه لضعف رواتها وليت شعري كيف يقدم من هذه حاله على تفسير كتاب الله؟ أحسن أحواله أن لا يعرف سقيمه من صحيحه. بل يزيد أحدهم فيحدث لنفسه أحوالاً لو نقلت عن المجانين لاستقبحت

(١) الباعث على الخلاص ١٤٧.

منهم. وهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يقول: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في القرآن برأيي. فكيف يقدم من لم يعرف ما يجب عليه مما يحرم عليه أن يتجاسر على الخوض في ذلك. وهذا عبد الملك الأصمعي إمام اللغة سئل عن قوله ﷺ «الجار أحق بسقبه» فقال: أنا لا أفسر حديث رسول الله ﷺ ولكن العرب تزعم أن السقب اللزيق][1] انتهى كلام العراقي.

إن كتاب الله ينبغي أن يحاط بسياج من الاحترام والتوقير، وأن يصان عن عبث الجهلة وعلى العلماء الذي هم ورثة الأنبياء أن يحذروا الناس من أولئك الجهلة وعلى أولي الأمر من المسلمين أن يحولوا بين هؤلاء الدجالين وبين إضلال الناس بإنزال عقوبة التأديب على المجترئين المفترين. وقد عقد السيوطي فصلاً في كتابه تحذير الخواص عنوانه: بيان أنَّ من أقدم على رواية الأحاديث الباطلة يضرب بالسياط ويهدد بما هو أكثر من ذلك ويزجر ويهجر ولا يسلم عليه ويُغْتاب في الله ويستعدى عليه عند الحاكم، ويحكم عليه بالمنع من رواية ذلك ويشهد عليه[2].

وأورد فيه أن الإمام البخاري قرر ذلك فقد روى عن محمد بن اسحاق السراج محدّث خراسان ومسندها الحافظ الثقة قوله: شهدت محمد بن اسماعيل البخاري ودفع إليه كتاب من ابن كرام يسأله عن أحاديث منها «الايمان لا يزيد ولا ينقص» فكتب محمد بن اسماعيل على ظهر كتابه: من حدث بهذا استوجب الضرب الشديد والحبس الطويل[3].

وذكر عن يحيى بن معين أنه سئل عن رجل كذاب فقال: رجل سوء يحدّث بأحاديث سوء. فقال السائل: فقد قال لي إنك كتبت عنه، فحوّل وجهه وحلف بالله أنه لا أتاه ولا كتب عنه. وقال: يستأهل أن يحفر له بئر فيلقى فيها[4].

---

(١) الباعث على الخلاص ١٤٨-١٤٩.
(٢) تحذير الخواص ص ١٦٧.
(٣) تحذير الخواص ص ١٦٨.
(٤) تحذير الخواص ص ١٦٨-١٦٩.

العمل بالقرآن والدعوة له شرط لازم للمفسر

سبق أن ذكرنا أنَّ هذا القرآن لا يفتح كنوزه ولا يبدي أسراره ولا يكشف عن ومضات الحق فيه إلا لمن عمل به وتفاعل معه، هذا بعد استكمال الأدوات والعلوم اللازمة لفهمه.

إذن هما أمران: العلم والمعرفة، والعمل به والتطبيق لأحكامه. ولا يستغنى بأحدهما عن الآخر.. معرفة علوم العربية وتذوقها وعلوم الشريعة، والعمل وفق ما جاء به،ويخطىء من يكتفي بواحد ويغفل الآخر.

يقول الأستاذ المودودي رحمه الله[1]:

[ومهما يتخذ الانسان من التدابير، ويستخدم من الوسائل لفهم القرآن، فإنه لا يصل إلى جوهر القرآن وروحه كما ينبغي ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن.

إنَّ القرآن ليس يحوي نظريات مجردة وأفكاراً محضة، حتى تدرسه جالساً على الأريكة، ثم تفهم جميع مطالبه] ويقول المودودي: [كما أنه ليس بكتاب يبحث في اللاهوت فتحل جميع أسراره ومكنوناته في المعاهد والزوايا. إن هذا الكتاب... كتاب دعوة وحركة. وبمجرد نزوله أخرج رجلاً وادعاً دمثاً، سليم الفطرة، كريم الشيم محباً للسكوت، من زاوية الانعزال وأوقفه في مواجهة العالم الذي كان قد انصرف عن الحق، وجعله يقارع الباطل، ويحارب أئمة الكفر، وقادة الفسق ورواد الضلال.

إن هذا الكتاب انتزع كل روح سعيدة، وكل نفس زكية، من كل بيت،

---

(١) مبادىء أساسية لفهم القرآن ٥٢-٥٥.

وجمعها تحت لواء صاحب الدعوة... ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة.

إن هذا الكتاب هو الذي قام بتوجيه الحركة الاسلامية الهائلة خلال مدة ثلاث وعشرين سنة، والتي بدأت عملها من صرخة فرد واحد، وانتهت في نهاية المطاف إلى إقامة الخلافة الاسلامية في الأرض.

إن هذا الكتاب هو الذي تولى وضع مخططات الهدم، ومشاريع البناء، في كل مرحلة من المراحل، وفي كل خطوة من الخطوات خلال المعركة المديدة الضارية بين الحق والباطل.

إذن فكيف يتأتى لك اليوم أن يتجلى لك جميع ما يضمر هذا الكتاب من أسرار وحقائق بمجرد أن تمر على حروفه وتنطق بكلماته، ودون أن يصادفك المرور بمنزل من منازل هذا الكفاح.

لا تستطيع أن تفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور إلا حين تُحَكِّم هذا الكتاب، وتبدأ بالدعوة إلى الله، وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك ويعلمك.

ومن هنا لا بُدَّ أن يستقبلك جميعُ ما استقبل حامليه من التجارب والمحن: تشاهد مشاهد مكة والحبشة والطائف، وتواجه المراحل الممتدة من بدر إلى حنين إلى تبوك وتتشابكُ مع (أبي جهل) و (أبي لهب)، وتلاقي المنافقين واليهود، وترى وتختبر كذلك كل النماذج الانسانية ماراً بالسابقين الأولين إلى المؤلفة قلوبهم.

هذا سلوك فريد لا يماثله أي نوع من السلوك وأسميه السلوك القرآني]. انتهى كلام المودودي. وهو يريد أن القارىء عندما يعمل بأحكام القرآن ويطبق تعاليمه سيقابل من قِبَلِ الناس بألوان من المعاملة تذكره بما كان يلقاه السلف الصالح الذين كانت حياتهم ترجمة متحركة للقرآن.... إن العامل بالقرآن يستحضر الجو الروحي والوسط النفسي والبيئة الواقعية التي نزل فيها القرآن.. وهذا أمر لا يمكن تذوقه بالأمور النظرية أبداً.

إنَّ نفراً من الدعاة الصادقين الذين أقاموا تعاليم القرآن واقعاً حياً في حياتهم

توصلوا إلى متسوى قريب مما نقول... فإذا سمعتهم يقرؤون القرآن وهذه المعاني تتفاعل في نفوسهم وترتسم على تقاطيع وجوههم وتنعكس على أصواتهم وعواطفهم أحسست بروح جديدة تدبّ في أوصالك، وتبنّيت للقرآن أسراراً، وتأثرت بسماع هذه القراءة تأثراً كبيراً. هذا وإن قراءة القرآن مع مخالفة أحكامه لا تنفع صاحبها وقد تضره، فقد جاء في الأثر عن أنس: «رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه» وشَبَّهَ رسول الله ﷺ المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحان طعمه مُرٌّ وريحه طيب.

إنّ المسلمين بحاجة إلى حفظة للقرآن يقيمونه في حياتهم ونفوسهم ومعاملاتهم وتصوراتهم وعندئذ يمكن أن تتغير كثير من معالم حياتنا البائسة التي يئنّ منها مجتمعنا الإسلامي اليوم في كل مكان.

إن الفهم العميق للقرآن العظيم وإدراك مغزى أحكامه وتعاليمه يتوقف إلى حد كبير بعد استكمال أدوات العلم إلى تطبيقه والعمل بموجبه. يقول الأستاذ المودودي: [لا يستطيع الإنسان أن يدرك مغزى أحكام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمدنية، ومبادئه ونظمه في مختلف نواحي الحياة ما دام لا يطبقها في الحياة.

لا يدرك مغزاها فرد يعيش في حِلٍّ منها في حياته الفردية.

ولا تدرك مغزاها أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكاً يخالف منهجها][1].

(١) مبادىء أساسية ص ٥٦.

مراعاة مَا دلّت عليه الألفاظ وَمَا دخل في ضمنها

من القواعد المهمة التي ينبغي أن ينتبه إليها المفسر (أن يُراعي ما دلّت عليه الألفاظ مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرّج اللفظ على ذكرها)(١).

إنَّ مراعاة هذه القاعدة المهمة توصل المفسر إلى الدقة المتناهية في فهم كتاب الله عز وجلّ، وتقفه على الشمول التام الذي اتصف به هذا الكتاب الكريم، وتبرز لمن يقررها ويطبق آيات القرآن عليها خاصة الايجاز البليغ المعجز التي اتصف بها هذا القرآن.

ولا بُدَّ لمن يريد تطبيقها بعد وعيها وفهمها من أن يكون قوي الفكر، متوقد الذهن، حادّ النظر، لمّاحاً، حاضر البديهة، سيّال الخواطر، عميق التفكير، حسن التدبر، منظم العقل.

هناك معان تضمنتها آيات القرآن نصاً، وهناك معان تلزم منها، وهناك معان تتقدمها وتتوقف عليها. إن على المفسر المستكمل لأدوات التفسير أن يذكر هذه الأنواع كلها.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي:

[والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع أن تفهم ما دلّ عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهماً جيداً ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها.

وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها. وأكثر من هذا

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن ــ تأليف عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٣١.

التفكير وداوم عليه حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة؛ فإنَّ القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كلّه حق ولا بد.

فمن وفّق لهذه الطريقة، وأعطاه الله توفيقاً ونوراً انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية] [1].

ولننتقل إلى ضرب الأمثلة:

□ يقول الله تعالى: ﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين. الرحمنِ الرحيمِ ﴾ [2].

الرحمن الرحيم من أسماء الله الحسنى، وهاتان الكلمتان تدلان بلفظهما على وصفه سبحانه بالرحمة الواسعة. جاء في «المفردات»: [ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إنّ معناه لا يصح إلاّ له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة. والرحيم يستعمل في غيره، وهو الذي كثرت رحمته. قال تعالى: ﴿ إنَّ الله غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾ وقال في صفة النبي ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمِنينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ ﴾ [3]] [4].

ورحمه الله واسعة يصورها الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إنَّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة. فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة. ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار» [5].

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن ــ تأليف عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٣١-٣٢.

(٢) سورة الفاتحة: الآية ١-٢.

(٣) سورة التوبة: آخرها.

(٤) المفردات للراغب الأصفهاني (مادة: رحم).

(٥) الفتح ٣٠١/١١.

وفي رواية مسلم: «إنَّ لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[(١)].

وفي رواية لمسلم: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[(٢)].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[(٣)] وفي رواية: «قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي» إن رحمة الله سبحانه وتعالى لا تشبهها رحمةٌ.. فلقد عمّت في الدنيا البر والفاجر والمؤمن والكافر، وادخرها للمؤمنين يوم القيامة، وبنحو الذي ذكرنا قال الراغب الأصبهاني:

[وقيل: إن الله تعالى هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعمّ المؤمنين والكافرين وفي الآخرة يختصّ بالمؤمنين. وعلى هذا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسأَكْتُبُها لِلَّذينَ يَتَّقونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذينَ هُمْ بآياتِنا يُؤمِنُونَ. الَّذين يَتَّبِعُونَ الَّرسُول النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...﴾[(٤)] تنبيهاً أنها في الدنيا عامة وفي الأخرة مختصة بالمؤمنين][(٥)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

[فإذا فهمت أنَّ الرحمة التي لا تشبهها رحمة هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يَخْلُ أحد من رحمته طرفة عين؛ عرفت أنَّ هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدلَّلْت بسعة رحمته على أن شرعه نور

---

(١) صحيح مسلم ٢١٠٨/٤.
(٢) صحيح مسلم ٢١٠٩/٤.
(٣) صحيح مسلم ٢١٠٨/٤.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٦-١٥٧.
(٥) المفردات: مادة رحم.

ورحمة، ولهذا يعلل الله تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها][1].

وهكذا فإن مراعاة هذه القاعدة تجعلُ فهمنا للكتاب أدق، ونظرتنا له أعم. وتبصُّرنا بالهدى الحق الذي جاء به.... إننا من هاتين الكلمتين نستطيع أن نقرر أنّ شرع الاسلام الذي ارتضاه الله لنا هو الرحمة الكاملة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾[2] إن تلك الرحمة هي التي تنقذنا من المخاطر والويلات، والمآسي والأزمات، المحيطة بعالمنا وأبناء عصرنا والتي تؤلمنا وتقض مضجعنا.. وقد كان هذا الشرع رحمة للدنيا كلها في العصور السابقة أخرج من آمن به من الظلمات إلى النور، وسما بهم من واقع الحيوانية والوحشية والهمجية إلى مستوى الانسانية والكرامة والمدنية. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونسأله عز وجل أن يمنّ علينا بالثبات على الهدى حتى نلقاه وهو راضٍ عنا وأن يكرمنا برحمته الواسعة يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ونودُّ أن نؤكد هذه القاعدة بضرب الأمثلة، لأن المثال يوضح المعنى المجرّد ويقربه للذهن ويعين على العمل به وتطبيقه.

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِها وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[3].

قال ابن كثير: [يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها. وفي حديث الحسن عن سمرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» رواه الإمام أحمد وأهل السنن. وهذا يعمُّ جميع الأمانات على الانسان:

□ من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلوات والزكوات والكفارات

(١) القواعد الحسان ص ٣٢.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٨.

والنذور والصيام وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطّلع عليه العباد.

□ ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمن به بعضهم على بعض من غير اطّلاع بينة على ذلك.

فأمر الله عز وجل بأدائها. فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقضي للشاة الجماء من الشاة القرناء»][1].

وقال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة ائتمنت على فرجها. وقال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس. وعن ابن عباس: يدخل فيه وعظ السلطان النساء يعني يوم العيد.

وقال ابن كثير: [وقوله ﴿ وإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إنما نزلت في الأمراء يعني الحكام بين الناس وفي الحديث «إن الله مع الحاكم ما لم يجر، فإذا جار وكله الله إلى نفسه» وفي الأثر: «عدل يوم كعبادة سنة»][2].

هذا هو المعنى ويدخل فيه أمور كثيرة منها طلب العلم.. فلا بد لمن يحكم بين الناس أن يكون عالماً بما يحكم به لكي يحقق ما أمر به من العدل بين الناس، فطلب العلم فرض عين على من رضي أن يكون حاكماً بين الناس.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

[إذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات وعدم إضاعتها، والتفريط والتعدّي فيها، وأنك لا تنال رضا الله إلا بأدائها لأهلها.

---

(١) ابن كثير ٢/٢٩٨ من طبعة كتاب الشعب.

(٢) ابن كثير ٢/٣٠٠ من طبعة كتاب الشعب.

وإذا فهمت أنَّ الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل استدللت بذلك على أنّ كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار لا بد أن يكون عالماً بما يحكم به:

فإن كان حاكماً عاماً فلا بد أن يحصل من العلم ما يؤهله لذلك.

وإن كان حاكماً ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين حيث أمر الله أن نبعث حَكَماً من أهله وحكماً من أهلها فلا بد أن يكون عارفاً بهذه الأمور التي يريد أن يحكم فيها ويعرف الطريق التي توصله إلى الصواب منها.

وبهذا بعينه تستدل على وجوب طلب العلم وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد فإنَّ الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة. ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه. فكيف يُتَصَوَّرُ أن يمتثل الجاهل الأمر الذي لا يعرفه؟ أو يتجنب الأمر الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا وينهوا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم على تركه، لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرباً وتعبداً حتى يعرفه ويميزه عن غيره][1].

أرأيتم كيف يقود النظر المتأني في الآية إلى معان تدخل في ضمن معناها الأول الظاهر لأول وهلة ولكنها غير منصوصة لفظاً.

هذا وأحب أن أقرر أمراً آخر وهو أن الاسلام يرفع من سوية الانسان الذي يقبله مهما كان مستواه الثقافي والعلمي، إذ هو بمجرد دخوله في الاسلام يحرره من الخرافة والسخف، ويعطيه بصورة إلزامية تصوراً عن الكون والحياة والخالق والانسان، ويثري فكره بمعلومات تتصل بالعبادة والمعاملة والاعتقاد... إن الاسلام بهذا يجعل من كل مسلم إنساناً آخر يعي الأمور التي أشرنا إليها، ويشعر

---

(١) القواعد الحسان ٣٢-٣٤.

بانسانيته وكرامته ويدافع عنها ولا يرضى التنازل عنها.

إن القيام بأداء الأمانة إلى أهلها وإقامة العدل في الحكم في جميع صور الأمانة والحكم يجعل المرء المسلم في مستوى رفيع لا تستطيع الأنظمة الأرضية أن تصنع عشر معشار ما يصنع دين الله الخالد الاسلام.

معرفة المشكل في القرآن لازمة للمفسر:

إنَّ على المفسر أن يطيل النظر في الآيات قبل الإقدام على تفسيرها، فيحتكم إلى اللغة وأساليب العرب في القول، ويراعي السباق والسياق، ويرجع إلى ما قاله العلماء قبله.

فقد تكون الكلمة في موضع دالة على معنى، ولا تدل عليه في المواضع الأخرى التي وردت فيها وبعض قصار النظر من العامة الجهلة، والمغرضين من أعداء الدين يظنون أنّ في القرآن تعارضاً، ويسألون عنه ابتغاء الخروج من هذا المأزق وإزالة الشبهة، وربما وقع في هذا بعض طلبة العلم الضعفاء المبتدئين. أما أولئك الذين في قلوبهم مرض فيسألون عنه ابتغاء الفتنة والاضلال والتشكيك، وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرون المؤمنين من شيء.

وقد انتبه العلماء إلى هذا الموضوع في القديم والحديث، وكان من ذلك علم تأويل مشكل القرآن، وقد ألّف فيه ابن قتيبة(١)، وقطرب(٢)، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي(٣). وفصّل القول فيه على نحو جامع السيوطي، وذلك في النوع الثامن والأربعين في مشكله، وموهم الاختلاف والتناقض من كتاب الاتقان في علوم القرآن، ومن قبله الزركشي في البرهان.

قال السيوطي:

[والمراد به ما يوهم التعارض بين الآيات. وكلامه تعالى منزه عن ذلك، كما

---

(١) وذلك في كتابه «تأويل مشكل القرآن».

(٢) ذكر ذلك السيوطي في مطلع النوع الثامن والأربعين من الاتقان ٢٧/٢.

(٣) وذلك في كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب».

قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كثيراً﴾ [1] ولكن قد يقع للمبتدىء ما يوهم اختلافاً وليس به في الحقيقة. فاحتيج لإزالته][2].

وهذا مطلب مهم على المتصدي للتفسير أن يعيه ويعرفه.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: [الآيات القرآنية التي يفهم منها قصار النظر التعارض يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام، كل بحسبه][3].

قال عبد الرزاق في «تفسيره»:

أنبأنا معمر عن رجل عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير[4] قال:

جاء رجل إلى ابن عباس فقال:

ـــ رأيت أشياء تختلف عليَّ من القرآن.

ـــ فقال ابن عباس: ما هو؟ أَشَكٌّ؟

ـــ قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف.

ـــ قال: هات ما اختلف عليك من ذلك.

□ قال: أسمع الله يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُم إلاَّ أَنْ قَالوا واللهِ رَبِّنا مَا كُنَّا مُشْرِكينَ﴾ [5].

وقال: ﴿وَلا يَكْتُمونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ [6] فقد كتموا.

□ وأسمعه يقول: ﴿فَإِذا نُفِخَ في الصُّور فلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.
(٢) الاتقان ٢/٢٧.
(٣) القواعد الحسان ٣٧.
(٤) والاسناد ضعيف لعدم ذكر اسم الرجل المبهم.
(٥) سورة الانعام: الآية ٢٣.
(٦) سورة النساء: الآية ٤٢.

يَتساءلونَ﴾[1] ثم قال: ﴿وأقبل بعضُهم على بعض يتساءلونَ﴾[2].

□ وقال: ﴿أئنكُمْ لَتكْفُرونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يَوْمينِ وتَجْعلُونَ لَهُ أنداداً. ذلكَ ربُّ العالمينَ وجَعَلَ فيها رواسِيَ مِنْ فَوْقِها وباركَ فيها، وقدَّر فيها أقواتَها في أربعة أيام سواءً للسائلين ثم استَوى إلى السماء وَهِيَ دُخان فقالَ لها وللأرض: ائتِيَا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قالتا أتيْنا طائعينَ﴾[3] ثم قال في الآية الأخرى: ﴿أأنتُم أشدُّ خَلْقاً أم السماء بَنَاها رَفَعَ سَمْكَها فَسوَّاها. وأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها والأرضَ بَعْدَ ذَلكَ دَحَاها﴾[4].

□ وأسمعه يقول: ﴿وكانَ الله...﴾ ما شأنه يقول: ﴿وَكانَ الله..﴾.

ــ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿ثُمَّ لم تكنْ فتنتُهم إلاّ أن قالوا والله ربِّنا ما كُنّا مُشركين﴾.

فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الاسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر شركاً، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون رجاء أن يغفر لهم فقالوا: ﴿والله ربِّنا ما كنّا مشركينَ﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك ﴿يَوَدُّ الذينَ كَفَرُوا وعَصَوُا الرسولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الأرضُ ولا يكتمونَ الله حديثاً﴾[5].

□ وأما قوله: ﴿فإذا نُفِخَ في الصورِ فلا أنسابَ بيْنَهُمْ يَوْمئِذٍ ولا يتساءلُونَ﴾ فإنه إذا نفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَنْ في السموات ومن في الأرض إلاّ مَنْ شاء الله﴾[6] فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴿ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هُمْ قيامٌ يَنْظُرونَ﴾[6] وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.
(٢) سورة الصافات: الآية ٢٧ والطور: الآية ٢٥.
(٣) سورة فصلت: الآية ٩-١١.
(٤) سورة النازعات: الآية ٢٧-٣٠.
(٥) سورة النساء: الآية ٤٢.
(٦) يشير إلى الآية في الزمر ٦٨.

□ وأما قوله ﴿ خَلَقَ الأَرضَ في يومين ﴾ فإنَّ الأرض خلقت قبل السماء، وكانت السماء دخاناً، فسوّاهنّ سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض، وأما قوله ﴿ والأَرضَ بَعْدَ ذلكَ دَحَاها﴾ يقول: جعل فيها جبلاً، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيها بحوراً.

□ وأما قوله ﴿ كانَ اللهُ... ﴾ فإن الله كان ولم يزل كذلك، وهو كذلك عزيز حكيم عليم قدير، لم يزل كذلك، فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك، وإن الله لم ينزل شيئاً إلا وقد أصاب به الذي أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أخرجه بطوله الحاكم في مستدركه، وصححه، وأصله في الصحيح.

أقول:

وفي هذا الحديث جوانب عدة تستحق التأمل. منها أنَّ هذا الأمر الذي نلفت نظر المفسرين إليه أمر سبق إليه الصحابة الكرام الذين كان علماؤهم يشرحون للناس ما اشتبه عليهم من أمر هذا القرآن. كما رأينا ابن عباس يشرح لهذا الرجل السائل.

ومنها أن النظرة الكاملة للنص هي النظرة التي تشمل الكتاب الكريم من أوله إلى آخره وتفرّق بين المواضع المختلفة.

ومنها أنّ المرء إذا وقف على شبهة وجب عليه أن يسأل أهل الذكر ما دام لا يعلم حلَّ تلك الشبهة.

قال ابن حجر في شرح حديث ابن عباس الذي أوردناه آنفاً:

[حاصل ما فيه السؤال عن أربعة مواضع:

الأول: نفي المسألة يوم القيامة وإثباتها ـــ ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ وقوله: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾.

الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه ـــ يقولون: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾. وقوله: ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً.. ﴾.

الثالث: خلق الأرض أو السماء أيهما تقدم.

الرابع: الاتيان بحرف (كان) الدالة على المضي مع أن الصفة لازمة.

وحاصل جواب ابن عباس:

عن الأول: أن نفي المسألة فيما قبل النفخة الثانية، وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثاني: أنهم يكتمون بألسنتهم، فتنطق أيديهم وجوارحهم.

وعن الثالث: أنه بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة، ثم خلق السموات فسوّاهن في يومين ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين فتلك أربعة أيام للأرض.

وعن الرابع: بأن (كان) وإن كانت للماضي، لكنها لا تستلزم الانقطاع. بل المراد أنه لم يزل كذلك][1].

وجاء في الاتقان[2]: [وأما الثاني فقد ورد بأبسط منه فيما أخرجه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنَّ نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال:

ــ قول الله ﴿ ولا يكتمونَ الله حديثاً ﴾ وقوله ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾.

ــ فقال ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت لهم: آتي ابن عباس ألقي عليه متشابه القرآن. فأخبرهم أنّ الله إذا جمع الناس يوم القيامة قال المشركون: إنَّ الله لا يقبل إلا ممّن وحّده. فيسألهم. فيقولون ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ قال: فيختم على أفواههم وتستنطق جوارحهم.

ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في أثناء حديث جاء في كتاب الزهد من الصحيح وفيه [فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ــ أي الشمس والقمر ــ قال: أي فُلْ[3] ألم أكرمك

---

(١) الاتقان ٢٧/٢.

(٢) الاتقان ٢٨/٢.

(٣) معناه: أي فلان. قال النووي: [هو بضم الفاء وإسكان اللام ومعناه يا فلان، وهو ترخيم على خلاف القياس. وقيل: هي لغة بمعنى فلان حكاها القاضي]. «شرح النووي» ١٠٣/١٨.

وَأُسَوِّدْكَ وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل.. فيقول بلى... ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ههنا إذاً (أي قف ههنا حتى تشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكراً) ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله][1].

ونظير ذلك أنَّ القرآن في بعض الآيات أخبر أنه في يوم القيامة لا يُسأل الانس والجن عن ذنوبهم قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿ فإذا انشقَّتِ السماء فكانتْ وَرْدةً كالدِّهانِ. فبأيِّ آلاء ربِّكُما تُكَذِّبَانِ فيومئذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ ﴾[2].

وفي بعض الآيات أنه سبحانه يسألهم عن أعمالهم من نحو قوله تعالى: ﴿.. يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بنون إلاَّ مَنْ أتى الله بقلب سليم. وَأُزْلِفَتِ الجنةُ للمتقينَ. وبُرِّزَت الجحيمُ للغاوين وقيلَ لهم: أينَ ما كنتم تَعْبُدونَ مِنْ دونِ الله: هَلْ يَنصرونكُمْ أوْ يَنْتصرونَ ﴾[3] فهم يُسألون أين ما كنتم تعبدون من دون الله ومن نحو قوله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسلَ فيقولُ: ماذا أُجبتُمْ؟ قالوا: لا علمَ لنَا إنَّك أنتَ عَلاَّمُ الغُيوب ﴾[4] وقوله ﴿ ويَوْمَ يُناديهم فيقولُ: أينَ شُركائي الذينَ كُنْتُم تَزْعُمون. قالَ الذينَ حقَّ عليهُم القولُ: ربَّنا هؤلاء الذينَ أغْوَيْنا أغوَيْناهم كما غَوَيْنا. تَبَرَّأنا إليكَ ما كانوا إيَّانا يَعبُدونَ. وقيلَ ادعُوا شركاءكُمْ فَدَعوْهُمْ فلم يستجيبُوا لهمْ ورَأوُا العذابَ لو أنهم كانوا يهتدون ويَوْمَ يُناديهم فيقولُ: ماذا أجبتُم المرسَلِينَ ﴾[5].

---

(١) صحيح مسلم ٢٢٧٩/٤.
(٢) سورة الرحمن: الآية ٣٧-٣٩.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٨-٩٣.
(٤) سورة المائدة: الآية ١٠٩.
(٥) سورة القصص: الآية ٦٢-٦٥.

فيسأل الرسل: ماذا أجبتم، ويسأل المشركون: أين شركائي ويسألون: ماذا أجبتم المرسلين. بل قد جاء في سورة الحجر ﴿ فوربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾[(١)] وجاء في سورة الصافات: ﴿ وَقِفُوهُمْ إنهم مسؤولون ﴾[(٢)] والجواب أن السؤال المنفي هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة، فإنه لا حاجة إلى سؤالهم مع كمال علم الله واطلاعِهِ على ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم وخفيها.

والسؤال المثبت واقع على تقريرهم بأعمالهم وتوبيخهم وإظهار أن الله حكم فيهم بعدله وحكمته.

وقد ذكروا أنَّ الحسن البصري رحمه الله وهو من سادات التابعين وَفَّقَ بين قوله تعالى في سورة البقرة ٥١: ﴿ وإذْ واعدْنَا مُوسى أربعينَ ليلةً ﴾ وقوله في سورة الأعراف ١٤٢: ﴿ وواعدْنَا موسى ثلاثينَ ليلةً وأتممناها بِعَشْرٍ ﴾ بأن قال: ليس المراد في آية الأعراف على ظاهره من أن الوعد كان ثلاثين ليلة ثم بعد ذلك وعده بعشر، لكنه وعده أربعين ليلة جميعاً[(٣)].

وقيل: تجري آية الأعراف على ظاهره من أن الوعد كان ثلاثين ليلة، ثم أتم العشر فاستقرت الأربعون، ثم أخبر في آية البقرة بما استقر[(٣)].

وذكر الزركشي أنه سأل رجلٌ بعض العلماء عن قوله تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾[(٤)] فأخبر أنه لا يقسم بهذا البلد، ثم أقسم به في قوله ﴿ وهذا البلدِ الأمينِ ﴾[(٥)] فقال ابن سريج:

ــ أي الأمرين أحب إليك؟ أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟

ــ فقال: بل اقطعني ثم أجبني.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٢.
(٢) سورة الصافات: الآية ٢٤.
(٣) البرهان ٢/٤٥.
(٤) سورة البلد: الآية ١.
(٥) سورة التين: الآية ٣.

ـ فقال: اعلم أنَّ هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال وبين ظهراني قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً وعليه مطعناً، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالردّ عليه، ولكن القوم علموا وجهلتَ، فلم ينكروا فيه ما أنكرتَ، ثم قال: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها، وأنشد فيه أبياتاً.

إن رعاية المفسر لهذا الأمر من أهم الأمور التي يطالب بها حتى يكون تفسيره بياناً صحيحاً لكتاب الله مبرءاً من كل عيب.

لا تعارض بين آيات القرآن

وبما يجدر أن نقرره في أصول التفسير أنه لا تعارض بين آيات القرآن، وإذا بدا شيء من التعارض لأ ول نظرة رجع الانسان بصره كَرَّتين فتبيَّن أن لا تعارض، وقد ذكر العلماء مرجحات للتوفيق بين هذه الآيات التي تبدو متعارضة وهي ليست كذلك.

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني (وهو إبراهيم بن محمد ركن الدين الشافعي المتوفى بنيسابور سنة ٤١٨ هـ): [إذا تعارضت الآي، وتعذّر فيها التوفيق والجمع، طُلب التاريخ، وترك المتقدم منهما بالمتأخر ويكون ذلك نسخاً له.

وإن لم يوجد التاريخ وكان الإجماع على استعمال إحدى الآيتين عُلم بإجماعهم أنَّ الناسخ ما أجمعوا على العمل بها. ــ قال ــ: ولا يوجد في القرآن آيتان متعارضتان تعريان عن هذين الوصفين][1].

وقد بحث العلماء هذا الموضوع بشيء من التفصيل والبسط، وأنا مورد طرفاً من ذلك. ذكروا في إزالة التعارض مرجحات منها:

١ ــ تقديم المدني على المكي: فيقدم الحكم بالآية المدنية على المكية. وهذه فائدة جليلة من فوائد معرفة المكي والمدني وهو علم من علوم القرآن، [والقول الصحيح الراجح أنَّ المكي ما نزل من القرآن قبل الهجرة، وأنَّ المدني ما نزل بعدها][2].

والهجرة أعظم الأحداث في حياة النبي ﷺ بعد البعثة، [وكان هذا القرآن الكريم ينزل في مكة على النبي ﷺ ليواجه به مجتمع الجاهلية العنيد، وليوجه القلة

(١) البرهان ٤٨/٢ والاتقان ٣٠/٢.

(٢) من كتابي «لمحات في علوم القرآن» ١٤٦ ط ٢.

المستضعفة المغلوبة على أمرها ممن آمن واهتدى، ولكنه في المدينة كان يواجه مجتمعاً قائماً على أساس الايمان والانقياد لتعاليم هذا الدين، فكان من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف بين موضوعات كل من المرحلتين...] [1] وطبيعي جداً أن يكون الحكم النازل في العهد المدني هو الحكم النهائي، وأن ذاك الذي كان في مكة حكم مرحلي تمليه ظروف الدعوة في تلك الحقبة.

[وإنَّ مما يكاد يأخذ بالألباب هذه العناية التي لقيها هذا الكتاب الكريم، فلقد نقل المسلمون عن آياته: متى نزلت؟ حتى إننا لنستطيع القول: إنه ليست هناك آية إلاّ وقد ورد ما يدل على تاريخ نزولها. بل إننا لنجد أكثر من ذلك دلالة على العناية بالكتاب الكريم. فلقد ذكر المؤلفون في علوم القرآن الحضري منه والسفري، والليلي منه والنهاري، والصيفي منه والشتائي، والفراشي والنومي، وما إلى ذلك من علوم تجدها في كتب علوم القرآن، مما يؤكد هذه العناية التي لم يعرفها تاريخ الفكر الانساني بالنسبة إلى كتاب آخر سماوي أو أرضي] [1].

٢ ــ أن يكون أحد الحكمين على غالب أحوال أهل مكة، والآخر على غالب أحوال أهل المدينة فيقدم الحكم بالخبر الذي فيه أحوال أهل المدينة.

والمثال يوضّح:

يقول تعالى: ﴿إنَّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلذي ببكَّةَ مُباركاً وهُدىً للعالمينَ. فيهِ آياتٌ بيناتٌ مَقَامُ إبراهيمَ وَمَنْ دَخَلهُ كانَ آمِناً ولله على الناسِ حِجُّ البيتِ من استطاعَ إليهِ سبيلاً وَمَنْ كَفَر فإنَّ الله غنيٌّ عَنِ العالمين﴾ [2].

ويقول تعالى: ﴿كُتِبَ عليكُم القِصاصُ في القتلى﴾ [3].

الآيتان مدنيتان، ولكن الحكم الذي في الأولى، وهو تأمين من دخل المسجد الحرام، هذا الحكم هو الغالب على أهل مكة، والحكم الثاني وهو القصاص في القتلى هو الغالب على أحوال أهل المدينة لقيام الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامي،

---

(١) لمحات في علوم القرآن ١٤٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٦-٩٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٨.

فتكون الآية الثانية مخصصة للآية الأولى فيصير معنى آية آل عمران: ﴿ ومن دخله كان آمناً إلا من وجب عليه القصاص، فلا أمن له بل لا بد من إقامة حدّ الله﴾.

وهذا المرجّح قريب من المرجّح السابق إلا أنّ في الأول الآيتان مختلفتان واحدة مكية والأخرى مدنية، وهذا لا يلزم أن يكون النصّان مختلفين بل كما رأيت كلاهما مدني. والأول فيه نسخٌ وهذا فيه تخصيص.

٣ ــ أن تكون الآيتان عامتين، فيعمل بهما، فإذا كانت هناك حالة تعارضتا فيها خصّصت إحداهما الآخرى.

يقول تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عليكُمْ أمهاتكُمْ وبناتكُمْ... ﴾ إلى قوله ﴿ وأنْ تجمعُوا بينَ الأختينِ إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إنَّ الله كانَ غَفُوراً رَحيماً﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿ والذينَ هُمْ لفروجِهم حافظونَ إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانُهم فإنَّهم غيرُ مَلُومِينَ﴾[٢].

فتحريم الجمع بين الأختين عام... وإباحة التسري بما ملكت الأيمان عام، فيخصُّ تحريم الجمع بين الأختين الآية الأخرى. ويكون المعنى عندئذ أحل لكم ما ملكت إيمانكم إلا أن تكونا أختين.

قال ابن كثير: [وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية... وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم][٣].

٤ ــ جاء في البرهان: [قال القاضي أبو بكر في التقريب: لا يجوز تعارض آي القرآن والآثار وما توجبه أدلة العقل، فلذلك لم يجعل قوله تعالى: ﴿ الله خالقُ كلِّ شيءٍ﴾[٤] معارضاً لقوله ﴿ وتَخْلُقُونَ إفْكاً ﴾[٥] وقوله ﴿ وإذْ تَخْلُقُ من الطينِ

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٣.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٥-٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٢ ط الشعب.
(٤) سورة الزمر: الآية ٦٢.
(٥) سورة العنكبوت: الآية ١٧.

كهيئة الطيرِ﴾[1].. لقيام الدليل العقلي أنه لا خالق غير الله تعالى. فيتعين تأويل ما عارضه، فيؤول قوله ﴿وتَخْلُقُونَ إفْكاً﴾ بمعنى تكذبون لأن الافك نوع من الكذب. وقوله ﴿وإذْ تخلُقُ من الطينِ﴾ أي تصور][2].

(١) سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٢) البرهان ٢/٥١.

كتب في أصول التفسير

الإكسير في أصول التفسير

لقيني طالب من طلبة العلم المطلعين، وذكر أنه عَلِمَ لشتغالي بأصول التفسير، واقترح رغبة منه في زيادة الانتفاع أن أحصل على مخطوطة لكتاب في هذا العلم البكر، وسمع عن ذاك الكتاب أنه كتاب نفيس جيد يُحرص على الرجوع إليه، فتلهفت إلى معرفته والوقوف على عنوانه واسم مؤلفه فقال جزاه الله خيراً: إنه الإكسير في أصول التفسير لسليمان بن عبد القوي الطوفي البغدادي الحنبلي من رجال القرن السابع والثامن[1] والمتوفى سنة ٧١٦ وقال: إن مخطوطة الكتاب في إحدى مكتبات تركيا وليس لديه رقه فشكرته على اهتمامه واقتراحه، وقلت له: إن الكتاب مطبوع نشرته مكتبة الآداب في مصر سنة ١٩٧٧، وإليكم كلمة عن هذا الكتاب:

١ ـ عنوان الكتاب ـ كما هو مثبت على غلاف المطبوع ـ هو «الاكسير في علم التفسير» وهذا العنوان يدل دلالة بينة على أن الكتاب في أصول التفسير وعجبت عندما قرأت المقدمة فوجدت تغييراً في العنوان عما أثبت في الغلاف، فقد سمّاه مؤلفه ـ كما في صدر مقدمة الكتاب: «الاكسير في قواعد التفسير» لا في علم التفسير، وكان جديراً بمن تولّى تحقيقه أن يذكر ما الذي دعاه إلى إيثار كلمة (علم) على كلمة (قواعد) والفرق يسير.

٢ ـ قال المؤلف: [أما بعد فإنه لم يزل يتلجلج في صدري إشكال علم التفسير، وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أر أحداً منهم كشفه فيا ألفه، ولا

---

(١) ذكر بعض من ترجمه أنه كان رافضياً. انظر كتاب المصلحة في التشريع الاسلامي ونجم الدين الطوفي للدكتور مصطفى زيد وكلمة الشيخ محمد أبو زهرة في تقديم هذا الكتاب.

نحاه فيا نحاه[1]، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيق، الناكبة عن جمر الطريق[1] لوضع قانون يعول عليه، ويصار في هذا الفن إليه، فوضعت لذلك صدْرَ هذا الكتاب، مردفاً له بقواعد نافعة في علم الكتاب، وسميته الاكسير في قواعد التفسير.

فن ألّق على هذا الوضع تفسيراً، صار في هذا العلم أولاً وإن كان أخيراً][2] ويدل هذا المقطع من المقدمة على اعتزاز هذا المؤلف بعمله وعلى أنه رائد في هذا المجال وأنه لم يسبقه إليه سابق.. وأنه بإبداعه يعد أولاً وإن كان أخيراً. ولو أنه سلك مسلك التواضع لكان ذلك ألْيَق.

ويدل كذلك على اسم الكتاب الذي سمى المؤلف كتابه به.

٣ ــ فَرّقَ المؤلف بين التفسير والتأويل، وهذا أمر عني به كثير من المؤلفين في التفسير وأصوله في القديم والحديث.

٤ ــ وقال: [إعلم أنَّ الكلام إما أن يكون متضح اللفظ والمعنى أوْ لا فالأول: لا حاجة به إلى تفسير، بل هو بيّنٌ بنفسه لاتضاح لفظِه واشتهاره وضعاً أو عرفاً، ونصوصيته في معناه، نحو ﴿وأنزلْنَا مِنَ السماء مَاء فَأَسْقَيْناكُمُوه﴾[3] فإنّ لفظ الإنزال والسماء والماء والإسقاء معروفة مشهورة، ونصوصيتها في مدلولاتها غير منكورة.

أما الثاني: وهو عدم الايضاح في لفظه ومعناه جميعاً لاشتراك، نحو ﴿والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُروء﴾[4] للطهر والحيض. وعسعس الليل ــ يشير إلى قوله تعالى في سورة التكوير: ١٧ ﴿ والليلِ إذا عَسْعَسَ ﴾ ــ لأقبل وأدبر... وهو المحتاج إلى التفسير][5].

(١) كذا في المطبوع. وفي النفس من صحة القراءة شيء. فتأمل.
(٢) الاكسير ص ١.
(٣) سورة الحجر: الآية ٢٢.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
(٥) الاكسير ص ٢.

ثم أورد فائدة ورود هذه الأقسام التي يحتاج بعض قرائها إلى التفسير.

ثم تحدّث عن العلوم التي يحتاج إليها المفسر بعد أن تحدث عن العلم من حيث هو علم، وكان حديثه هذا حديثاً فيه تجريد كثير.

فذكر علم النحو والصرف واللغة، وعلم الخلاف، والحساب والنجوم والهندسة والطب وعلم القراءات والأصول والفقه والتاريخ والوعظ والناسخ والمنسوخ والمعاني والبيان والبديع... ثم أشار إلى أن كل زمرة من المختصين بعلم يتمسكون ببعض الآيات يستدلون بها على صحة علومهم[1].

ثم قال:

[ونحن إنما ذكرنا العلوم التي ينبغي للمفسر الاعتناء ببيانها، وغالب التفاسير المتأخرة يقتصر من هذه العلوم على اللفظي، ومن المعنوي على الأقاصيص والفقه ويتفاوت بعضها على بعض في هذه العلوم قلّة وكثرة.

ومنهم من يقتصر على الأحاديث المتعلقة بأسباب النزول والتفسير ونحوها كعبيد ابن حميد.

ومنهم من يقتصر على الأحكام اللغوية من إعراب وتصريف كالزجّاج.. والزمخشري][2].

وكان هذا الجزء اليسير هو المتعلق بأصول التفسير ثم انتقل إلى المعاني والبيان واستغرق ذلك الكتاب كله.

وهكذا فإن هذا الكتاب على نفعه وشخصيّة صاحبه المتميزة لم يأت بجديد ولكنه كتاب نافع ولا سيما لمن يريد أن يشتغل في علوم البلاغة المعتمدة على الكتاب.

---

(١) الاكسير في علم التفسير ص ٢٣.

(٢) الاكسير في علم التفسير ص ٢٥.

الفوز الكبير في أصول التفسير

من الكتب التي أُلفت في هذا العلم الجليل كتاب «الفوز الكبير في أصول التفسير» تأليف الشيخ ولي الله أحمد قطب الدين بن عبد الرحيم الدهلوي المولود سنة ١١١٤ هـ الملقب شاه ولي الله. وقد تلقى العلم في بلده على والده ومشايخ العلم هناك، ثم زار الحرمين الشريفين سنة ١١٤٣ ثم جاور في سنة ١١٤٤ في مكة والمدينة يروي الحديث ويتلقى العلم عن علماء الحرمين ثم عاد إلى الهند في سنة ١١٤٥. وتوفي سنة ١١٧٦. وقد ترك عدداً من الكتب نذكر بعض المطبوع منها فيما يأتي:

«فتح الخبير بما لا بد من حفظه في علم التفسير» و«الفوز الكبير» و«حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» و«الإرشاد إلى مهمات الإسناد» و«الانصاف في أسباب الخلاف» و«عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد»(١).

كتب الدهلويُّ مقدمة موجزة للكتاب يذكر فيها أنَّ الله تبارك وتعالى وفّقه لفهم القرآن العظيم وأنّه أراد أن يجمع بعض النكات والقواعد التي تنفع الأصحاب في فهم الكتاب، وأن يجعلها في رسالة مختصرة. ويسأل الله سبحانه أن يفتح لطلبة العلم بمجرد فهم هذه القواعد شارعاً واسعاً في فهم كتاب الله، ويثني على القواعد التي جمعها والضوابط التي كتبها.

والكتاب مبني على أبواب خمسة، أولها العلوم الخمسة التي بيّنها القرآن. قال: [ليعلم أنَّ معاني القرآن المنطوقة لا تخرج عن خمسة علوم].

---

(١) انظر في ترجمته الأعلام في (أحمد بن عبد الرحيم) و«الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف» ترجم نفسه بقلمه وهذا الجزء مطبوع ملحق بكتاب «الفوز الكبير».

ثم ذكر هذه العلوم فقرر أنَّ:

١ ــ أول هاتيك العلوم **علم الأحكام** من الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام من قسم العبادات، أو من قسم المعاملات، أو من تدبير المنزل، أو من السياسة المدنية. وذكر أن هذا العلم تولى تفصيل القول فيه الفقهاء في كتبهم ودروسهم.

٢ ــ والعلم الثاني سمّاه **علم المخاصمة** والرد على الفرق الضالة من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين. وذكر أن هذا العلم تولى تفصيل القول فيه علماء التوحيد والكلام والعقائد.

٣ ــ والعلم الثالث **علم التذكير بآلاء الله** من بيان خلق السموات والأرضين، وإلهام العباد ما ينبغي لهم، ومن بيان صفات الله سبحانه الكاملة.

٤ ــ والعلم الرابع **علم التذكير بأيام الله**، يعني بيان الوقائع التي أوجدها الله سبحانه وتعالى من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين.

٥ ــ والعلم الخامس **علم التذكير بالموت وما بعده** من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار.

وهذه العلوم الثلاثة الأخيرة أي علم التذكير بآلاء الله وصفاته، وعلم التذكير بأيام الله، وعلم التذكير بالموت وما بعده تولى تفصيل القول فيها المذكِّرون والوعاظ.

أقول: وهذه العلوم الثلاثة من الرقائق التي ألفت فيها كتب كثيرة، وعني فيها ناس صالحون، وكان إلى جانبهم قوم آخرون لم يرزقوا المنهج الصحيح السليم وهؤلاء هم الذين عرفوا بالقصّاص والوعّاظ والمذكِّرين.. فقد كانوا يتساهلون بإيراد الأحاديث دون التحقيق في درجاتها.. بل كان بعضهم يسوّغ لنفسه أن يخترع الآثار والحكايات التي تدور حول الآيات.

ما أجدر أهل العلم أولي المنهج السديد والبصر النافذ أن يولوا هذه العلوم جهودهم وعنايتهم، ذلك لأنَّ القلوب قد قست فهي بحاجة إلى من يذكّرها

والنفوس قد غفلت فهي بحاجة إلى من يوقظها. وفق الله العلماء العاملين إلى ما يرضيه.

وأشار المؤلف إلى ملاحظة مهمة جداً لكنها وردت في الكتاب على أسلوب غير مناسب ولا لائق، وربما كان السبب في ذلك الترجمة، ذلك لأنَّ الكتاب مؤلف بالفارسية ثم ترجم إلى اللغة العربية، وأورد الملاحظة بألفاظي، وهي: أنّ الأسلوب الذي وردت فيه هذه العلوم الخمسة أسلوب فذ فريد لا عهد للبشر بمثله، فهو يختلف عما انتهى إليه الأمر عند المتأخرين من العلماء المختصين كالفقهاء وعلماء التوحيد والكلام.

والحق أن هذا مما يتصل بالإعجاز الذي خصَّ الله به كتابه الكريم، وقد فصّلت القول فيها في كتابي «الحديث النبوي» عندما وازنت بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث.

هذا وقد ربط المؤلف رحمه الله سبب هذا التفرد الأسلوبي بالمقصد الذي نزل القرآن من أجله فقال: [والمحقق أن القصد الأصلي من نزول القرآن تهذيب النفوس البشرية ودفع العقائد الباطلة، ونفي الأعمال الفاسدة.

فوجود العقائد الباطلة في المكلفين سبب لنزول آيات المخاصمة.

ووجود الأعمال الفاسدة وجريان المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام].

إنَّ إدراك هذه العلوم التي وردت في القرآن بهذا الشكل الاجمالي، مما يعين المفسر على المضي في مهمته وعلى أن يأخذ فكرة عامة عن موضوعات الكتاب الكريم.

□ ذكر في مطلع كتابه هذا كتاب «الفوز الكبير في أصول التفسير» موضوع أسباب النزول، وأشار إلى أن كثيراً من المفسرين توسعوا فيه توسعاً كبيراً، وقد سبق أن فصّلنا القول في ذلك في صفحات سابقة.

وقد عالج الدهلوي هذا الموضوع معالجة حسنة عندما ذكر العلوم الخمسة التي تضمنها القرآن وهي (علم المخاصمة، وعلم الأحكام وعلم التذكير بآلاء الله، وعلم التذكير بأيام الله، وعلم التذكير بالموت وما بعده) وكيف جاءت هذه العلوم في القرآن على نحو فريد. قال[1]:

[وعامة المفسرين يربطون كل آية من آيات المخاصمة وآيات الأحكام بقصة، ويظنون أن تلك القصة سبب نزولها.

والمحقق أن القصد الأصلي من نزول القرآن تهذيبُ النفوس البشرية ودمغُ العقائد الباطلة، ونفي الأعمال الفاسدة.

فوجود العقائد الباطلة في المكلفين سبب لنزول آيات المخاصمة.

ووجود الأعمال الفاسدة وجريان المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام.

وعدم تيقظهم] يعني غفلتهم ونسيانهم ذكر آلاء الله، وعدم ذكرهم أيام الله ووقائع الموت وما بعده كل ذلك [سبب لنزول آيات التذكير].

ثم أشار إلى أن كثيراً من قصص أسباب النزول التي يذكرها بعض المفسرين لا تخلو من تكلف واضح فقال: [وما تكلفوا من خصوصيات القصص الجزئية لا مدخل لها يعتد به إلاّ في بعض الآيات حيث وقع التعريض فيها لواقعة من وقائع وجدت في زمنه ﷺ أو قبل ذلك، ولا يزول ما يعرض للسامع من الانتظار عند سماع ذلك التعريض إلا ببسط القصة].

□ ثم بدأ بذكر العلوم الخمسة التي تضمنها القرآن، وبدأ بالعلم الذي دعاه علم المخاصمة والردّ على الفرق الضالة الأربع من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين...

وذكر أن هذه المخاصمة على قسمين:

---

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير ص ٢.

[الأول: أن تذكر العقيدة الباطلة مع التنصيص على شناعتها، ويذكر إنكارها لا غير.

والثاني: أن تقرر شبهاتهم ويذكر حلها بالأدلة البرهانية أو الخطابية][1].

□ ثم بدأ بذكر الردّ على المشركين، وذكر ما في دينهم من بقايا دين إبراهيم عليه السلام كالحج وتحريم الأشهر الحرم، وقد استوفى تلك البقايا.

قال ابن سعدي:

[ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج وأقواها وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل على وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج.

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم وكيف دعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المنفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحداً من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به، لا بُدّ أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيراً ما يحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بالزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين أن يكون هو المعبود وحده... ويجادل المبطلين أيضاً بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن نفسها فضلاً عن عابديها شيئاً... وَيَنْقُضُ على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاواهم الباطلة، وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه][2]. وقد لخص الدهلوي عقائد المشركين بما يأتي: قال[3]:

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير ص ٢-٣.

(٢) القواعد الحسان ٤٣-٤٥.

(٣) الفوز الكبير في أصول التفسير ص ٣.

[وكان ضلالهم الشرك والتشبيه والتحريف وإنكار المعاد، واستبعاد رسالته ﷺ وشيوع الأعمال القبيحة والمظالم فيا بينهم، وابتداع الرسوم الفاسدة واندراس العبادات].

وشرح كل واحد من هذه الأمور ثم أورد أجوبة القرآن عليها. وبدأ بالشرك فقال: [وجواب الاشراك:

أولاً: طلب الدليل، ونقض التمسك بتقليد الآباء.

ثانياً: عدم التساوي بين هؤلاء العباد وبينه تبارك وتعالى واختصاصه عز وجل باستحقاق أقصى غاية التعظيم بخلاف هؤلاء العباد.

ثالثاً: بيان إجماع الأنبياء على هذه المسألة ﴿وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلاَّ نُوحي إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ أنَا فاعبُدونِ﴾[1].

رابعاً: بيان شناعة عبادة الأصنام، وسقوط الحجارة من مراتب الكمالات الانسانية فكيف بمرتبة الألوهية].

قال ولي الله الدهلوي:

[وجواب التشبيه:

أولاً: طلب الدليل ونقض التمسك بتقليد الآباء.

ثانياً: بيان ضرورة المجانسة بين الوالد والولد وهي مفقودة.

ثالثاً: بيان شناعة إثبات ما هو مكروه ومذموم عند أنفسهم لله تبارك وتعالى ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾].

[وجواب التحريف: ببيان عدم نقله عن أئمة الملة وبيان أن ذلك كله اختراع وابتداع.

وجواب استبعاد الحشر والنشر:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

أولاً: القياس على إحياء الأرض وما أشبه ذلك، وتنقيح المناط الذي هو شمول القدرة، وإمكان الاعادة.

ثانياً: بيان موافقة أهل الكتب الالهية في الاخبار به.

وجواب استبعاد إرسال الرسل:

أولاً: ببيان وجودها في الأمم المتقدمة ﴿وما أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رجالاً نُوحي إليهم﴾(١) ﴿ويقولُ الذينَ كَفَرُوا لستَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكتاب﴾ آخر الرعد.

ثانياً: دفع الاستبعاد ببيان أن الرسالة ههنا عبارة عن الوحي ﴿قُلْ إنَّما أنَا بشرٌ مثلُكُم يُوحَى إليَّ﴾ آخر الكهف.

وثالثاً: ببيان عدم ظهور المعجزات التي يقترحونها لمصلحة كُلِّيَّة يقصر علمهم عن ادراكها.

وكذلك عدم موافقة الحقّ لهم في تعيين شخص يقترحون نبوّته.

وكذلك لم يجعل الرسول ملكاً، ولم يوح إلى كل واحد منهم.

فليس كل شيء من ذلك إلا للمصلحة الكلية].

وهكذا بيّن الدهلوي طريقة مخاصمة المشركين، ثم أتى بعد ذلك لبيان طريقة مخاصمة اليهود والنصارى والمنافقين وختم كلامه بقوله: [هذا ما تيسّر لي في هذا الكتاب من بيان عقائد الفرق الضالّة المذكورة وتقرير أجوبتها، وهذا القدر كاف في فهم معاني آيات المخاصمة](٢).

إن العلوم التي وضعها العلماء لخدمة القرآن علوم تساعد على التدبر والفهم الذي لا بد أن يسبق العمل.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أيها الناس تعلّموا فمن عَلِمَ فليعمل(٣).

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٩ والنحل: الآية ٤٣.

(٢) الفوز الكبير ص ١٢.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٢٤.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: مثل علم لا يعمل به كمثل كنز لا ينفق منه في سبيل الله عزّ وجلّ[1].

يريد أن العلم الذي لا يعمل به صاحبه يضره كما يضر كنز المال وعدم إخراج حق الله فيه ﴿ والذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضة ولا يُنفقونها في سبيلِ الله فبشِّرهمْ بعذاب أليم يَوْمَ يُحْمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فَذُوقُوا ما كنتم تكنزون ﴾[2].

وقال ابن المعتز: علم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة[3].

إن كتاب الله أنزل ليحكم حياتنا الخاصة والعامة، ولن نستطيع أن نحكّمه ما لم نفهمه ونتدبره، وعلم أصول التفسير من العلوم المساعدة على اتقان الفهم والتدبر.

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٧٤.
(٢) سورة التوبة: الآية ٣٥.
(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٣٧.

أسلوب القرآن في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

يفيدُ المفسر أن يعرف أسلوبَ القرآنِ في تقرير نبوة محمد ﷺ، وهذا الموضوع وهو أدلة نبوته ﷺ عنوان ألّف فيه عدد من العلماء الأجلاّء، كتباً جيدة، حتى غدت هناك مكتبة يمكن أن ندعوها بـ(دلائل النبوة).

وقد استمرَّ التأليف في هذا الموضوع عبر العصور، وقصَّر عصرنا في متابعة التأليف في هذا فالكتب الحديثة التي تتعرض لأثبات دلائل النبوة قليلة[1]، مع أنَّ دلائل عدة ظهرت في زماننا تثبت نبوة رسول الله ﷺ وهي جديرة بالجمع والتصنيف.

وأنا أسوق لك طائفة من هذه الكتب[2] مراعياً الترتيب الزماني.

فقد ألّف الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث المتوفى سنة ٢٧٥ كتاباً عنوانه «دلائل النبوة»[3].

ولابن قتيبة عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٦٧ كتاب بهذا العنوان.

وكذلك فللإمام أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥ كتاب «دلائل النبوة».

وللقاضي عبد الجبّار بن أحمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥ كتاب «تثبيت دلائل النبوة» وهو مطبوع.

ولأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ كتاب «دلائل النبوة» وهو مطبوع.

---

(١) من ذلك كتابا الشيخ سعدي ياسين والشيخ أبي الحسن الندوي.

(٢) وقد رجعت إلى كشف الظنون لحاجي خليفة.

(٣) انظر كتابي: «أبو داود حياته وسننه» ص ٣٤.

ولأبي العباس جعفر بن محمد المستغفري النسفي الحنفي المتوفى سنة ٤٣٢ كتاب بهذا العنوان «دلائل النبوة». وللإمام أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب «أعلام النبوة» وهو مطبوع.

ولأبي بكر بن أحمد بن الحسين البيهقي ابن الامام الحافظ البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ دلائل النبوة وفيه يقول الذهبي: عليك به فإنه كله نور[١]. وقد اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤.

ولأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني المتوفى ٥٣٥ ولأبي بكر محمد بن حسن النقاش الموصلي المتوفى ٨٥١ كتاب بهذا العنوان «دلائل النبوة».

قال الكتاني في رسالته: [ولأبي بكر الفرياني، ولأبي حفص بن شاهين ـ أي لهما دلائل النبوة ـ وأعلام النبوة لأبي داود السجستاني، ودلائل الرسالة لأبي المطرف عبد الرحمن بن محمد... بن أصبغ القرطبي الحافظ وهو في عشرة أسفار][١] وفي البداية والنهاية لابن كثير بحث واسع في دلائل النبوة.

ومما يتصل بهذا الموضوع الكتب المؤلفة في إعجاز القرآن.

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي: [هذا الأصل الكبير قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ فأخبر أنه صدّق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ، وما نزّهوا عنه من النقائص والعيوب فرسولنا محمد أولاهم وأحقّهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع وكتابه مهيمن على كل الكتب، فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره.

وقرر نبوّته بأنه أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ﴿وما كنتَ تتلو مِنْ قبلِهِ مِنْ كتاب ولا تخطُّه بيمينكَ إذاً لارتابَ المُبْطلونَ بَلْ هُوَ آيات بينات في صدورِ الذينَ أوتوا العلمَ وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمون﴾[٢] ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب

(١) الرسالة المستطرفة ١٠٥.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

السابقة، بل لم يفجأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا ولا قدروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون تقوّله على ربه].

... وقرر القرآن الكريم نبوة محمد ﷺ بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطوّلة على الوجه الواقع الذي لا يستريب فيه أحد ثم يخبر تعالى أنه ليس هناك طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي.

كمثل قوله تعالى في قصة مريم ﴿ ذلكَ مِنْ أَنباء الغيبِ نُوحيهِ إليكَ وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهمْ يكفُلُ مَرْيَمَ وما كنتَ لديهمْ إذْ يختصمون ﴾[1].

وقوله تعالى في قصة موسى: ﴿ وما كنتَ بجانب الغَرْبِيِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كُنْتَ مِنَ الشاهدينَ. ولكنّا أنشأنا قُروناً فتطاولَ عليهم العُمُرُ وما كُنْتَ ثاوياً في أهل مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتِنا ولكنّا كنّا مُرْسلين. وما كنتَ بِجَانِبِ الطورِ إذْ نادَيْنا ولكنْ رحمةً من ربِّكَ لتنذرَ قَوْماً ما أتاهم مِنْ نذيرٍ منْ قبلِكَ لَعلَّهم يتذكرون ﴾[2].

وقوله في قصة يوسف ﴿ ذلكَ من أنباء الغيبِ نُوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أَمْرَهُم وَهُمْ يمكرونَ. وما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنين وما تسألهُم عليهِ من أجرٍ إنْ هُوَ إلا ذكرٌ للعالمين ﴾[3].

وقوله سبحانه بعد أن أورد قصة نوح: ﴿ تِلْكَ من أنباء الغيبِ نُوحيها إليكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قومُكَ من قبلِ هذا فَاصْبِرْ إنَّ العاقبةَ للمتقين ﴾[4].

وهكذا فقد أخبر القرآن عن الأمم السابقة وأورد قصصهم مفصلة وذلك كإخباره عن نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم ﴿ كذلك نقصُّ عليكَ من أنباء ما

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٤.
(٢) سورة القصص: الآية ٤٤-٤٦.
(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٢-١٠٤.
(٤) سورة هود: الآية ٤٩.

قد سبقَ وقد آتيناكَ من لدنَّا ذكراً﴾[1] ﴿ذلكَ مِنْ أنباء القُرى نقصُّه عليكَ. منها قائمٌ وحصيدٌ﴾[2] بل في قصصه تصحيح للأخبار والحوادث التي وردت مشوّهة مُحرّفة في كتب أهل الكتاب بسبب تبديلهم وتغييرهم على نحو ما نقرأ من قوله سبحانه: ﴿وبكفرهم وقولِهم على مريمَ بُهْتَاناً عظيماً وقولِهم إنَّا قتلْنَا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ الله وما قتَلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه. ما لهم به مِنْ علم إلا اتِّباعَ الظنِّ. وما قتلوهُ يقيناً بل رَفَعَهُ الله إليه وكانَ الله عزيزاً حكيماً﴾[3].

وكذلك ما جاء بشأن ولادة موسى وعيسى عليهما السلام كل ذلك لم يعرفه أهل الكتاب على حقيقته إلا بعد نزوله في القرآن.. فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً.

□ فمن الأدلة التي ذكرها القرآن في تأييد نبوة محمد ﷺ وصفُه ﷺ بالصفات الكريمة التي لا تجتمع في غيره من البشر، فقد أدَّبهُ ربه وكمّله من أوصاف الكمال، وتحلّى بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة والوفاء والكرم والنبل وغيرها من المثل العليا والصفات السامية. فمن كان على هذه الدرجة الرفيعة من الخُلق كان أهلاً للرسالة والنبوة التي شاءت إرادة الله أن تكون النبوة الخاتمة والرسالة الأخيرة لأهل الأرض. يقول تعالى في وصفه: ﴿لَقَدْ جاءكُمْ رسولٌ من أنفسِكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عنتُّمْ حريص عليكمْ بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ﴾[4].

ويقول أيضاً: ﴿فبما رحمة مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ ولو كُنْتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضُّوا من حولِكَ فاعفُ عنهم واستغفرْ لَهُمْ وشاورْهُم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكّلْ على الله إنَّ الله يُحِبُّ المتوكلينَ﴾[5] ويقول أيضاً: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنينَ إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسِهُمْ يَتْلُو عليهم آياتِه ويُزكّيهم ويُعَلِّمُهمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ

---

(١) سورة طه: الآية ٩٩.
(٢) سورة هود: الآية ١٠٠.
(٣) سورة النساء: الآية ١٥٧-١٥٨.
(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٨.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

كانُوا مِنْ قَبْلُ لفي ضلال مبينٍ ﴾[1] ويقول أيضاً: ﴿ مـا كانَ محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسولَ الله وخاتَمَ النبيِّينَ وكانَ الله بِكُلِّ شيء عليماً ﴾[2] ويقول: ﴿ وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾[3] حتى قال ذاك القائل بعد أن تأمل قوله تعالى: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

أيَـرُومُ مخـلـوق ثـنـاءك بـعـدمـا أثنى عـلـيـك الـواحـد الخـلاق[4]

□ ومن الأدلة التي ذكرها القرآن في إثبات نبوته ﷺ ما جاء في الكتب التي بين أيدي أهل الكتاب من بشارات هاتيك الكتب وبشارات النبيين السابقين من نحو قوله تعالى: ﴿ وإذْ قالَ عيسى بنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إنِّي رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً لما بين يديَّ من التوراةِ ومُبَشِّراً برسول يأتي مِنْ بعدي اسمُه أحمدُ. فلما جاءهُمْ بالبيناتِ قالوا هذا سحرٌ مبينٌ ﴾[5].

وقد أوسع هذا الموضوع بحثاً شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح[6] وفي غيره من الكتب، وكذلك فإن شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله قد كتب في ذلك ورجع إلى كتبهم التي بين أيديهم الآن، ودلّهم على البشارات القاطعة بصحة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولنورد الآيات التي ذكرت ذلك.

منها قوله تعالى: ﴿ وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ. نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ. على قلبِكَ لِتكونَ مِنَ المنذِرين. بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ. وإنَّهُ لفي زُبُرِ الأولينَ. أَوَلَمْ يَكُنْ لهم آيةً أن يعلَمَهُ علماءُ بني إسرائيل ﴾[7].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.
(٣) سورة القلم: الآية ٤.
(٤) انظر تفصيل هذه الفكرة في كتاب «الشفا في حقوق المصطفى».
(٥) سورة الصف: الآية ٦.
(٦) انظر ٢/٢١٣ و٣/٣١٢، ٣١٩ و٣/٢٩٩.
(٧) سورة الشعراء: الآية ١٩٢-١٩٧.

ومنها قوله عز وجل: ﴿ فإنْ كُنْتَ في شكٍ مما أنزلْنا إليكَ فاسألِ الذينَ يقرؤونَ الكتابَ مِنْ قبلِكَ. لَقَدْ جاءكَ الحق من ربِّكَ فلا تكونَنَّ من المُمْتَرين ﴾(١).

ومنها قوله تبارك وتعالى ﴿ ويقولُ الذين كفروا: لَسْتَ مُرْسَلاً. قُلْ كَفَى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَنْ عنده عِلْمُ الكتاب ﴾(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿ أفغيرَ الله أبتغي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنْزَلَ إليكُم الكتابَ مفصَّلاً. والذين آتيناهُم الكتابَ يعلمونَ أنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ ربِّكَ بالحق فلا تكونَنَّ مِنَ المُمْتَرين ﴾(٣).

ومنها قوله تقدّست أسماؤه: ﴿ ذلكَ بأنَّ منهم قِسِّيسينَ ورُهْبَاناً وأنَّهم لا يستكبرونَ. وإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرسولِ تَرى أعينَهُمْ تفيضُ من الدَّمعِ ممّا عَرَفُوا من الحق يقولونَ رَبَّنا آمنَّا فاكتبْنا مَعَ الشاهدينَ. ومَا لَنَا لا نؤمنُ بالله وما جَاءنَا مِنَ الحَقِّ ونطمعُ أن يُدخلَنَا ربُّنَا مَعَ القوم الصالحينَ ﴾(٤).

ومنها قوله سبحانه: ﴿ إنَّ الذينَ أوتوا العلمَ مِنْ قبلِهِ إذَا يُتْلى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّداً ويقولونَ سبحانَ ربِّنَا إنْ كانَ وعدُ ربنا لمفعولاً ويخرّونَ للأذقانِ يبكونَ ويزيدُهم خُشوعاً ﴾(٥).

□ ومن الأدلة التي ذكرها القرآن في تقرير نبوته إخباره عن الغيوب المستقبلة وذلك كإخباره عن انتصار الروم على الفرس في قوله سبحانه ﴿ ألم. غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سيغلبونَ في بضعِ سنين ﴾(٦).

وكإخباره عما سيكون عليه الصحابة ﴿ عَلِمَ أنْ سيكونُ منكم مرضى وآخرونَ

(١) سورة يونس: الآية ٩٤.
(٢) سورة الرعد: آخر آية فيها.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٤.
(٤) سورة المائدة: ٨٣-٨٤.
(٥) سورة الاسراء: الآية ١٠٧-١٠٩.
(٦) سورة الروم: أولها.

يضربونَ في الأرضِ يبتغونَ مِنْ فضلِ الله وآخرونَ يُقَاتلون في سبيلِ الله ﴾[1] وهذه الآية من سورة تعدُّ من أوائل ما نزل من القرآن بمكة.

وكإخباره عن انتصار المسلمين في المستقبل ﴿ أَمْ يقولونَ نَحْنُ جميع منتصرٌ سَيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[2].

ومن الأدلة التي ذكرها القرآن مما يقرر نبوته ﷺ ما تضمنه القرآن من الإخبار عن السرائر ودخائل النفوس من غير أن يظهر منهم بقول أو فعل، فذلك دليلٌ كبير على صِدق نبوته، وعلى أن هذا القرآن من عند الله.

وذلك كإخباره عن حديثِ نفسٍ خَطَرَ ببالهم فأطلع الله نبيّه عليه وأنزل قوله: ﴿ إذ همَّتْ طائفتانِ منكمْ أنْ تفشلا والله وَليُّهما وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنونَ ﴾[3].

والطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة اللتان همّتا بالتقاعد عن الخروج يوم أُحُد.

إنَّ معرفة المفسر لهذا الموضوع مما يعينه على أداء مهمته في شرح كتاب الله وبيانه للناس.

---

(١) سورة المزمل: الآية ٢٠.
(٢) سورة القمر: الآية ٤٤-٤٥.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٢٢.

الغيبيّات والتفسير

إنَّ ممَّا ينبغي التسليم به قبل البدء بمحاولة التفسير مسألة الايمان بالغيب؛ فالايمان بالغيب أساس من الأسس التي لا بُدَّ من الاعتماد عليه في تفسير عدد من آيات القرآن، وهو ركن من أركان الايمان والعقيدة الاسلامية لا يكون المسلم مسلماً ما لم يؤمن به، والمطلوب من المفسر أن يحافظ على نقاء هذا الايمان وسلامته من الشك والزعزعة..

وغزو الحضارة المادية لنا ــ في هذه الحقبة ــ وتأثّرنا بالفلسفة الماديّة والثقافة الغربية العلمانية التي بُنيت عليها مناهج تعليمنا... كل أولئك جعل مبدأ الغيبيّات مهتزاً عند كثير من المثقفين والعامة من أبناء أمّتنا. وكان لذلك أثر على إنتاج بعض المفسرين المحدثين.

وقد بدا هذا الأثر والتأثر جلياً واضحاً في مدرسة التفسير الحديثة التي من أعظم رجالها الشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا والشيخ أحمد مصطفى المراغي رحمهم الله جميعاً، وهؤلاء مثقفون مُتديّنون طيّبون، والأمر أشدُّ عند المثقفين الذين ليسوا مُتديّنين ولا طيّبين.

وكذلك فقد كان عدد من العامة متأثراً بالنزعة المادية التي تنكر الغيبيّات، ولا يفيد أن أذكر أسماء بعضهم، فهم نكرات، وهم ممن يقومون بأعمال لا تتطلب مستوى ثقافياً جيداً كالبقال والتاجر، والمزارع والعامل وما إلى ذلك.. أعرف واحداً من هؤلاء لا يفقه شيئاً من مسائل العلم، لا تمر به آية من آيات الغيبيات في كتاب الله إلا ويحاول أن يؤولها تأويلاً مضحكاً لسذاجته وبعد هذا التأويل عن الحقيقة وهو في الوقت ذاته ملتزم الأداء بالواجبات لا يدع الصلاة والفرائض الأخرى، ويقرأ القرآن، ويحفظ عدداً من آياته وسوره.

إنها فتنة.. وإنها أثر من آثار تلك المعركة الضارية بين الايمان والمادية.. بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. الإيمان بالغيب وبين الإيمان بالمادة وما يتصل بها.

وهذه المعركة قديمة تضرب في جذورها إلى عصور متقدمة.. ولكنها في الآونة الأخيرة اتقدت شعلتها، وعلا لهيبها، واشتد أوارها، وذلك لاستفحال النزعة المادية على نحو ربما لم يأت مثله في يوم من أيام عمر الدنيا، ولقد أحرزت تلك النزعة ــ مع الأسف الشديد ــ مكاسب ليست قليلة. وهذه خسارة عظمى للانسانية دون شك.

إن هذا الواقع المؤلم أمر سيء وظالم للحقيقة ومفوّت على الناس الخير الكثير ولكن الشيء الأسوأ، والكارثة العظمى أن يمتد أثر هذه النزعة المادية إلى كتاب الله، ويصل إلى كتب التفسير. فكتاب الله وحي أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فالايمان بأنه من عند الله معتمد على عقيدة الايمان بالغيب.

ومن أهم مظاهر التأثر بالحضارة المادية عند عدد من علماء المسلمين المعاصرين أمران:

١) الانبهار بالعلم التطبيقي وآثاره التقنية المتمثلة بأدوات وآلات ومخترعات تستحوذ على الاعجاب إلى درجة الدهشة والذهول.

٢) إعطاء العقل قيمة أكثر مما يستحق، والتعويل على حكمه في أمور لا تدخل في نطاقه، وليست من مجالاته.

هذان الأمران جعلا شيئاً من الزعزعة للأمور الغيبية. ولئن ظهر ذلك عند الملحدين إنكاراً لها وجحوداً بها، إنه ظهر عند المؤمنين تأويلاً لها وتفسيراً يعتمد على العقل واستخدام التفسير العلميّ.

ولقد بلغ الأمر ببعضهم أن يجعل العقل في منزلة تتساوى مع الوحي.

هذا مع أن عقل الانسان محدود بالزمان والمكان والثقافة والمؤثرات الوراثية والعوامل التربوية والأوضاع النفسية والظروف الأخرى ولا يمكن أن يكون مساوياً للوحي بحال من الأحوال.

ويصوّر الأستاذ محمود محمد شاكر كيف أنَّ الحضارة الأوروبيّة أسهمت في تقويض الحياة الاسلامية والعقل الاسلامي فيقول:

[فمنذ أول الاسلام خاضت الجيوش الاسلامية معارك الحرب في جميع أنحاء الدنيا، وخاض معها العقل الاسلامي معارك أشدّ هولاً حيث نزل الانسان المسلم. وتقوّضت أركان الدول تحت وطأة الجند المظفر، وتقوضت معها أركان الثقافات المتباينة تحت نور العقل المسلم المنصور، وظلت الملاحم دائرة الرحى قروناً متطاولة، في ميادين الحرب وميادين الثقافة حتى كان العصر الأخير.

انبعثت الحضارة الأوروبيـة، ثم انطلقت بكل سلاحها لتخوض في قلب العالم الإسلامي، أكبر معركة في تاريخنا وتاريخهم، وهي معركة لم يحط بأساليبها وميادينها أحد بعد... ولم يتقصّ أحدٌ آثارها فينا، ولم يتكفل بدراستها مِنْ جميع نواحيها من يطيق أن يدرس...

لم تكن المعركة الجديدة بين العالم الأوروبـي المسيحي، وبين العالم الاسلامي، معركة في ميدان واحد، بل كانت معركة في ميدانين: ميدان الحرب، وميدان الثقافة.

ولم يلبث العالم الإسلامي أن ألقى السلاح في ميدان الحرب؛ لأسباب معروفة.

أما ميدان الثقافة فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلاً بعد جيل، بل عاماً بعد عام، بل يوماً بعد يوم][1].

إنَّ هذا الواقع الذي لا يجهله دارس ولا ينكره إلا مكابر كان له أكبر الأثر على كثير ممن تصدى للتفسير، فصعب عليهم التسليم بالغيبيات ومن هنا كانوا يذهبون مذهب التأويل لآيات القرآن التي تدور حول أمور متعلقة بالغيب، وفي هذا ما فيه من الانحراف.

غُزيَ المسلمون في العصر الحاضر من قبل الحضارة الأوربية وكان الغزو مزدوجاً، كان عسكرياً وثقافياً يقول الأستاذ محمود محمد شاكر: [وكانت هذه المعركة الثقافية أخطر المعركتين، وأبعدهما أثراً، وأشدهما تقويضاً للحياة الاسلامية

---

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية ص ١٠.

والعقل الاسلامي. وكان عدوّنا يعلم ما لا نعلم، كان يعلم أن هذه هي معركته الفاصلة بيننا وبينه، وكان يعلم من خباياها ما لم نعلم، ويدرك من أسرارها ووسائلها ما لا ندرك، ويعرف من ميادينها ما لا نعرف، ويصطنع لها من الأسلحة ما لا نصطنع، ويتحرى لها من الأسباب المفضية إلى هلاكنا ما لا نتحرى أو نلقي إليه بالاً، وأعانه وأيده أن سقطت الدول الاسلامية جميعاً هزيمة في ميدان الحرب، فسقطت في يده مقاليد أمورها في كل ميدان من ميادين الحياة، وصار مهيمناً على سياستها واقتصادها وصحافتها، أي سقطت في يده مقاليد التوجيه الكامل للحياة الاسلامية، والعقل الاسلامي.

وميادين معركة الثقافة والعقل ميادين لا تعد، بل تشمل المجتمع كله في حياته، وفي تربيته، وفي معايشه، وفي تفكيره، وفي عقائده، وفي آدابه، وفي فنونه، وفي سياسته، بل كل ما تصبح به الحياة حياة إنسانية، كما عرفها الانسان منذ كان على الأرض.

والأساليب التي يتخذها العدو للقتال في معركة الثقافة أساليب لا تعد ولا تحصى، لأنها تتغير وتتبدل وتتجدد على اختلاف الميادين.. وكثرتها.

وأسلحة القتال فيها أخفى الأسلحة، لأن عقل المثقف يتكون يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، وهو يتقبل بالتربية والتعليم والاجتماع أشياء يُسَلِّمُها بالإلف الطويل، وبالعرض المتواصل، وبالمكر الخفيّ، وبالجدل المضلل، وبالمراء المتلون، وبالهوى المتغلب، وبضروب مختلفة من الكيد الذي يعمل في تحطيم البناء القائم، لكي يقيم العدو على أنقاضه بناء كالذي يريد ويرجو.

وقد كان ما أراد الله أن يكون، وتتابعت هزائم العالم الاسلامي في ميدان الثقافة جيلاً بعد جيل، وكما بقيت معارك الحرب المتتابعة سراً مكتوماً لا يتدارسه قادة الجيوش الاسلامية وجندها حتى اليوم، بقيت أيضاً معارك الثقافة على تطاولها سراً خافياً، لا يتدارسه قادة الثقافة الاسلامية وجندها.

بل أكبر من ذلك، فقد أصبح أكثر قادة الثقافة في العالم الاسلامي وأصبح جنودها أيضاً تبعاً، يأتمرون بأمر القادة من أعدائهم عارفين أو جاهلين أنهم هم

أنفسهم قد انقلبوا عَدُوّاً للعقل الاسلامي الذي ينتسبون إليه، بل الذي يدافعون عنه أحياناً دفاع غيرة وإخلاص.

لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة، بل كان غرضه الأ ول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الاسلامي جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تدرك، ولا تبصر إلا ما يريد لها هو أن تبصر، ولا تعرف إلا ما يريد لها هو أن تعرف. فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل، وقد كان ما أراد الله أن يكون وظفر العدو فينا بما كان يبغي ويريد] (١)

ومن أمضى أسلحة العدو في تهديم بعض جوانب الثقافة، بل أهم جوانبها سلاح الاستشراق وهو سلاح [لم يدرسه المسلمون بعد ولم يتتبعوا تاريخه، ولم يكشفوا عن مكايده وأضاليله ولم يقضوا على الخفي من أسرار مكره، ولم يستقصوا أثره في نواحي حياتهم الثقافية، بل في أكثر نواحي حياتهم الانسانية.. كيف؟... بل كان الأمر عكس ما كان ينبغي أن يكون، فهم يتدارسون ما يلقيه إليهم على أنه علم يتزوده المتعلم، وثقافة تتشربها النفوس، ونظر تقتضيه العقول] (٢) حتى إن الكاتب الاسلامي الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله قال: «إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها».

[وتفصيل أثر هذا الاشعاع في تاريخنا الحديث، وفي سياستنا وفي عقائدنا، وفي كتبنا وفي أخلاقنا وفي مدارسنا وفي صحافتنا وفي كل أقوالنا وأعمالنا شيء لا يكاد يحيط به أحد.

وهذا الاشعاع ــ كما سمّاه مالك بن بني ــ كان من أعظم الأسباب وأبعدها خطراً في العقل الحديث] (٢) حتى كان هذا العقل عندما يريد أن يفسر ما جاء في

---

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية ص ١٢.

(٢) مقدمة الظاهرة القرآنية ص ١٣.

القرآن من آيات تتحدث عن الغيب ويفهمها فهماً يطمئن إليه ويرضى عنه كان يفكر ويطيل التفكير، ويبحث بكل وسيلة عن التأويل الذي يجعل هذه الآيات المتحدثة عن الغيب مقبولة لديه غير خارجة عن دائرة المجال الحسي المادي.. لأن هذا العقل ــ مع الأسف الشديد ــ قد صيغ على النحو الذي ذكرنا.

ومما زاد الأمر دقة وتعقيداً وحرجاً، إختلاط المواقف وعدم قيام طائفة من العلماء ينهجون النهج السليم في فهم القرآن مستفيدين من معطيات الثقافة الوافدة وجوانبها الايجابية، ولم يكن في مطلع هذا العصر إلا نوعان من العقول:

□ عقول (عتيقة) تقبل الغيبيات على الوجه الصحيح، ولكنها في الوقت ذاته عقول تقبل الخرافة وتقر العقيدة الباطلة من مثل الاستغاثة بالموتى والطلب منهم واعتقاد صحة البدع وقبولها والعمل بها.

□ وعقول (حديثة) عملت فيها أسلحة أعدائنا على نحو ما ذكرنا في هذا الحديث، وغرس فيها الشك بكل ما هو غير محسوس.

وغياب المنهج السليم جعل كثيراً من السلفيين المتنورين عندما يريدون إنكار البدع والخرافات بحماسة، جعلهم على مقربة من النوع الآخر وهم لا يشعرون، ولو كان المنهج السليم قائماً لأنقذهم من هذا الوضع المحرج الخطير.

□ ولذلك كان على المفسر في عصرنا أن ينتبه لهذا الوضع المعقد الدقيق وأن يتهم نفسه ويخلصها من الصفات الخطيرة التي توجد في كلتا الطائفتين لأنه يفسر كلام الله رب العالمين.

□ هذه واحدة والأخرى أن على كل غيور من أهل العلم والسلطان أن يعمل على إيجاد الطائفة الملتزمة بالمنهج السليم في فهم كتاب الله ودعمها وزيادة عددها.

كيفَ نفسّر آيَات الصّفات

إن من الموضوعات المهمة التي ينبغي أن يُعْنى بها علمُ أصول التفسير كيفية توضيح آيات الصفات في القرآن، تلك الآيات التي تذكر صفات الله وما يتصل بذاته تبارك وتعالى، وذلك لما ساد في كتب التفسير الشائعة من سيطرة فكرة الأشاعرة القائمة على التأويل. والعجيب أن يكون الواقع هكذا مع أنَّ السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يختلفوا في تفسير هذه الآيات، ولم نجد فيهم من ينهج منهج المتأخرين الذي يؤدي إلى تعطيل النصّ القرآني.

والمنهج الصحيح في هذا الموضوع هو التزام ما جاء في كتاب الله وما صحَّ من سنة رسول الله ﷺ والإقرار به وإمراره مع فهم معانيه. قال شارح الطحاوية:

[.. فالواجب أن ينظر في هذا الباب ــ أعني باب الصفات ــ فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه. والألفاظ التي ورد بها النصّ يعتصم بها في الاثبات والنفي، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني. وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحاً قبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبيّن المراد، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك][1].

ثم قال: [وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات فيستدل بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجه.

قال أبو حنيفة رضي الله عنه في «الفقه الأكبر»: له يد ووجه ونفسٌ، كما

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣٩.

ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف. ولا يقال: إن يده قدرته ونعمته؛ لأنَّ فيه إبطال الصفة. انتهى. وهذا الذي قاله الإمام أبو حنيفة ثابت بالأدلة القاطعة:

قال تعالى: ﴿ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1] ﴿ والأرضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامةِ والسمواتُ مطويَّات بيمينِهِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شيء هالك إلاَّ وَجْهَهُ ﴾[3] ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ ذُو الجلالِ والإكْرَامِ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرحمةَ ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿ واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[7] وقال تعالى: ﴿ ويُحذِّرُكُم الله نَفْسَهُ ﴾[8].

وقال ﷺ في حديث الشفاعة لما يأتي الناسُ آدم فيقولون له: «خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء» الحديث[9].

ولا يصحُّ تأويل من قال: إنَّ المراد باليد القدرة، فإنَّ قوله ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ ﴾[10] لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد.

ولو صحَّ ذلك لقال إبليس: وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك، فلا فضل له علي بذلك. فإبليس ــ مع كفره ــ كان أعرف بربه من الجهمية، ولا دليل لهم في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أيدينا أنْعَاماً فهم لها

(١) سورة ص: الآية ٧٥.
(٢) سورة الزمر: الآية ٦٧.
(٣) سورة القصص: الآية ٨٨.
(٤) سورة الرحمن: الآية ٢٧.
(٥) سورة المائدة: الآية ١١٦.
(٦) سورة الأنعام: الآية ٥٤.
(٧) سورة طه: الآية ٤١.
(٨) سورة آل عمران: الآية ٢٨.
(٩) رواه البخاري وأحمد من حديث أنس.
(١٠) سورة ص: الآية ٧٥.

مَالِكُونَ ﴾[1] لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة. ولم يقل (أيديَّ) مضافاً إلى ضمير المفرد، ولا (يدينا) بتثنية اليد مضافاً إلى ضمير الجمع. فلم يكن قوله: ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ نظير قوله: ﴿ لما خلقت بيدي ﴾.

وقال النبي ﷺ عن ربه عز وجل: «حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء أو جوارح أو أدوات أو أركان، لأن الركن جزء من الماهية، والله تعالى هو الأَحَدُ الصمد... والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة، ودفع المضرّة. وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى. فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني، سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فكذلك يجب ألا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبت معنى فاسد، أو ينفى معنى صحيح، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحقّ والمبطل][2].

إن العقل البشري محدود الطاقة، يفكر بما توصلهُ الحواسُّ إليه، أو التجارب العملية أو القضايا الفكرية التي يستطيع أن يجول فيها بالقياس والموازنة... أما أن يدرك مَنْ ليس كمثله شيء بطريق القياس والمناقشة فهذا شيء مستحيل.

إن هذا العقل يستطيع أن يعي ما جاء في وصف الله في القرآن وصحيح السنة ويمر هذه الأوصاف مستمسكاً بقوله سبحانه ﴿ لَيْسَ كمثلِهِ شيء وهوَ السميعُ البصير ﴾ ويخطىء كل من يتجاوز هذا الحد من نحو نفي ما أثبت الله لنفسه، أو تجسيم أوصاف الله على المعهود من أحوال البشر والمخلوقات.

إنَّ على المفسر ألا يتعسف في شرح آيات الصفات وعليه ألا يحملها ما لا

(١) سورة يس: الآية ٧١.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ٢٤٠-٢٤٢.

تحمل ولا أن يعطل دلالة الألفاظ باللجوء إلى المجاز. إن علماء البلاغة عرفوا المجاز بأنه استعمال كلمة في غير معناها الحقيقي لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

فأين القرينة المانعة لإرادة المعنى الأصلي في آيات القرآن، وعقلنا لا يستطيع أن يجول في ذاك المجال، وربنا تبارك وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كمثلِهِ شيء وهُوَ السميعُ البصيرُ﴾ ففي ذلك اتباع للسلف، وإعمال لنصّ القرآن، واجتناب للتعسف، ومجاراة للمألوف من استعمال العرب للمجاز.

ومن أحسن ما قيل في تفسير آيات الصفات في القرآن الكريم كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله. قال:

[.. ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون، لا يتجاوز القرآن والحديث.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث. ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. ونعلم أنّ ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول، وأفصح الخلق في بيان العلم، وأفصح الخلق في البيان والتعريف، والدلالة والإرشاد. وهو سبحانه ــ مع ذلك ــ ليس كمثله شيء، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله.

فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزه عنه حقيقة، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه، واستلزامِ الحدوث سابقةَ العدم، ولافتقار المحدَث إلى محدِث ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى.

ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه،

كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا، ويحرّفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسماء الله وآياته][1].

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية أيضاً:

[.. ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة ــ من المتأولين لهذا الباب ــ في أمر مريج.

فإنَّ من أنكر الرؤية يزعم أن العقل يحيلها، وأنه مضطر فيها إلى التأويل.

ومن ينكر أنَّ لله علماً وقدرة وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك يقول: إن العقل أحال ذلك فاضطر إلى التأويل.

بل من ينكر حقيقة حشر الأجساد والأكل والشرب الحقيقي في الجنة يزعم أنَّ العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل.

ومن يزعم أن الله ليس فوق العرش يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل.

ويكفيك دليلاً على فساد قول هؤلاء أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل، بل منهم من يزعم أن العقل جوّد وأوجب ما يدّعي الآخر أنَّ العقل أحاله.

فيا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة؟ فرضي الله عن الامام مالك ابن أنس حيث قال: (أو كلما جاءنا رجل أجدلُ من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء). وكلٌ من هؤلاء مخصوم بما خصم به الآخر. وهو من وجوه:

أحدها: بيان أن العقل لا يحيل ذلك.

والثاني: أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل.

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٥/٢٦-٢٧.

والثالث: أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار، كما أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم رمضان، فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويل القرامطة والباطنية في الحج والصلاة والصوم وسائر ما جاءت به النبوات.

والرابع: أن يبيّن أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص، وان كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك التفصيل، وإنما يعلمه مجملاً إلى غير ذلك من الوجوه. على أنَّ الأساطين من هؤلاء الفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الالهية. وإذا كان هكذا فالواجب تلقي علم ذلك من النبوات، على ما هو عليه، ومن المعلوم للمؤمنين أنَّ الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، وأنه بيّن للناس ما أخبرهم به من أمور الايمان بالله واليوم الآخر. والايمان بالله واليوم الآخر يتضمن الايمان بالمبدأ والمعاد، وهو الايمان بالخلق والبعث، كما جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الناس مَنْ يقولُ آمنَّا بالله وباليوم الآخرِ وَمَا هُمْ بِمُؤمنين﴾[1] وقال تعالى: ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بعثُكُم إلاَّ كنفسٍ واحدةٍ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الذي يَبْدأ الخلقَ ثُمَّ يُعيده﴾[3].

وقد بيّن الله على لسان رسوله ﷺ من أمر الايمان بالله واليوم الآخر ما هدى الله به عباده، وكشف به مراده] ويتابع ابن تيمية كلامه فيقول: [ومعلوم للمؤمنين أن رسول الله ﷺ أعلم من غيره بذلك، وأنصح من غيره للأمة، وأفصح من غيره عبارة وبياناً، بل هو أعلم الخلق بذلك، وأنصح الخلق للأمة وأفصحهم... ومعلوم أن المتكلم أو الفاعل إذا كمل علمه وقدرته وإرادته كمل كلامه وفعله، وإنما يدخل النقص إما من نقص علمه وإما من عجزه عن بيان علمه، وإما لعدم إرادته البيان. والرسول هو الغاية في كمال العلم، والغاية في

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨.
(٢) سورة لقمان: الآية ٢٨.
(٣) سورة الروم: الآية ٢٧.

كمال إرادة البلاغ المبين، والغاية في قدرته على البلاغ المبين، ومع وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المراد، فعلم قطعاً أنّ ما بيَّنه من أمر الايمان بالله واليوم الآخر، حصل به مراده من البيان، وما أراده من البيان فهو مطابق لعلمه، وعلمه بذلك أكمل العلوم، فكل من ظن أن غير الرسول أعلم بهذا منه أو أكمل بياناً منه أو أحرص على هدى الخلق منه فهو من الملحدين لا من المؤمنين][1] انتهى كلام شيخ الاسلام، وهو في غاية الوضوح والقوة والحجة الملزمة في أنَّ علينا ونحن نفسر كتاب الله أن نثبت ما أثبت الله لنفسه ولا نؤول ولا نعطِّل ولا نمثِّل وأنه لو كان ما ذهب إليه المتأخرون في تأويل آيات الصفات صحيحاً لكان رسول الله، وهو المكلَّف بتبيين ما نزل إليه إلى الناس، لكان رسول الله سبقهم في توضيح ذلك فهو أعلم الخلق وأفصحهم وأنصحهم للمسلمين.

(١) الفتاوى ٥/٢٨-٣١.

الموضوعيّة في التفسير

من الأمور التي على المفسر أن يلتزم بها وأن يصدر عنها الموضوعية في شرحه وتفسيره فلا يقبل ما يسمعه إلا بدليل، ولا يردد ما شاع على الألسنة دون مناقشة ونظر، ولا يعتبر ما نشأ عليه وَلُقِّنَهُ في صغره حقيقة لا تقبل المراجعة.

إنَّ عليه أن يعرض ما يسمعه للبحث، وأن يناقش ما شاع على الألسنة بعقل يقظ وفكر مستنير، وأن يزن ما لُقِّنَهُ بميزان الشرع.

إنَّ عليه أن ينقّب ويبحث، ويفكر ويتأمل، وينظر إلى الأمر من جوانبه كلها... فإذا ثبتت صحة ما يسمع قبله وأخذ به، وإلا ردّه وألقاه مهما يكن الأمر. والأمثلة الآتية توضح هذا الكلام:

□ في كتاب الله آيات تقرر أحكاماً شرعية تعرف بآيات الأحكام، وفيه آيات تصف الله سبحانه بما هو أهله وتعرف بآيات الصفات.

وشاع بين كثير من المسلمين مذهب يقوم على تأويل آيات الصفات، فكان من أثر ذلك وقوع كثير من الناس من طلبة العلم المبتدئين في غلط ظاهر في الموازنة بين هذين النوعين من الآيات وخفي عليهم وجه الحق إذ يحسبون أنّ آيات الأحكام أوضح من آيات الصفات، وهذا خطأ بيّن، وقد انتبه إلى ذلك الامام ابن القيم فقال:

[تنازع الناس في كثير من الأحكام، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد. بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها.

وهذا يدل على أنه أعظم النوعين بياناً، وأن العناية بها أهم، لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد.

فبيّنها الله سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لَبْسٌ للراسخين في العلم.

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الصفات فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكُنْه والكيفية. ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله تعالى ﴿حتَّى يتبيَّنَ لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ (١) حتى بُيِّن لهم بقوله ﴿من الفجر﴾، ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله ﴿وإذَا سألَكَ عِبَادِي عنِّي فإنِّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداع إذا دَعَانِ﴾ (٢) الآية وغيرها من آيات الصفات.

وأيضاً فإن آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى: ﴿ففديةٌ مِنْ صيام أوْ صدقة أوْ نُسُك﴾ (٣) فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبيّنته السنة بأنه صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة.

ونظائره كثيرة كآية السرقة، وآية الصلاة، والزكاة، والحج.

وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج بل بيانها فيها، وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل] (٤).

وإليكم مثالاً آخر يوضح ضرورة التزام الموضوعية في التفسير:

تنطق آيات الكتاب الكريم بأنَّ اليهود أعداء لنا.. وتأتي أحداث التاريخ مصدقة لهاتيك الآيات، وتبتلى أمة الاسلام في العصر الحاضر باليهود الذين احتلوا بلداً عزيزاً من بلاد المسلمين، وقتلوا من قتلوا من أهله، ونكلوا بالنساء والشيوخ والأطفال من ساكنيه، وشرّدوا من شرّدوا من أبنائه.. وما زالوا يكيدون ويمكرون من نحو أربعين عاماً.

هذا الوضع الظالم الذي أدمى قلوب المسلمين في كل أرض ولا سيما أبناء

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٦.
(٤) مختصر الصواعق ٢١/١.

المنطقة المنكوبة جعل هؤلاء المظلومين.. ينسون أعداءهم إلا اليهود، وحملهم على أن يصبوا جام غضبهم على اليهود فقط دون سواهم.. ومثل هذا قد يقع للعامة الذين يغلبهم الانفعال والتأثر فلا يقوون على التفكير بغير ما هم فيه. ولكن العَالِمَ المتصدي لتفسير كتاب الله يجب أن يكون دقيق الحكم، شامل النظرة، مستحضراً للآيات كلها، وقّافاً عند حدودها.

إنّ اليهود أعداء لنا... هذا لا شك فيه، والآيات التي تقرر عداوتهم وكفرهم وكيدهم ولؤمهم كثيرة جداً، بل لقد ألّفَ مؤلفون في موقف القرآن من اليهود [1] كتباً عدة. فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿.. أفكُلَّما جَاءكُمْ رسول بِمَا لا تَهْوَى أنفسُكم استكبرتُم، ففريقاً كذَّبتُمْ وفَرِيقاً تَقْتُلونَ. وقالُوا قلوبُنا غُلْف بَل لَعَنهُم الله بكفرهم فقليلاً ما يُؤمِنُونَ. ولمّا جاءهُمْ كتاب مِنْ عند الله مصدقٌ لِمَا مَعَهُمْ وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الذينَ كَفَرُوا، فلمَّا جاءهُمْ ما عَرفُوا كَفَرُوا بِهِ فلعنةُ الله على الكَافرينَ بِئسَما اشتَرَوْا به أنفُسَهُمْ أنْ يكفُروا بما أنزَل الله بغياً أنْ ينزِّلَ الله من فضلِهِ على من يشاء من عبادِهِ فباؤوا بغضب على غضب وللكافرينَ عذابٌ مهينٌ. وإذا قيلَ لهم آمِنُوا بما أنزلَ الله قالوا: نؤمنُ بما أُنزلَ علَيْنَا ويكفرونَ بما وَرَاءهُ وهُوَ الحق مصدقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تقتلونَ أنبياء الله من قبلُ إنْ كُنتُم مؤمنين. وَلَقَدْ جَاءكُمْ موسى بالبيّناتِ ثم اتخذتُمُ العجلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتمْ ظالمونَ﴾ [2].

ومن هذه الآيات قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التوراةَ ثُمّ لم يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أسْفاراً بئسَ مَثَلُ القوم الذينَ كذَّبُوا بآيات الله والله لا يَهْدي القومَ الظالمينَ. قُلْ يا أيُّها الذينَ هَادُوا إنْ زعمتُمْ أنَّكُمْ أولياءُ للهِ مِنْ دونِ الناسِ فتمنَّوُا الموتَ إنْ كُنْتُم صَادقينَ. ولا يتمنَّوْنَهُ أبَداً بما قَدَّمَتْ أيديهم والله عليم

(١) أذكر من أولئك المؤلفين: عبد الكريم الخطيب ومحمد عزة دروزة وعفيف طبارة ومحمد سيد طنطاوي وعنوان كتابه «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» ويقع في جزئين طبع ١٩٦٨ في مصر.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٧-٩٢.

بالظالمينَ. قُلْ إنَّ الموتَ الذي تفرُّونَ مِنْهُ فإِنَّهُ مُلاقيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالم الغيبِ والشهادةِ فينبئكم بما كنتمْ تَعْمَلُون﴾[١].

والقرآن حق، وما ذكره عن اليهود حق، ولكن الشيء الذي يقع فيه العامة أنهم يرددون هذه الآيات وينسون آيات أخر ذكرت أعداء آخرين.. بل ربما يجاوز الأمر هذا الحد عند بعضهم فيقلبون الأعداء الآخرين إلى أصدقاء وهذا ما فعله نفر من الكتاب المعاصرين الذين جاملوا النصارى ودعوهم إخوانهم.

وما حملهم على ذلك إلا جرح الأمة الدامي مما لاقوا من اليهود عليهم لعنات الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وابتغاء استرضاء النصارى والتماس مناصرتهم. هذا مع أن ربّنا جلّ جلاله أيأسنا من ذلك بصريح قوله ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليهودُ ولا النصارى حتَّى تَتَّبعَ مِلَّتَهُمْ قلْ إنَّ هُدَى الله هُوَ الهُدى. وَلَئِنِ اتبعتَ أهواءهُمْ بَعْدَ الذي جَاءكَ مِنَ العلمِ مالكَ مِنَ الله من وليٍّ ولا نصيرٍ﴾[٢].

إنهم يستشهدون بآية يقطعونها عن سياقها وتتمتها يجاملون فيها النصارى. وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنُوا اليهودَ والذينَ أشرَكُوا ولتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلذين آمنُوا الذينَ قالُوا إنَّا نَصَارَى﴾[٣] ويقفون عند هذا الحد. ولا بد من قراءة الآية وما يتعلق بمعناها من الآيات اللاحقة. ولو أنهم تابعوا القراءة لوجدوا أن استشهادهم بها لا يحقق مطلوبهم. وتتمتها كما يأتي ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مودّةً للذينَ آمنُوا الذينَ قالُوا إنَّا نصارى ذلكَ بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وأنَّهم لايستكبرونَ. وإذا سمعُوا ما أُنزل إلى الرسول تَرَى أَعْيُنَهُمْ تفيضُ مِنَ الدمعِ ممَّا عَرَفُوا مِنَ الحق. يقولونَ: ربَّنا آمنَّا فاكتبْنا مَعَ الشاهدينَ وَمَالَنَا لا نُؤمنُ بالله وَمَا جَاءنا مِنَ الحق ونطمعُ أن يُدْخِلنا ربُّنا مَعَ القوم الصالحينَ. فأثابَهُمُ الله بِمَا قالُوا جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خَالِدِينَ فيها وذلك جَزاء المحسنينَ والذينَ

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٥-٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٢.

كفرُوا وكذَّبُوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيم﴾[١].

إنَّ هذه الآيات من سورة المائدة، وفي هذه السورة نفسها قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تتخذُوا اليهودَ والنَّصارَى أولياءَ بعضهم أولياءُ بعض. وَمَنْ يتولَّهُمْ مِنْكُم فإنَّه مِنهُمْ إنَّ الله لا يَهْدي القومَ الظالمينَ فَترى الذينَ في قُلوبهم مرضٌ يسارعونَ فيهم يقولونَ نَخْشَى أنْ تُصيبَنَا دائرة فَعَسَى الله أن يَأْتِيَ بالفَتْحِ أو أمرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أسرُّوا في أنْفُسِهم نَادمينَ﴾[٢].

وهاتان الآيتان بوضوح معناهما لا تحتاجان إلى تعليق ولنعد إلى الآية السابقة، ولنورد فهم بعض أئمة التفسير واللغة لها ﴿وَلتَجِدَنَّ أقربَهُمْ مَوَدَّةً لِلذينَ آمنُوا الذينَ قالوا إنا نَصَارى﴾.

ـ قال ابن كثير[٣]: [وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وإنَّ مِنْ أهْلِ الكتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وما أُنْزِلَ إليْكُمْ وما أُنْزِلَ إليهم خَاشعينَ لله لا يَشْتَرُون بآياتِ اللهِ ثَمناً قليلاً أولَـئك لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ إنَّ الله سريعُ الحسابِ﴾[٤] وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وإذا يُتْلَى عليهم قَالُوا آمنَّا بِهِ إنَّهُ الحق مِنْ رَبِّنَا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلمينَ. أولئكَ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُمْ مرتَيْن بما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بالحسنةِ السيئة ومِمَّا رزقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وإذَا سَمِعُوا اللغْوَ أعْرَضُوا عَنْهُ وقالُوا لَنَا أعْمَالُنا وَلَكُمْ أعمالكُم سلامٌ عليكُم لا نَبْتغي الجاهلينَ﴾[٥].

وقال سيّد قطب[٦]:

[ومع أنّ متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالاً للشك في أنها تصوّر حالة معيّنة

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢-٨٦.
(٢) سورة المائدة: الآية ٥١-٥٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٨٦/٢ (الطبعة المحققة ١٥٨/٣).
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩٩.
(٥) سورة القصص: الآية ٥٢-٥٥.
(٦) في ظلال القرآن ١١/٧-١٢.

هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعيّن فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة وموقف هذه المعسكرات منهم. لذلك نجد من الضروري أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص.

إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس قالوا: إنا نصارى، هم أقرب مودة للذين آمنوا ﴿ذلكَ بأنَّ منهم قسِّيسين ورُهباناً وأنَّهم لا يَسْتكبرونَ﴾. فهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبيّن لهم..

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد، ولا يدع الأمر معمماً على كل من قالوا: إنا نصارى إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعنيها:

﴿ وإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرسولِ تَرى أَعْيُنَهم تفيضُ مِنَ الدمعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحق، يَقُولُونَ ربَّنا آمنَّا، فاكتبْنا مَعَ الشاهدينَ. ومالَنا لا نُؤمِنُ باللهِ وما جاءنا من الحق ونطمعُ أن يُدْخِلَنا ربُّنا مَعَ القَوْمِ الصالحينَ﴾.

فهذا مشهد حيّ يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا. إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف. ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله والاحساس بما له من سلطان.. انهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً.. موقف القبول لهذا الحق والاذعان لسلطانه، وإعلان هذا الايمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة: ﴿ يقولونَ: ربَّنا

آمنَّا فاكتبْنا مَعَ الشاهدينَ ومالَنا لا نُؤمِنُ بالله وما جَاءنا من الحق ونطمعُ أنْ يُدْخِلَنَا ربُّنا مَعَ القوم الصالحينَ ﴾].

أرأيتم كيف أنّ البعد عن الموضوعية يورث تحريف كتاب الله وإخراج الآية عن دلالتها. ألا فَلْيُنَحِّ العالم المتقي الذي يتصدى للتفسير، ليُنَحِّ جانباً كل المجاملات والمسايرات والأفكار الشائعة، وليعتمد في شرحه للآيات على ما تدله عليه هاتيك الآيات من المعاني، وليرض من يرضى وليغضب من يغضب. إن القرآن كلام الله، والأمانة تقتضي العالم أن يكون دقيقاً في شرحه وتفسيره وهذا هو الذي عنيناه بالموضوعية في التفسير.

ذكرنا أنّ على المفسر أن يتجه بعد استكمال أدواته العلمية إلى كتاب الله يستنطقه ويحل حلاله ويحرم حرامه ويلتزم ذلك بكل موضوعية بعيداً عن التأثر بما يشيع بين الناس، وضربنا على ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ ويقفون بالسامع عند هذا.. مع أن الآية خاصة بقوم من النصارى أسلموا وقبلوا الحق وأذعنوا لسلطانه قائلين ﴿ ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ وليست شاملة لكل النصارى. يقول الأستاذ سيد قطب[(١)]:

[إنهم يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه، ثم يدعونه سبحانه أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق، وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض.. الأمة المسلمة التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر.. فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة، ويُشهدون ربّهم على إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة، ويدعونه سبحانه أن يكتبهم في سجلها.. ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوّقهم معوّق عن الايمان بالله، أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، وأن لا يأملوا بهذا الايمان أن يقبلهم ربهم ويرفع مقامهم عنده، فيدخلهم مع القوم الصالحين: ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع

(١) في ظلال القرآن ١٢/٧.

أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق.. موقف الاستماع والمعرفة، ثم التأثر الغامر والايمان الجاهر، ثم الاسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة، مع دعاء الله سبحانه أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق؛ الذين يؤدون شهادتهم سلوكاً وعملاً وجهاداً لإقراره في الأرض، والتمكين له في حياة الناس. ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحده بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد: هو طريق الايمان بالله، وبالحق الذي أنزله على رسوله، والأمل ــ بعد ذلك ــ في القبول عنده والرضوان.

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا: إنا نصارى، وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله إلى الرسول ﷺ من الحق، وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح، بالإيمان المعلن، والانضمام إلى الصف المسلم، والاستعداد لأداء الشهادة بالنفس والجهد والمال، والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو، مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين.. لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا، بل يتابع خطاه لتكملة الصورة، ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلاً ﴿فَأَثَابَهُمُ الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾... لقد علم الله منهم هذا كله فقبل منهم قولهم، وكتب لهم الجنة جزاء لهم وشهد لهم سبحانه بأنهم محسنون وبأنه يجزيهم جزاء المحسنين...

والله جل جلاله قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين...

هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه، بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للاسلام والانضمام للصف المسلم، والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة، وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينها وهو فريق عَلِمَ الله منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين.

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد في تحديد ملامح هذا الفريق

المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا. بل إنه ليمضي فيميّزه من الفريق الآخر من الذين قالوا إنا نصارى ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون ولا يستجيبون له، ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ والمقصود قطعاً بالذين كفروا وكذبوا في هذا الموضع هم الذين يسمعون من الذين قالوا إنا نصارى ثم لا يستجيبون.

وليس كل من قالوا: إنهم نصارى إذن داخلين في قوله تعالى: ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها... إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضاً ولا ملامحها مجهلة ولا موقفها ملتبساً بموقف سواها في كثير ولا قليل].

[وقد وردت في هذه السورة نفسها نصوص وتقريرات تحدد معنى هذا النص منها قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ كذلك جاء في سورة البقرة ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لَكَ من الله من ولي ولا نصير ﴾[1]].

وهكذا فإن المفسر عليه أن يفهم الآية بجانب الآيات الأخرى.. إننا عندما نفسر آية ﴿ ولتجدن أقربهم مودة ﴾ على النحو الذي أسلفنا نكون قد أخذنا بآيات الكتاب كلها.. وكلّما تلوت قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ بدت لي نواحٍ من الاعجاز جديدة. كأنما الآية تتحدث عن واقع قائم الآن: من الذي جاء باليهود إلى فلسطين بعد أن أعطاهم وعداً بإقامة وطن قومي لهم فيها؟ من الذي أمدَّ اليهود بالسلاح والعون والتأييد؟ من الذي جعل حق النقض في مجلس الأمن من نصيب دولة اليهود؟ أليسوا هم النصارى؟ بلى والله. فكيف يمكن أن يكون هؤلاء أقرب الناس مودة

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

للذين آمنوا؟ إن المراد قطعاً في هذه الآية طائفة منهم آمنت بالله ورسوله واستقامت على هذا الإيمان.

هذا وقد وقفت على كلام نفيس للجاحظ في الآية التي ضربناها مثلاً على أنَّ الموضوعية في التفسير تجنبنا الوقوع في الغلط في فهم الكتاب الكريم وهي قوله تعالى: ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ يقول الجاحظ[1]:

[وأمر آخر.. وهو تأويل غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى واحتجت واستمالت قلوب الرعاع والسفلة وهو قول الله تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذي أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى.. ﴾.

وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يَعْنِ هؤلاء النصارى ولا أشباههم الملكانية واليعقوبية، وإنما عنى ضرب بحيرا وضرب الرهبان الذين يخدمهم سلمان].

ثم يقول[2]:

[على أن هذه الأمة لم تُبْتَلَ باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى. وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف بالاسناد من روايتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يَخْلُونَ بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا] ثم ذكر[3] أن الزندقة وكتب الضلال ما جاءت إلى أبناء أمتنا إلا على أيدي متكلّميهم وأطبائهم ومنجّميهم.

أقول: والجاحظ عالم وأديب من رجال القرن الثالث وهو متوفى سنة ٢٥٥ هـ، وقد حفلت أيام التاريخ التي جاءت بعده بأحداث فظيعة.. كالحروب الصليبية

---

(١) رسالة الرد على النصارى ص ١٤.
(٢) رسالة الرد على النصارى ص ١٩.
(٣) رسالة الرد على النصارى ص ٢٠.

التي استمرت قرابة مائتي عام.. أهلكت في ديارنا الحرث والنسل، ونشرت في دنيانا المآسي والفساد.. وكحروب الاستعمار الوحشية الحديثة التي ما تزال آثارها شاهدة للعيان.

يقول سيد قطب[1]:

[كذلك صدّق الواقع التاريخيّ ما حَذَّرَ الله الأمة المسلمة إياه من اليهود ومن النصارى سواء. وإذا كان الواقع التاريخيّ قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للاسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الاسلام عليهم المدينة، في صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة، وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الاسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم.. فإنَّ هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الاسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ــ فيما عدا الحالات التي وقع فيها ما تصفه الآيات الذي نحن بصددها، فاستجابت قلوب للاسلام ودخلت فيه. وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الاسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك؛ يلاقون من ظلمها الوبال ــ أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يَخْبُ أوارها قط، إلا في الظاهر، منذ التقى الاسلام والرومان على ضفاف اليرموك!

لقد تجلّت أحقاد الصليبية على الاسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان. كما تجلّت في حروب الإبادة التي شنّتها الصليبية على الاسلام والمسلمين في الأندلس، ثم في حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الاسلامية في أفريقية أولاً، ثم في العالم كله أخيراً. ولقد ظلّت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الاسلام ــ على كل ما بينهما من أحقاد ــ ولكنهم كانوا في حربهم للاسلام كما قال عنهم العليم الخبير ﴿ بعضهم أولياء بعض﴾ حتى مزّقوا دولة الخلافة الأخيرة. ثم مضوا في طريقهم ينقضون هذا الدين

(١) الظلال ١٧/٧ وما بعدها.

عروة عروة. وبعد أن أجهزوا على عروة (الحكم) ها هم أُولاء يحاولون الإجهاز على عروة (الصلاة).

وها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين. فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الاسلام عن طريق المساعدات المباشرة تارة، وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تارة أخرى... وذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء الاسلامية في كل مكان على وجه الأرض. وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة، ودق الطبول من حولهم، ليستطيعوا الإجهاز على الاسلام، في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال].

ثم قال الأستاذ سيد[1]: [هذا موجز سريع لما سجّله الواقع التاريخي طوال أربعة عشر قرناً من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الاسلام، لا فرق بين هذه وتلك، ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للاسلام والحقد عليه، والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمان.

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغداً، فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة، التي تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآن — **دون** متابعة لبقيته، **ودون** متابعة لسياق السورة كله، **ودون** متابعة لتقريرات القرآن عامة، **ودون** متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله — ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد، وتبيّت لهم الكيد، الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها، وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة.

إنّ هذه المعسكرات لا تخش شيئاً أكثر مما تخشى من الوعي في قلوب العصبة المؤمنة — مهما قلّ عددها وعدتها — فالذين ينيمون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة. وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة، ولكن ضررهم لا يقل حينئذ عن ضرر أعدى الأعداء، بل إنه ليكون أشد أذى وضراً.. إن هذا القرآن يهدي

(١) في ظلال القرآن ١٩/٧.

للتي هي أقوم، وهو لا يناقض بعضه بعضاً، فلنقرأه إذن على بصيرة] انتهى كلام سيّد قطب وقد أحسن وأجاد، رحمه الله رحمة واسعة. وأود أن أضيف أن كثيراً من بلاد المسلمين ما عرفت الأفكار الهدامة ولا تيارات الكفر إلا عن طريق النصارى المقيمين بين ظهرانيها، ولم يظهر السفور والحسور والتبرج إلا بسببهم.. إنَّ ذلك كله ليبيّن الخطأ الذي يقع فيه بعض الكتّاب المعاصرين من تهوين خطر النصارى بسبب بيانهم خطر اليهود.. إن الكفر كله ملة واحدة وإن بعضهم أولياء بعض. فلا ينبغي أن ننساق إلى الغلط بتغيير الحقائق التي وردت في كتاب الله.

والآية المذكورة وموقف بعض الناس منها يذكرنا بقاعدة بديهية في أصول التفسير سبق أن قررناها وهي أنه لا بد في تفسير القرآن من أن يقرأ المفسر الآية مع سباقها وسياقها وأن يقرنها بنظائرها.

أما أولئك الذين يقتصرون على إيراد جزء من الآية ــ ليقرروا معنى يريدونه ــ فهم مخطئون محرِّفون للكلم عن مواضعه.

التفسير المنشود

إنَّ مباحث علم أصول التفسير التي عرضنا جانباً منها في الصفحات السابقة ترمي إلى تصحيح مسار المشتغلين في هذا العلم الجليل، وقد يكون نشرها معيناً على تحقيق هذا الغرض.

إن المسلمين اليوم وهم في بداية يقظة وصحوة محتاجون إلى من يقرّب لهم مناهج الحق وسبل الخير التي جاءت في الكتاب الكريم، ومحتاجون إلى معرفة معالم الهداية التي قررها كتاب الله.. فهم بحاجة إلى تفسيرٍ يَسيرُ مؤلفه على نهج مستقيم رشيد.

إنهم بحاجة إلى تفسير يتجنّب الجدل الفلسفي، والمماحكات الكلامية، وينأى عن ذكر الأمور الافتراضية التي أولع بها بعض الفقهاء، يتخيّلون حالات ربما لا تقع، ويذكرون لها الحكم الشرعي. بل يقتصر على ذكر الأحكام الفقهية التي يدل عليها ظاهر النصّ دون تحيز إلى مذهب وتعصب. وينبغي أن يكون ذلك بإيجاز مناسب.

وهذا التفسير المنشود ينبغي أن يراعي موضوع الهداية والعقيدة ويبتعد عن المصطلحات النحوية والبلاغية إلاَّ ما دعت إليه الضرورة، ولا مانع أن يستفيد من العلوم الحديثة وما توصلت إليه من الحقائق القطعية التي ثبتت دون أن يكون هناك تكلّف في تحميل النص ما لا يحمل.

ولا بُدّ من ربط الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة، لأنَّ لكل سورة موضوعاً رئيسياً تدور حوله آياتها، وهذا موضوع عني به العلماء قديماً وحديثاً، وما زال بحاجة إلى مزيد من البحث والعناية. ونذكر من هؤلاء العلماء المتأخرين سيد قطب في ظلال القرآن[1] ويساعد على الوصول إلى هذا المقصد اتباع المنهج

(١) وسبقه من المتأخرين د. محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم.

المتكامل في التفسير الذي يأخذ من مناهج التفسير المعروفة ما يرى أنه متصل بموضوع الكتاب، ويحتكم أبداً إلى نصّ القرآن ويراعي هدفه الذي سعى إلى تحقيقه.

ومن الأمور التي أرى أنها مفيدة أن تكتب مقدمة لكل سورة تحوي أهم مقاصدها وتحدد موضوعها الرئيسي.

والطريقة المُثلى في إيراد الآيات أن يذكر نص الآيات المترابطة والتي تدور حول فكرة معينة، ثم تفسر المفردات اللغوية مع مراعاة دوران الكلمة في القرآن دون اسراف في سرد الآيات ودون تفصيل في الشرح، فهذه الطريقة تحدد المراد من هذه الكلمة بحكم السياق، ولا يلزم من هذا أن يكون هذا المعنى متعيناً في كل المواضع، فقد تدل الكلمة على معنى في موضع وتدل على معنى آخر في موضع آخر، وسياق الآية هو الذي يحكم في الموضوع.

ومن ذلك كلمتا (المحكم) و (المتشابه).

قال تعالى: ﴿ كتابٌ أُحكمت آياته ثم فُصِّلَت من لَدُنْ حكيم خبير﴾[1] أي أحكمت في النظم والرصف وقال: ﴿ الله نَزَّلَ أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[2] أي يشبه بعضه بعضاً في الهداية والبلاغة والسلامة من التناقض ويصدق بعضه بعضاً، وهاتان الكلمتان وردتا على أنهما وصف للقرآن كله بينما تدل آية آل عمران على معنى آخر للمحكم والتشابه وهي قوله تعالى: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أُمُّ الكتاب وأخر متشابهات﴾[3]. فهذه الآية تدل على أن بعض القرآن محكم وبعضه متشابه.

---

(١) سورة هود: الآية ١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

ومن ذلك أيضاً كلمة المحصنات [1] التي دلت على معان عدة من أهمها:

المتزوجات نحو قوله سبحانه: ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ [2] والحرائر نحو قوله سبحانه: ﴿اليوم أَحَلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ [3].

والعفيفات نحو قوله سبحانه: ﴿ محصنات غير مسافحات﴾.

وقد أسرف بعض المحدثين [4] في استخدام هذه الطريقة حتى فقدت مهمتها وأضحت تحجب عن القارىء جمال أسلوب القرآن وتغرقه في جولات لغوية بعيدة عن جو القرآن.

ومن الأمور النافعة في التفسير ذكر أسباب النزول إنْ وردت بإسناد صحيح، وعلى المفسر أن ينتبه إلى هذا؛ لأن الأحاديث الواردة في أسباب النزول مختلفة الدرجات وفيها كثير من الأحاديث الواهية والموضوعة. ولا بُدَّ من تنقية التفسير المنشود من أية إسرائيلية مهما كان نصيبها من الصحة، وقد أثار استغرابي وتعجبي أن بعض المؤلفين المعاصرين كتبوا تفسيراً أشاروا في مقدمته إلى أنه ينبغي أن تتجنب الاسرائيليات والخرافات [5] ومع ذلك فقد التزموا أن يشيروا إلى مواضع ذكر القصة القرآنية في الكتاب الذي يقدسه النصارى [6]. وكذلك فإن الاشارات الصوفية والرموز الباطنية يجب أن تنحى عن هذا التفسير. وما أجمل كلمة أبي حيان حيث قال: [وربما ألممت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحمّلونها الألفاظ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه

---

(١) القرطبي ٥/١٢٠ و٣/٦٩ و٦/٧٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥.

(٤) وهي بنت الشاطىء في كتابها التفسير البياني.

(٥) انظر التفسير الوسيط ١٣.

(٦) انظر التفسير الوسيط ١/٤٢٦ عند ذكر قصة داود وجالوت.

على الله تعالى وعلى عليّ كرم الله وجهه وعلى ذرّيته ويسمونه علم التأويل] [1].

وهناك أمور أخرى أشرنا إليها ولعلّ أهمها أن ينظر إلى القرآن على أنه كتاب دعوة وهداية وتنفيذ وعمل كما كان ينظر السلف إليه رحمهم الله.

(١) البحر المحيط ١/٥.

مَنَاهج التفسير وأصول التفسير

مناهج التفسير موضوع قائم بذاته أُلِّفَتْ فيه المؤلفات، وبعضها في أجزاء ومجلدات. والبحث فيها مفصلاً ليس من موضوعات هذا العلم المبارك، ولذا فلن نفصل القول فيها في هذه البحوث المقصورة على أصول التفسير.

ومما يستطرف أنني علمت أنَّ أحد العلماء، وقد نسيت اسمه، ألقى محاضرة في أصول التفسير وأن هذه المحاضرة سجلت في شريط، وكنت أجمع كل ما قيل وكتب في هذا الموضوع، فما زلت أسعى في الحصول على ذاك الشريط حتى ظفرت به، وكنت مسروراً جداً لهذا التوفيق، واستمعت إليه في شغف، فإذا محاضرته في اتجاهات التفسير ومناهجه، وهي محاضرة قَيِّمة فيها علم جم، ولكنَّها ليست في الموضوع المطلوب.

وما ذكرت المناهج ههنا إلا لأُبَيِّنَ أن المطلوب بحثه في أصول التفسير من تلك المناهج هو ذكر المنهج الأصلح والاتجاه الأسلم، وذكر أصوله وقواعده، ومصادره ومراجعه، وضوابطه وأسلوبه. وهذا هو الذي حاولنا أن نفعله في هذه البحوث.

هذا وقد ألممت في كتابي «لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير» بذكر خمسة اتجاهات للتفسير هي الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن، والتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، والتفسير العلمي، والتفسير الاصلاحي الاجتماعي، وأشرت إلى اتجاهات أخرى كالتفسير الموضوعي، والتفسير الفقهي، والتفسير الاشاري.

والذي أريد تقريره ههنا هو أنَّ اطّلاع المفسر على مناهج التفسير أمرٌ مهم وضروري ليؤدي مهمته على الوجه الأكمل، وذلك لأمرين:

□ أما أولها فَلِكَيْ يجتنب المنهج المنحرف، والاتجاه الفاسد، وليكون على حذر

واع تام ممّا يمكن أن يقف عليه إذا رجع إلى كتب ذاك الاتجاه.

□ وأما ثانيها فلكي يفيد من الأمور النافعة في هذه الاتجاهات إذا أراد أن يكتب في التفسير، ذلك لأن كل اتجاه من تلك الاتجاهات لا يخلو من جوانب إيجابية، بإبرازها أمراً وتسليط الضوء عليه، وهذا ملموس حتى في النظريات المخالفة إذ ربما ألَحَّتْ على أمر وأبرزت قيمته، ويكون لذلك نفع ملموس، بينما لا تعبأ الاتجاهات الأخرى به ولا تعطيه شيئاً من الاهتمام.

والمنصف الواعي المتين في دينه وعلمه يستفيد كثيراً من خصومه وأفكارهم فيتنبه إلى أمور ما كان له أن يتنبه لها لولا إلحاح الآخرين المنحرفين عليها.

إنّ تقويمنا ينبغي أن يكون عادلاً، فإذا تعرضنا إلى منهج منحرف علينا أن نذكر ما يمكن أن يكون فيه من حق.

فإذا اطّلع من يتصدى للتفسير على هذه الاتجاهات المختلفة وعرف الجوانب الايجابية فيها استطاع أن يفيد منها في عمله. ولنضرب مثلاً يجلو هذه الفكرة:

إنّ اتخاذ القرآن وسيلة للإعراب وتطبيق آراء النحاة وإطاراً لمناقشة أقوالهم وردّ بعضها والدفاع عن بعضها منهج ليس سليماً إذ هو يغرق القارىء في كتبه بهذا البحوث ويصرفه عن جوّ الآيات الكريمة وما حوته من موعظة وهداية وتذكير. ولكن معرفة خصائص هذا الاتجاه يمكن أن تفيد المفسر إذا واجهته آية يتوقف فهم معناها على الإعراب.. فإذا رجع إلى هذه المراجع التي تشبع هذا الموضوع بحثاً وقف على بغيته وأفاد.

وكذلك شأن الكتب الأخرى.

إن على من يريد أن يتصدى لتفسير القرآن أن يحيط علماً بهذه المناهج المختلفة في التفسير ويعرف محاسن كل منها والمآخذ عليه.

عُلوم القرآن وأصُول التفسير

ذكرت في هذه البحوث أهمية معرفة علوم القرآن للمفسر وأحبُّ هنا أن أشير أن أهم العلوم التي يجب أن يعرفها المفسر علم الناسخ والمنسوخ من القرآن، والمكي والمدني، والمُحكَم والمتشابه.

وسأقتصر هنا على ذكر الموضوع الأول وهو النسخ، وأرد القراء الكرام إلى الرجوع إلى كتب علوم القرآن وخاصة كتابي «لمحات في علوم القرآن» بالنسبة إلى الموضوعين الأخرين.

□ لم يكن يسمح لمن لم يعرف الناسخ من المنسوخ أن يدرس أو يتحدث أو يعظ في الناس.

وقد نقل ذلك عن علي وابن عباس رضي الله عنهما، فقد دخل علي بن أبي طالب المسجد فاذا رجل يعظ الناس ويخوفهم. فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس. فأرسل إليه: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه. وفي رواية أنه قال له: هلكت وأهلكت. ويروى الخبر نفسه عن ابن عباس[1].

وقد ألفت فيه كتب عدة، منها ما كان خاصاً بالقرآن، ومنها ما كان خاصاً بالسنة، ومنها ما كان شاملاً. قال السيوطي: أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو داود السجستاني وأبو جعفر النحاس وابن الأنباري ومكي وابن العربي وآخرون[2].

---

(١) انظر «تحذير الخواص» ٢٤١ والاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار ٦ وتفسير القرطبي ٢/٦٢ والعلم لزهير بن حرب ١٤٠ والفقيه والمتفقه ١/٨٠.

(٢) انظر الاتقان ٢/٢٠ وكشف الظنون ٢/١٩٢٠.

وموضوع النسخ موضوع أصولي ذكرته كتب الأصول، وسأورد فيما يلي تعريفاً له وسأذكر أهم النقاط الرئيسية فيه:

أما تعريفه فهو كما ذكر الغزالي في «المستصفى»[1]:

الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه.

وَعَرَّفَهُ عبد الوهاب خلاّف: بأنه إبطال العمل بالحكم الشرعي بدليل متراخ عنه يدل على إبطاله صراحة أو ضمناً إبطالاً كلّياً أو إبطالاً جزئياً لمصلحة اقتضته[2].

[حكمته:[3] وهذا النسخ وقع في التشريع الالهي، **لأن** المقصود من التشريع تحقيق مصالح الناس، ومصالح الناس قد تتغير بتغير أحوالهم، والحكم قد يشرع لتحقيق مصالح اقتضتها أسباب، فإذا زالت هذه الأسباب فلا مصلحة في بقاء الحكم. **ولأن** عدالة التشريع تقتضي التدرج وعدم مفاجأة من يشرع لهم بما يشق عليهم فعله، وما يشق عليهم تركه، وهذا التدرج يقتضي التعديل والتبديل، كما وقع في حكم الخمر، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يشرع تحريمها في ابتداء التشريع، ولكن بيّن سبحانه أن فيها إثماً كبيراً، ومنافع للناس، وأن إثمها أكبر من نفعها، وكان هذا تهيئة وتمهيداً إلى تحريمها؛ لأن الذي ضرره أكبر من نفعه يجدر بالعاقل أن يجتنبه، ثم أمر المسلمين أن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى، فكان هذا تمهيداً ثانياً لتحريمها واجتنابها، لأن أوقات الصلاة متعددة ومتفرقة، فلا يأمن المسلمون إذا شربوها أن يدخل عليهم وقت الصلاة وهم سكارى، ثم بعد ذلك جاء النص الصريح على أنها رجس من عمل الشيطان والأمر باجتنابها.

وكذلك نظام التوريث، بقي فترة في بدء الإسلام على ما كان عليه عند

(١) المستصفى طبعة بولاق ١٠٧/١.

(٢) علم أصول الفقه ص ٢٢٢ ط ١٥ نشر دار القلم بالكويت.

(٣) هذا الكلام مأخوذ بشيء من التصرف من كتاب «علم أصول الفقه» لعبد الوهاب خلاّف رحمه الله من ص ٢٢٢ حتى ص ٢٢٥.

العرب في جاهليتهم، ثم أخذ الإسلام في تعديله بالتدريج، فنسخ أولاً الإرث بالتبني، ثم نسخ الإرث بالتحالف والتآخي، ثم شرعت للتوريث أحكام مفصّلة، هدمت الأسس الجائرة التي كان عليها أهل الجاهلية في نظام توريثهم.

أنواعه:. ــ قد يكون النسخ صريحاً وقد يكون ضمنياً.

□ فالنسخ الصريح أن ينصّ الشارع صراحة في تشريعه اللاحق على إبطال تشريعه السابق. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها النبيُّ حرِّضِ المؤمنينَ على القتالِ إنْ يكنْ منكمْ عِشْرُونَ صابرونَ يَغْلِبُوا مائتينِ، وإنْ يكنْ منكمْ مائةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الذينَ كَفَرُوا بأنَّهُمْ قومٌ لا يفقهونَ. الآنَ خفَّفَ الله عنكمْ وَعَلِمَ أنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فإنْ يكُنْ منكمْ مائةٌ صابرةٌ يَغْلِبُوا مائتينِ وإنْ يكنْ منكمْ ألفٌ يَغْلِبُوا ألفينِ بإذنِ الله، واللهُ مَعَ الصابرينَ ﴾(١).

□ وأما النسخ الضمني فهو أن لا ينص الشارع صراحة في تشريعه اللاحق على إبطال تشريعه السابق، ولكن يشرع حكماً معارضاً حكمه السابق، ولا يمكن التوفيق بين الحكمين إلا بالغاء أحدهما، فيعتبر اللاحق ناسخاً للسابق ضمناً.

فقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم إذَا حَضَرَ أَحَدَكُم الموتُ ــ إنْ تَرَكَ خيراً ــ الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ بالمعروفِ حقّاً على المتقينَ ﴾(٢).

يدل على أن المالك إذا حضرته الوفاة عليه أن يوصي لوالديه وأقاربه من تركته بالمعروف. وقوله تعالى في آية التوريث: ﴿ يُوصيكُم الله في أولادِكُمْ للذَّكَر مثلُ حَظّ الأُنْثَيَيْن. فإنْ كنَّ نساء فوقَ اثنتينِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ وإنْ كانَتْ واحدة فلها النصفُ ولأبويهِ لكلِّ واحدٍ منهما السدسُ ممَّا تَرَكَ إنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ. فإنْ لم يكنْ لَهُ ولدٌ وَوَرِثَهُ أبواهُ فلأمِّهِ الثلثُ. فإنْ كانَ لهُ إخوةٌ فلأمِّهِ السدسُ من بعدِ وصيةٍ يوصي بها أودينٍ. آباؤكم وأبناؤكم لا تَدْرُونَ أيُّهُمْ أقربُ لكم نَفْعاً فَريضةً مِنَ الله إنَّ الله

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٥-٦٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

كانَ عليماً حكيماً ﴾[1] يدل على أن الله قسَّم تركة كل مالك بين ورثته حسبما اقتضت حكمته، ولم يعد التقسيم حقاً للمورث نفسه. وهذا الحكم يعارض الأول، فهو ناسخ له على رأي الجمهور. ولذا قال الرسول ﷺ بعدما نزلت آية المواريث «إن الله أعطى لكل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

ــ وقد يكون النسخ كلّياً وقد يكون جزئياً.

▫ فالنسخ الكلّي أن يبطل الشارع حكماً شرعه من قبل إبطالاً كلياً بالنسبة إلى كل فرد من أفراد المكلفين، كما أبطل إيجاب الوصية للوالدين والأقربين بتشريع أحكام التوريث، ومنع الوصية للوارث.

وكما أبطل اعتداد المتوفى عنها زوجها حولاً باعتدادها أربعة أشهر وعشراً فقد قال تعالى: ﴿ والذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأزواجِهم مَتاعاً إلى الحَوْلِ غَيْر إخراجٍ. فإنْ خَرَجْنَ فلا جُنَاحَ عليكم فيما فَعَلْنَ في أنفسِهنَّ من معروفٍ والله عزيزٌ حكيمٌ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ والذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكمْ ويذرونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بأنفسهنَّ أربعة أشهرٍ وَعَشراً، فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فلا جُنَاحَ عليكم فيما فَعَلْنَ في أنفسهنَّ بالمعروفِ والله بما تعلمونَ خبيرٌ ﴾[3].

▫ والنسخ الجزئي أن يُشْرَعَ الحكمُ عاماً شاملاً كل فرد من أفراد المكلفين، ثم يلغى هذا الحكم بالنسبة لبعض الأفراد. أو يُشْرَع الحكم مطلقاً ثم يلغى بالنسبة لبعض الحالات.

فالنص الناسخ لا يُبْطِلُ العمل بالحكم الأول أصلاً، ولكن يبطله بالنسبة لبعض الأفراد أو بعض الحالات. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ والذينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يأتُوا بأربعةِ شُهَداءَ فاجْلِدُوهُمْ ثمانينَ جَلْدَة.... ﴾[4] يدل على أن قاذف المحصنة الذي لم يقم بينة على ما قذف به يجلد ثمانين جلدة سواء كان

---

(١) سورة النساء: الآية ١١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

(٤) سورة النور: الآية ٤.

زوجها أم غيره.

وقوله تعالى: ﴿ والذينَ يَرْمُونَ أزواجَهُمْ وَلَمْ يكُنْ لَهُمْ شهداءُ إلا أنفسُهم فشاهدةُ أحدِهم أربعُ شهاداتٍ بالله إنَّه لَمِنَ الصادقِينَ والخامسةُ أنَّ لعنةَ الله عَلَيْهِ إنْ كانَ مِنَ الكاذبينَ ﴾[1] يدل على أنَّ القاذف إذا كان الزوج لا يجلد بل يتلاعن وزوجته. فالنصُّ الثاني نسخ حكم جلد القذف بالنسبة إلى الأزواج فقط.

وقد يكون النسخ بتشريع حكم بَدَلَ حُكْمٍ، كما رأينا في الأمثلة السابقة، وقد يكون النسخ بمجرّد إلغاء الحكم كنسخ زواج المتعة].

وليعلم المفسر أن هناك نصوصاً لا تقبل النسخ وقد ذكرها العلماء وحصروها بأنواع ثلاثة وهي:

أولاً: النصوص التي تضمنت أحكاماً أساسية لا تختلف باختلاف أحوال الناس، ولا تختلف حسناً وقبحاً باختلاف التقدير **كالنصوص** التي تضمنت إيجاب الايمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وَبِرِّ الوالدين والصدق والعدل.

وكالنصوص التي دلت على أسس الرذائل من الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق وعقوق الوالدين والكذب والظلم.

وثانياً: النصوص التي تضمنت أحكاماً وَدَلَّتْ بصيغتها على تأبيدها.

وثالثاً: النصوص التي دلت على وقائع وقعت، وأخبرت عن حادثات كانت كقوله تعالى: ﴿ فأمّا ثمودُ فَأُهلِكَتْ بالطَّاغِيةِ ﴾[2] وواضح أنه لا نسخ بعد وفاة الرسول ﷺ إذ انقطع الوحي بوفاته والنسخ لا بد أن يكون وحياً. ومثل النسخ العلوم الأخرى من علوم القرآن. إنَّ إدراك المفسر لهذه الأمور يمكّنه من أن يقوم بالمهمة العظمى على الوجه الأقرب للكمال.

---

(١) سورة النور: الآية ٦-٧.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٥.

خـاتمـة

وَبَعْـد فهذه بحوث تتصل بأصول التفسير لا تخص المفسرين وحدهم بل إن استيعابها ومعرفتها تفيد كل من يريد أن يتدبر كتاب الله.

وإني لأرجو أن ينفع الله بها وأن يغفر لي ما صدر مِنْ خطأ أو وَهْمٍ وأن يجعل أعمالي خالصة له سبحانه. وأن يختم لي بالحسنى ويكرمني بالمغفرة والرضوان والجنة، وأن يغفر لوالديّ وأن يرحمهما كما ربّياني صغيراً، والحمد لله رب العالمين.

مراجع الكتاب

- أبو داود: حياته وسننه ــ محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الاسلامي سنة ١٤٠٥.
- الإتقان في علوم القرآن ــ عبد الرحمن السيوطي ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م).
- أحاديث القصاص ــ ابن تيمية ــ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت.
- الإحكام في أصول الأحكام ــ علي بن محمد الآمدي ــ تعليق عبد الرزاق عفيفي ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت سنة ١٤٠٢.
- الإحكام ــ ابن حزم. مكتبة الخانجي، ط ١- ١٣٤٥ هـ، مصر.
- إحياء علوم الدين ــ أبو حامد الغزالي ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م).
- إرشاد الفحول ــ الشوكاني. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ مصر سنة ١٣٥٦ (١٩٣٧).
- أساس البلاغة ــ محمود بن عمر الزمخشري ــ مطبعة أولاد أورفاند بمصر سنة ١٣٧٢ (١٩٥٣ م).
- أسباب النزول ــ عبد الرحمن السيوطي (أنظر: لباب النقول في أسباب النزول).
- أسباب النزول ــ علي بن أحمد الواحدي ــ بمصر سنة ١٣١٦ هـ.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب ــ ابن عبد البر ــ مطبوع أسفل «الاصابة» ــ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٨ هـ.
- أسرار البلاغة ــ عبد القاهر الجرجاني ــ تعليق محمد رشيد رضا ــ سنة ١٣٧٩ (١٩٥٩ م).

■ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ــ ملا علي القاري ــ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت.
■ الاسلام على مفترق الطرق ــ محمد أسد ــ ترجمة فروخ والخالدي ــ دار العلم للملايين ــ بيروت.
■ أسواق العرب ــ سعيد الأفغاني. ط ٢- ١٩٦٠، دمشق.
■ الأشباه والنظائر ــ ابن نجيم.
■ الأشباه والنظائر ــ عبد الرحمن السيوطي. مطبعة مصطفى محمد ــ مصر ١٣٥٩ هـ.
■ الإصابة في تمييز الصحابة ــ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ــ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩).
■ أصول الفقه ــ عبد الوهاب خلاف ــ مطبعة النصر سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦م).
■ أصول الفقه ــ محمد أبو زهرة ــ مطبعة مخيمر سنة ١٩٥٧ م.
■ أصول الفقه ــ محمد الخضري ــ مطبعة السعادة الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م).
■ أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ــ محمد الأمين الشنقيطي ــ مطبعة المدني سنة ١٣٨٦.
■ الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار ــ الحازمي ــ ط حمص.
■ إعجاز القرآن ــ محمد بن الطيب الباقلاني ــ تحقيق سيد أحمد الصقر ــ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م.
■ إعجاز القرآن ــ مصطفى صادق الرافعي ــ مطبعة الاستقامة سنة ١٣٨٤.
■ الأعلام ــ خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين ط ٦- ١٩٨٤.
■ الأعلام العلية ــ ابن تيمية ــ تحقيق محمد زهير الشاويش ــ المكتب الإسلامي.
■ إعلام الموقعين ــ ابن القيم ــ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٦٨.
■ الأغاني ــ أبو الفرج الأصفهاني ــ دار الكتب المصرية.
■ اقتضاء الصراط المستقيم ــ ابن تيمية ــ تحقيق حامد الفقي ــ مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠).

■ اقتضاء العلم العمل ــ الخطيب البغدادي ــ المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٧.
■ الاقتراح في أصول النحو ــ عبد الرحمن السيوطي. ط الهند وتصوير دار المعارف حلب.
■ الإكسير في علم التفسير ــ سليمان بن عبد القوي الطوفي ــ نشر مكتبة الآداب في مصر سنة ١٩٧٧ م.
■ الإكليل في التشابه والتأويل ــ ابن تيمية ــ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٩٤ هـ.
■ الأم ــ الشافعي. الاميرية، ١٣٢١ هـ، مصر.
■ أيام العرب في الجاهلية ــ البجاوي واخوانه. دار احياء الكتب العربية، مصر.
■ أيمان العرب في الجاهلية ــ ابراهيم بن عبد الله النجيرمي ــ تحقيق محب الدين الخطيب ــ ط ثانية سنة ١٣٨٢ هـ.
■ الباعث الحثيث ــ أحمد محمد شاكر ــ مطبعة محمد علي صبيح ــ ط ٣ سنة ١٣٧٧ هـ.
■ الباعث على الخلاص من حوادث القصاص ــ الحافظ العراقي ــ تحقيق محمد ابن لطفي الصباغ ــ نشر في مجلة أضواء الشريعة سنة ١٣٩٣.
■ البحر المحيط ــ أبو حيان النحوي ــ طبع في مصر وأعيد تصويره بالأوفست في بيروت.
■ بدائع الفوائد ــ ابن القيم ــ طبعة مصورة عن الطبعة الخيرية بمصر ــ صوّرتها دار الكتاب العربي ببيروت.
■ البداية والنهاية ــ ابن كثير ــ مطبعة السعادة سنة ١٣٥١ هـ.
■ البرهان في أصول الفقه ــ الجويني إمام الحرمين ــ تحقيق عبد العظيم الديب ــ طبع قطر سنة ١٣٩٩ هـ.
■ البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان ــ سعدي ياسين ــ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٣٩٥ هـ.
■ البرهان في علوم القرآن ــ الزركشي ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ــ البابي الحلبي ــ ط ٢ سنة ١٣٩١ هـ.
■ بلوغ الأرب في أحوال العرب ــ محمود شكري الألوسي.

■ بنو إسرائيل في القرآن والسنة ــ محمد سيد طنطاوي ــ مصر ١٩٦٨.
■ تاج العروس في شرح القاموس ــ الزبيدي ــ المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٦.
■ تاريخ الأدب العربي ــ بروكلمان ــ الترجمة العربية ــ دار المعارف بمصر (الجزء الأول صدر سنة ١٩٥٩).
■ تاريخ بغداد ــ الخطيب البغدادي ــ مطبعة السعادة سنة ١٩٣١ م.
■ تأويل مختلف الحديث ــ ابن قتيبة ــ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٨٦ هـ.
■ تأويل مشكل القرآن ــ ابن قتيبة ــ تحقيق سيد صقر ــ دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٤ م.
■ التبيان في آداب حملة القرآن ــ النووي ــ مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٣٤.
■ تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ــ السيوطي ــ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الاسلامي بيروت.
■ تذكرة الحفاظ ــ الذهبي ــ مصورة عن الطبعة الهندية.
■ الترغيب والترهيب ــ المنذري.
■ التصوير الفني في القرآن ــ سيد قطب ــ دار المعارف سنة ١٩٥٦ م.
■ تفسير ابن عاشور وهو (التحرير والتنوير).
■ تفسير ابن كثير ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي ــ دون تاريخ.
■ تفسير ابن كثير ــ تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا كتاب الشعب.
■ تفسير أبي السعود. تحقيق عبد القادر عطا ــ نشر مكتبة الرياض الحديثة سنة ١٤٠١.
■ تفسير الألوسي وهو (روح المعاني في تفسير القرآن) ــ المطبعة المنيرية سنة ١٣٥٤.
■ التفسير البياني ــ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ــ دار المعارف سنة ١٩٦٩ م.
■ تفسير البيضاوي وهو (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ــ مطبعة مصطفى محمد ــ دون تاريخ.

- تفسير الجلالين ــ مكتبة الملاح ــ دمشق سنة ١٣٩٨.
- تفسير الجمل وهو (الفتوحات الإلهية) مطبعة عيسى البابي الحلبي ــ دون تاريخ.
- تفسير الخازن. طبعة مصورة في بيروت عن الطبعة المصرية ــ دون تاريخ وطبعة أخرى في مطبعة الاستقامة ١٣٧٤ (١٩٥٥).
- تفسير الرازي ــ فخر الدين محمد بن عمر ــ مصر دون تاريخ.
- تفسير الشوكاني وهو (فتح القدير).
- تفسير الطبري ــ محمد بن جرير ــ تحقيق محمود محمد شاكر ــ دار المعارف سنة ١٩٦٩ م.
- تفسير القرطبي وهو (الجامع لأحكام القرآن) ــ محمد بن أحمد القرطبي ــ دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٥ م.
- تفسير الكشاف ــ محمد بن عمر الزمخشري ــ المكتبة التجارية سنة ١٣٤٥ هـ.
- تفسير المنار ــ محمد رشيد رضا ــ مطبعة المنار سنة ١٣٦٥ هـ.
- تفسير النسفي وهو (مدارك التنزيل) ــ دار إحياء الكتب العربية ــ دون تاريخ.
- التفسير ورجاله ــ محمد الفاضل بن عاشور ــ دار الكتب الشرقية ــ تونس سنة ١٩٦٦ م.
- التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء ــ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ــ القاهرة ١٩٧٣.
- التفسير والمفسرون ــ محمد حسين الذهبي ــ دار الكتب الحديثة ــ مصر سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦٢ م).
- التكميل في أصول التأويل ــ عبد الحميد الفراهي ــ طبع الهند.
- توجيه النظر ــ طاهر الجزائري. المطبعة الجمالية، ط ١- ١٩١٠، مصر.
- جامع بيان العلم وفضله ــ ابن عبد البر ــ طبعة مصورة بالأوفست عن الطبعة المصرية ــ دون تاريخ.
- جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان ــ المغراوي بتحقيق التازي ــ نشر مكتب التربية العربي سنة ١٤٠٧.

■ الجامع الصغير ــ السيوطي.
■ الحديث النبوي ــ محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الإسلامي بيروت سنة ١٤٠٧ (١٩٨٦) ط ٥.
■ الحوادث والبدع ــ محمد بن الوليد الطرطوشي ــ تحقيق محمد الطالبي ــ دار الأصفاني جدة ــ دون تاريخ.
■ خطبة الحاجة ــ محمد ناصر الدين الألباني ــ المكتب الإسلامي.
■ الخمر بين الطب والفقه ــ محمد علي البار ــ.
■ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ــ السيوطي ــ المطبعة الإسلامية بالأوفست ــ طهران سنة ١٣٧٧ هـ.
■ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب محمد الأمين الشنقيطي ــ مطابع الرياض سنة ١٣٧٥ هـ.
■ دلائل الإعجاز ــ عبد القاهر الجرجاني ــ باشراف محمد رشيد رضا ــ المنار بمصر سنة ١٣٦٧ هـ.
■ ديوان أبي فراس الحمداني. بيروت ١٩٤٤.
■ ديوان طرفة بن العبد ــ الشركة اللبنانية لكتاب بيروت ــ ١٩٦٩.
■ ديوان عنترة ــ تحقيق محمد سعيد مولوي ــ المكتب الإسلامي ــ دمشق دون تاريخ.
■ ديوان المتنبي.
■ الرسالة ــ الشافعي ــ تحقيق أحمد محمد شاكر ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٤٠ م.
■ رسالة الرد على النصارى ــ الجاحظ ــ تحقيق يوشع فنكل ــ المطبعة السلفية ــ مصر سنة ١٣٤٤.
■ روضة العقلاء ــ ابن حبان. مطبعة الحلبي، ط ١- ١٩٥٥، مصر.
■ رياض الصالحين ــ النووي ــ تحقيق الألباني ــ المكتب الاسلامي بيروت سنة ١٣٩٩ هـ.
■ زاد المسير ــ ابن الجوزي ــ المكتب الإسلامي ــ دمشق سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤).

- زاد المعاد ـ ابن القيم ـ تحقيق الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠١ هـ.
- سبل السلام ـ الصنعاني. مطبعة الحلبي، ط ٤- ١٩٦٠، مصر.
- سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٢ هـ.
- سنن أبي داود ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة سنة ١٣٦٩ هـ.
- سنن الترمذي ـ المطبوع مع تحفة الأحوذي ـ طبع الهند سنة ١٣٤٣ هـ.
- سنن الدارمي ـ تحقيق محمد أحمد دهمان ـ مطبعة الاعتدال بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ.
- سنن النسائي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨٣ هـ.
- شرح الجامع الصغير (التيسير) ـ المناوي. المكتب الاسلامي.
- شرح العقيدة الطحاوية ـ المكتب الإسلامي، الطبعة التاسعة ١٤٠٨.
- شرح مسلم ـ النووي.
- الشفا ـ القاضي عياض ـ دار الكتب العربية مصر ـ دون تاريخ.
- صحيح ابن خزيمة ـ تحقيق محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الاسلامي، ١٩٧١، بيروت.
- صحيح البخاري ـ محمد بن إسماعيل البخاري ـ تحقيق محمود النواوي وأبي الفضل إبراهيم ومحمد خفاجي ـ مطبعة الفجالة سنة ١٣٧٦.
- صحيح الجامع الصغير ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.
- صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج ـ طبعة مصورة عن طبعة استانبول ـ دون تاريخ.
- طبقات المفسرين ـ الداودي ـ تحقيق علي محمد عمر ـ مكتبة وهبة ـ سنة ١٣٩٢.
- طبقات المفسرين ـ السيوطي ـ مكتبة وهبة سنة ١٩٧٦.
- الظاهرة القرآنية ـ مالك بن نبي ـ دار الفكر ـ دمشق ١٩٨٠.
- العقد الفريد ـ ابن عبد ربه. لجنة التأليف، ١٩٤٠، مصر.

■ العلم لزهير بن حرب تحقيق الألباني ط المكتب الاسلامي.
■ عمدة التفسير ــ أحمد محمد شاكر ــ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦.
■ عيون الأخبار ــ ابن قتيبة. المؤسسة المصرية العامة.
■ فتح الباري ــ ابن حجر ــ المطبعة السلفية سنة ١٣٨٠ هـ.
■ فتح القدير ــ الشوكاني ــ مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٤٩ هـ.
■ الفروق ــ القرافي. دار احياء الكتب العربية ط ١- ١٣٤٥، القاهرة.
■ فضائل القرآن ــ ابن كثير ــ مطبوع في آخر الجزء الرابع من تفسير ابن كثير ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٧١.
■ الفقيه والمتفقه ــ الخطيب البغدادي ــ تحقيق اسماعيل الانصاري ــ مطابع القصيم الرياض ١٣٨٩.
■ الفهرست ــ ابن النديم ــ مطبعة الاستقامة ــ دون تاريخ.
■ فوائد قرآنية ــ عبد الرحمن بن سعدي ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت سنة ١٣٨٩ هـ.
■ فوات الوفيات. مكتبة السعادة، مصر.
■ الفوز الكبير ــ ابن رجب. مكتبة الخانجي، ط ١- ١٩٣٣، مصر.
■ في أصول النحو ــ سعيد الأفغاني ــ دارالفكر بدمشق ١٣٨٣ هـ.
■ في ظلال القرآن ــ سيد قطب (هناك طبعتان وقد استعملت كلتيهما).
■ فيض القدير ــ عبد الرؤوف المناوي ــ مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٦ هـ.
■ القاموس المحيط ــ الفيروزابادي ــ مطبعة دار المأمون ١٣٥٧ هـ.
■ القرامطة ــ ابن الجوزي ــ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الإسلامي بيروت سنة ١٣٩٠ هـ.
■ القصّاص والمذكّرون ــ ابن الجوزي ــ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الإسلامي بيروت.
■ القواعد ــ ابن رجب.
■ قواعد الأحكام ــ العز بن عبد السلام. مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨.
■ القواعد الحسان ــ عبد الرحمن بن سِعْدِي.
■ قواعد اللغة العربية ــ حفني ناصف واخوانه. مصر.

- القواعد النورانية ــ ابن تيمية. السنة المحمدية، مصر.
- الكشاف (أنظر تفسير الكشاف).
- كشف الظنون ــ حاجي خليفة ــ مصورة بالأوفست ــ المطبعة الإسلامية بطهران سنة ١٣٨٧.
- الكفاية ــ الخطيب البغدادي ــ دار الكتب الحديثة ــ مطبعة السعادة سنة ١٩٧٢.
- لباب النقول في أسباب النزول ــ السيوطي. (حاشية تفسير الجلالين) ــ طبعات كثيرة.
- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ــ محمد بن لطفي الصباغ ــ المكتب الإسلامي ط ٢ سنة ١٤٠٦.
- مبادىء أساسية لفهم القرآن ــ المودودي ــ ترجمة خليل حامدي ــ دار القلم في الكويت ط ٣ سنة ١٣٩١.
- مجلة الأحكام العدلية.
- مجلة الرائد الهندية ومجلات أخرى.
- مجموع الفتاوى ــ ابن تيمية ــ طبع الرياض سنة ١٣٨١.
- مختار الصحاح ــ الرازي ــ مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٣٨.
- مختصر الصواعق ــ ابن القيم اختصار محمد بن الموصلي.
- مختصر المقاصد الحسنة ــ الزرقاني ــ تحقيق محمد بن لطفي الصباغ.
- مدخل إلى القرآن الكريم ــ محمد عبد الله دراز ــ دار القلم بالكويت ودار القرآن بيروت سنة ١٣٩١.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ــ أبو شامة ــ تحقيق طيار آلتي قولاج ــ دار صادر بيروت سنة ١٣٩٥.
- المزهر ــ السيوطي ــ تحقيق جاد المولى وأبو الفضل والبجاوي ــ دار إحياء الكتب العربية ــ دون تاريخ.
- المستدرك ــ الحاكم ــ طبع الهند سنة ١٣٣٣.
- المستقبل لهذا الدين ــ سيد قطب. مكتبة وهبة، ط ٢- ١٩٦٥.
- المستصفى ــ الإمام الغزالي. الأميرية، ١٣٢٢، مصر.

■ المسند ــ أحمد بن حنبل ــ المطبعة الميمنية سنة ١٣١٣.
■ المصلحة في التشريع الاسلامي ونجم الدين الطوفي ــ مصطفى زيد ــ دار الفكر العربي ــ مصر ١٣٨٤-١٩٦٤.
■ معالم في الطريق ــ سيد قطب ــ مكتبة وهبة سنة ١٣٨٤.
■ المعجزة الكبرى القرآن ــ محمد أبو زهرة ــ دار الفكر العربي ودار الحمامي بمصر ــ دون تاريخ.
■ معركة شقحب ــ محمد بن لطفي الصباغ (مخطوط).
■ مفتاح السعادة ــ طاشكبري زادة ــ مطبعة الاستقلال بمصر ــ دون تاريخ.
■ المفردات ــ الراغب الأصفهاني ــ المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٤.
■ مقدمة في أصول التفسير ــ ابن تيمية ــ تحقيق عدنان زرزور ــ دار القلم بيروت سنة ١٣٩١.
■ مقدمة محمود محمد شاكر لتفسير الطبري.
■ مقدمة محمود محمد شاكر للظاهرة القرآنية.
■ المنثور في القواعد ــ الزركشي.
■ الموافقات ــ الشاطبي. مطبعة المكتبة التجارية.
■ الموازنة ــ الآمدي. دار المعارف، ١٩٦١.
■ الميسر والقداح ــ ابن قتيبة. المطبعة السلفية، ط ٢- ١٣٨٥ هـ.
■ النبأ العظيم ــ محمد عبد الله دراز. دار القلم، كويت.
■ نيل الأوطار ــ الشوكاني.
■ هذا الدين ــ سيد قطب دار الشروق ط ٧ سنة ١٤٠٢.
■ اليهود في القرآن ــ عبد الكريم الخطيب.
■ اليهود في القرآن ــ عفيف طبارة ــ دار العلم للملايين ط ٥ سنة ١٩٧٧.
■ اليهود في القرآن ــ محمد عزة دروزة المكتب الاسلامي بيروت ١٤٠٠.

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ـــ الاسرائيليات	٧١
ـــ أقوال التابعين	٧٣
ـــ مجاهد	٧٣
ـــ تابعون آخرون	٧٤
ـــ اختلاف التابعين اختلاف تنوع	٧٤
ـــ حجية أقوال التابعين	٧٥
ـــ الأخذ بما أجمع عليه التابعون	٧٦
ابن تيمية وأصول التفسير	٧٧
ـــ ترجمة موجزة لابن تيمية	٧٧
ـــ نشر رسالته في أصول التفسير	٧٩
ـــ سبب تأليفه هذه الرسالة	٨٠
ـــ العلم إما نقل أو اجتهاد	٨١
ـــ حاجة الأمة إلى فهم القرآن	٨١
ـــ وصف القرآن	٨١
ـــ الرسالة مختصرة وهي املاء	٨٣
ـــ تدبر القرآن وكيفية دراسته والعمل به	٨٣
ـــ الخلاف بين الصحابة والتابعين في التفسير قليل	٨٦
ـــ تفسير التابعين نوعان: منقول ومستنبط	٨٧
ـــ اختلاف السلف في التفسير وهو اختلاف تنوع	٨٧
ـــ اختلافهم نوعان	٨٨
ـــ اختلافهم يمدنا بالتصور الأوضح للنص القرآني	١٠٨
معرفة أسباب النزول	١١١
ـــ معرفة أسباب النزول معينة على فهم الآية	١١١
ـــ معرفة أسباب النزول تزيل الاشكال	١١١
ـــ قوله تعالى: ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون.. ﴾	١١١
ـــ قوله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة ﴾	١١٢

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة